

المجلد الخامس

من صفحة 413-

عساكرها مع المعظم تورانشاه بن صلاح الدين فهزموه وأسروه. وقتلوا الصالح بن الأفضل صاحب سميساط، وكان في جملة. وملكوا منبج عنوة ورجعوا. ثم ساروا من حران وعبروا من ناحية الرقة وعاثوا في البلاد. وجمع أهل حلب العساكر، وأمدهم الصالح إسماعيل من دمشق بعسكر مع المنصور إبراهيم صاحب حمص، وقصدوا الخوارزمية فانقلبوا إلى حران. ثم تواقعوا مع العساكر فانهزموا، واستولى عسكر حلب على حران والرها وسروج والرقة ورأس عين وما إليها. وخلص المعظم تورانشاه فبعث به لؤلؤ صاحب الموصل إلى عسكر حلب. ثم سار عسكر حلب إلى آمد وحاصروا المعظم تورانشاه وغلبوه على آمد. وأقام بحصن كيفا إلى أن هلك أبوه بمصر، واستدعي لملكها فسار لذلك وولى ابنه الموحد عبد الله بكيفا إلى أن غلب التتر على بلاد الشام. ثم سار الخوارزمية سنة أربعين مع المظفر غازي صاحب ميفارقين من أقتال صاحب حلب، ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص فانهزموا وغنمت العساكر سوادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أخبار حلب

قد كان تقدم لنا ولاية الظاهر غازي على حلب بعد وفاة أبيه. ثم توفي سنة أربع وثلاثين، ونصب أهل الدولة ابنه الناصر يوسف في كفالة جدته أم العزيز صفية خاتون بنت العادل، و لؤلؤ الأرميني وإقبال الخاتوني وعز الدين بن مجلي قائمون بالدولة في تصريفها. وما زالت تجهز العساكر لدفاع الخوارزمية وتفتح البلاد إلى أن توفيت سنة أربعين، واستقل الناصر بتدبير ملكه، وصرف النظر في أموره لجمال الدين إقبال الخاتوني والله أعلم.

الصالح أيوب مع عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستيلاء أيوب آخرأ عليها

قد كان تقدم لنا أن الصالح إسماعيل بن العادل خالف الصالح أيوب على دمشق عند مسيره إلى مصر فملك دمشق سنة ست وثلاثين، وكان بعد ذلك إعتقال الصالح بالكرك ثم استيلاؤه على مصر سنة سبع وثلاثين، وبقيت الفتنة متصلة بينهما. وطلب الصالح إسماعيل صاحب دمشق من الإفرنج المظاهرة على أيوب صاحب مصر على أن يعطيهم حصن الشقيف وصفد فأمضى ذلك ونكره مشيخة العلماء بعصره. وخرج من دمشق عز الدين بن عبد السلام

الشافعي، ولحق بمصر فولاه الصالح خطة القضاء بها. ثم خرج بعده جمال الدين بن الحاجب المالكي إلى الكرك، ولحق بالاسكندرية فمات بها. ثم تداعى ملوك الشام لفتنة الصالح أيوب ؛ واتفق عليها إسماعيل الصالح صاحب دمشق، والناصر يوسف صاحب حلب، وجدته صفية خاتون، وإبراهيم المنصور بن شيركوه صاحب حمص. وخالفهم المظفر صاحب حماة، وجنح إلى ولاية نجم الدين أيوب، وأقام حالهم في الفتنة على ذلك. ثم جنحوا إلى الصلح على أن يطلق صاحب دمشق فتح الدين عمر بن نجم الدين أيوب الذي إعتقله بدمشق فلم يجب إلى ذلك، واستجدت الفتنة. وسار الناصر داود صاحب الكرك مع إسماعيل الصالح صاحب دمشق، واستظهروا بالإفرنج، وأعطاهم إسماعيل القدس على ذلك. واستنجد بالخوارزمية أيضاً فأجابوه، واجتمعوا بغزة. وبعث نجم الدين العساكر مع مولاه بيبرس وكانت له ذمة باعتقاله معه فتلاقوا مع الخوارزمية، وجاءت عساكر مصر مع المنصور إبراهيم بن شيركوه، ولاقوا الإفرنج من عكا فكان الظفر لعساكر مصر والخوارزمية واتبعوه إلى دمشق، وحاصروا بها الصالح إسماعيل إلى أن جهده الحصار، وسأل في الصلح على أن يعوض عن دمشق بعلبك وبصرى والسواد فأجابه أيوب إلى ذلك. وخرج إسماعيل من دمشق إلى بعلبك سنة ثمان وأربعين. وبعث نجم الدين إلى حسام الدين علي بن أبي علي الهدباني، وكان معتقلا عند إسماعيل بدمشق فشرط نجم الدين إطلاقه في الصلح الأول فأطلقه، وبعث إليه بالنيابة عنه بدمشق فقام بها. وإنصرف إبراهيم المنصور إلى حمص وانتزع صاحب حماة منه سلمية فملكها. واشتط الخوارزمية على الهدباني في دمشق في الولايات والإقطاعات وامتعضوا لذلك فسار بهم الصالح إسماعيل إلى دمشق موصلا الكرة، ومعه الناصر صاحب الكرك فقام الهدباني في دفاعهم أحسن قيام. وبعث نجم الدين من مصر إلى يوسف الناصر يستنجده على دفع الخوارزمية عن دمشق فسار في عساكره، ومعه إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص فهزموا الخوارزمية على دمشق سنة أربع وأربعين، وقتل مقدمهم حسام الدين بركت خان، وذهب بقيتهم مع مقدمهم الآخر كشلو خان فلحقوا بالتر واندرجوا في جملتهم، وذهب أثرهم من العام واستجار

إسماعيل الصالح وكان معهم بالناصر صاحب حلب فأجاره من نجم الدين أيوب. وسار حسام الدين الهدباني بعساكر دمشق إلى بعلبك وتسلمها بالأمان، وبعث بأولاد إسماعيل ووزيره ناصر الدين يغمور إلى نجم الدين أيوب فاعتقلهم بمصر. وسارت عساكر الناصر يوسف صاحب حلب إلى الجزيرة فتواقعوا مع لؤلؤ صاحب الموصل فانهزم لؤلؤ، وملك الناصر نصيبين ودارا أو قرقيسياً، وعاد عسكره إلى حلب، والله تعالى أعلم.

مسير الصالح أيوب إلى دمشق اولا وثانيا وحصار حمص وما كان مع ذلك من الأحداث

ثم بعث الصالح عن حسام الدين الهدباني من دمشق، وولى مكانه جمال الدين بن مطروح. ثم سار إلى دمشق سنة خمس وأربعين واستخلف الهدباني على مصر. ولما وصل إلى دمشق جهز فخر الدين بن الشيخ بالعساكر إلى عسقلان وطبرية فحاصرهما مدة، وفتحهما من يد الإفرنج ووفد على الصالح بدمشق المنصور صاحب حماة وكان أبوه المظفر توفي سنة ثلاث وأربعين، وولى المنصور ابنه هذا وإسمه محمد. ووفد أيضاً الأشرف موسى صاحب حمص، وقد كان أبوه إبراهيم المنصور توفي سنة أربع وأربعين قبلها بدمشق وهو ذاهب إلى مصر وافداً على الصالح أيوب. وأقام بحمص ابنه مظفر الدين موسى ولقب الأشرف. وجاءت عساكر حلب سنة ست وأربعين مع لؤلؤ الأرميني وحصروا مصر شهرين وملكوها من يد موسى الأشرف، وأعاضوه عنها تل باشر من قلاع حلب مضافة إلى الرحبة وتدمر، وكانتا بيده مع حمص. وغضب لذلك الصالح فسار من مصر إلى دمشق، وجهز العساكر إلى حصار حمص مع حسام الدين الهدباني وفخر الدين بن الشيخ فحاصروا مصر مدة. وجاء رسول الخليفة المستعصم إلى الصالح أيوب شافعاً فأفرج العساكر عنها، وولى على دمشق جمال الدين يغمور، وعزل ابن مطروح والله تعالى أعلم.

استيلاء الإفرنج على دمياط

كانت إفرنسة أمة عظيمة من الإفرنج، والظاهر أنهم أصل الإفرنج. وأن إفرنسة هي إفرنجة إنقلبت السين بها جيما عندما عربتها العرب، وكان ملكها من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه ري الإفرنس ؛ ومعنى ري في لغتهم ملك إفرنس. فاعتزم هذا الملك على سواحل الشام وسار لذلك، كما سار من قبله من ملوكهم. وكان ملكه قد استفحل فركب البحر إلى قبرص في خمسين ألف مقاتل وشتى بها. ثم عبر سنة سبع وأربعين إلى دمياط، وبها بنو كنانة أنزلهم الصالح بها حامية فلما رأوا ما لا قبل لهم به

أجفلوا عنها فملكها ري إفرنس، وبلغ الخبر إلى الصالح وهو بدمشق
وعساكره نازلة بحمص، فكر راجعاً إلى مصر، وقدم فخر الدين ابن

الشيخ أتابك عساكره، ووصل بعده فنزل المنصورة وقد أصابه بالطريق وعك واشتد عليه والله تعالى أعلم.

استيلاء الصالح على الكرك:

كان بين الصالح أيوب وبين الناصر داود ابن عمه المعظم من العداوة ما تقدم، وقد ذكرنا إعتقال الناصر له بالكرك فلما ملك الصالح دمشق بعث العساكر مع أتابكة فخر الدين يوسف ابن الشيخ لحصار الكرك. وكان أخوه العادل إعتقله وأطلقه الصالح وألزمه بيته، ثم جهزه لحصار الكرك فسار إليها سنة أربع وأربعين وحاصرها، وملك سائر أعمالها وخرّب نواحيها. وسار الناصر من الكرك إلى الناصر يوسف صاحب حلب مستجيراً به بعد أن بعث بذخيره إلى المستعصم، وكتب له خطه بوصولها. وكان قد استخلف على الكرك عندما سار إلى حلب ابنه الأصغر عيسى ولقبه المعظم فغضب أخواه الأكبران الأمجد حسن والظاهر شادي فقبضا على أخيها عيسى، ووفدا على الصالح سنة ست وأربعين وهو بالمنصورة قبالة الإفرنج فملك الكرك والشويك منهما وولى عليهما بدرا الصواي ، وأقطعهما بالديار المصرية والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الصالح أيوب صاحب مصر والشام وسيد ملوك

الترك

بمصر وولاية ابنه تورانشاه وهزيمة الإفرنج وأسر

ملكهم

ثم توفي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة سبع وأربعين بمكانه من المنصورة قبالة الإفرنج، وخشي أهل الدولة من الإفرنج فكتموا موته، وقامت أمّ ولده شجرة الدر بالأمر، وجمعت الأمراء وسيروا بالخبر إلى حسام الدين الهدباني بمصر فجمع الأمراء وقوى جأشهم واستحلفهم. وأرسل الأتابك فخر الدين بن الشيخ بالخبر إلى المعظم تورانشاه بن الصالح، واستدعاه من مكان إمارته بحصن كيفا. ثم إنتشر خبر الوفاة وبلغ الإفرنج فشرهوا إلى قتال المسلمين، ودلفوا إلى المعسكر فانكشف المسلمون، وقتل الأتابك فخر الدين. ثم أتاح الله الكرة للمسلمين، وإنهزم الإفرنج،

ووصل المعظم تورانشاه من مكانه بحصن كيفا لثلاثة أشهر أو تزيد فبايعه المسلمون واجتمعوا عليه، واشتدوا في قتال الإفرنج وغلبت أساطيلهم أساطيل العدو. وسأل الإفرنج في الإفراج عن دمياط على أن يعاضوا بالقدس فلم يجبهم المسلمون إلى ذلك.

وسارت سرايا المسلمين من حولهم وفيما بين معسكرهم وبين دمياط فرحلوا راجعين إليها. وأتبعهم المسلمون فأدركهم الدهش وانهزموا، وأسر ملكهم ربيّ إفرنس وهو المعروف بالفرنسيس. وقتل منهم أكثر من ثلاثين ألفاً. واعتقل الفرنسيس بالدار المعروفة بفخر الدين بن لقمان ووكل به الخادم صبيح المعظمي. ثم رحل المعظم بعساكر المسلمين راجعاً إلى مصر، والله تعالى أعلم.

مقتل المعظم تورانشاه وولاية شجرة الدر

وفداء الفرنسيس بدمياط:

ولما بوع المعظم تورانشاه وكانت له بطانة من المماليك جاء بهم من كيفا فتسلطوا

على موالي أبيه، وتقسموهم بين النكبة والإهمال. وكان للصالح جماعة من الموالي وهم البحرية الذين كان ينزلهم بالدار التي بناها إزاء المقياس، وكانوا بطانته وخالصته. وكان كبيرهم بيبرس، وهو الذي كان الصالح بعثه بالعساكر لقتال الخوارزمية عندما زحفوا مع عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق. وقد مر ذكر ذلك فصارت صاغيته معهم. ثم استمالهم الصالح فصاروا معه وزحفوا مع عساكره إلى عساكر دمشق والإفرنج فهزموهم وحاصروا دمشق وملكوها بدعوة الصالح كما مر. واستوحش بيبرس حتى بعث إليه الصالح بالأمان سنة أربع وأربعين ولحقه بمصر فحبسه على ما كان منه، ثم أطلقه. وكان من خواص الصالح أيضاً قلاون الصالحي كان من موالي علاء الدين قراسنقرمملوك العادل، وتوفي سنة خمس وأربعين وورثه الصالح بحكم الولاء. ومنهم أقطاي الجامدار وأبيك التركماني وغيرهم فأنفوا من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فاعصوبوا واعتزموا على الفتك بالمعظم. ورحل من المنصورة بعد هزيمة الإفرنج راجعاً إلى مصر فلما قربت له الحراقة عند البرج ليركب البحر كبسوه بمجلسه، وتناوله بيبرس بالسيف فهرب إلى البرج فاضرموه ناراً فهرب إلى البحر فرموه بالسهم فألقى نفسه في الماء وهلك بين السيف والماء لشهرين من وصوله وملكه. ثم إجتمع هؤلاء الأمراء المتولون قتل تورانشاه ونصبوا للملك أم خليل شجرة الدر زوجة الصالح، وأم ولده خليل

المتوفى في حياته، وبه كانت تلقب. وخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها ووضعت علامتها على المراسم، وكان نص علامتها أم خليل وقدم أتابك على العساكر عز الدين الجاشنكيرأيك التركماني، فلما استقرت الدولة طلبهم الفرنسيس في الفداء على تسليم دمياط للمسلمين فاستولوا عليها سنة ثمان وأربعين. وركب الفرنسيس البحر إلى عكا وعظم

الفتح وأنشد الشعراء في ذلك وتساجلوا. ولجمال الدين بن مطروح
نائب دمشق ابيات في الواقعة يتداولها الناس لهذا العصر، والله تعالى ولي
التوفيق وهي:

مقال صدق عن قول فصيح	قل للفرنسيس إذا جئته	ㄱ#
من قتل عباد يسوع المسيح	آجرك الله على ما جرى	ㄱ#
تحسب أن الزمر بالطبل ريح	أتيت مصرأً تبتغي ملكها	ㄴ#
ضاق بهم في ناظريك الفسيح	فساقك الحين إلى أدهم	ㄷ#
بسوء تدبيرك بطن الضريح	وكل أصحابك أودعتهم	ㄷ#
إلا قتيل أو أسير جريح	خمسون ألفاً لا يرى منهم	ㄹ#
لعلنا من شركم نستريح	وفقك الله لأمثالها	ㅁ#
فرب غش قد أتى من نصيح	إن كان باباكم بذا راضياً	ㄴ#
إنه لطف من الله إليكم أتيح	أوصيكم خيراً به	ㅇ#
ما كان يستحسن هذا القبيح	لو كان ذا رشد على زعمكم	ㅇ#
والقيد باق والطواشي صبيح	فقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد قبيح	ㅈ#
	دار ابن لقمان على حالها	ㅊ#

والطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي، ويسمونه الخادم أيضاً
والله أعلم.

استيلاء الناصر صاحب حلب على دمشق وبيعة

الترك بمصر لموسى

الأشرف بن أطمسز بن المسعود صاحب اليمن

وتراجعهما ثم صلحهما

ولما قتل المعظم تورانشاه ونصب الأمراء بعده شجرة الدر زوجة
الصالح إمتعض لذلك أمراء بني أيوب بالشام، وكان بدر الصوابي بالكرك

والشوبك ولأه الصالح عليهما، وحبس عنده فتح الدين عمر ابن أخيه العادل فأطلقه من محبسه وبايع له. وقام بتدبير دولته جمال الدين بن يغمور بدمشق، واجتمع مع الأمراء القصرية بها على استدعاء الناصر صاحب حلب وتمليكه فسار وملك دمشق، واعتقل جماعة من موالي الصالح. وبلغ الخبر إلى مصر فخلعوا شجرة الدر ونصبوا موسى الأشرف بن مسعود أخي الصالح بن الكامل، وهو الذي ملك أخوه أطرز واسمه يوسف باليمن بعد أبيهما مسعود، وبايعوا له وأجلسوه على التخت، وجعلوا أيبك أتابكه. ثم

انتقض الترك بغزة ونادوا بطاعة المغيث صاحب الكرك، فنادى الترك بمصر بطاعة المستعصم وجددوا البيعة للأشرف وأتابكه. ثم سار الناصر يوسف بعسكره من دمشق إلى مصر فجهز الأمراء العساكر إلى الشام مع أقطاي الجامدار كبير البحرية، ويلقب فارس الدين فأجفلت عساكر الشام بين يديه. ثم قبض الناصر يوسف صاحب دمشق على الناصر داود لشيء بلغه عنه وحبسه بحمص، وبعث عن ملوك بني أيوب فجاءه موسى الأشرف صاحب حمص والرحبة وتدمر، والصالح إسماعيل بن العادل من بعلبك، والمعظم تورانشاه وأخوه نصر الدين ابنا صلاح الدين، والأمجد حسام الدين والظاهر شادي ابنا الناصر، وداود صاحب الكرك، وتقي الدين عباس بن العادل؛ واجتمعوا بدمشق. وبعث في مقدمته مولاة لؤلؤ الأرمني، وخرج إليك التركماني في العساكر من مصر للقائهم، وأفرج عن ولدي الصالح إسماعيل المعتقلين منذ أخذهم الهدباني من بعلبك لیتهم الناس أباهم ويستريبوا به والتقى الجمعان في العباسية فانكشفت عساكر مصر، وسارت عساكر الشام في أتباعهم، وثبت إليك، وهرب إليه جماعة من عساكر الناصر. ثم صدق إليك الحملة على الناصر فتفرقت عساكره وسار منهزماً، وحيء لأبيك بلؤلؤ الأرمني أسيراً فقتله، وأسر إسماعيل الصالح وموسى الأشرف وتورانشاه المعظم وأخوه. ولحق المنهزمون من عسكر مصر بالبلد وشعر المتبعون لهم من عساكر الشام بهزيمة الناصر وراءهم فرجعوا. ودخل إليك إلى القاهرة، وحبس بني أيوب بالقلعة. ثم قتل يغمور وزير الصالح إسماعيل المعتقل ببعلبك مع بنيه، وقتل الصالح إسماعيل في محبسه. ثم جهز الناصر العساكر من دمشق إلى غزة، فتواقعوا مع فارس الدين أقطاي مقدم عساكر مصر، فهزموهم واستولوا عليها. وترددت الرسل بين الناصر وبين الأمراء بمصر، واصطلحوا سنة خمسين، وجعلوا التخم بينهم نهر الأردن. ثم أطلق إليك حسام الدين الهدباني فسار إلى دمشق، وسار في خدمة الناصر. وجاءت إلى الناصر شفاعة المستعصم في الناصر داود صاحب الكرك الذي حبسه بحمص فأفرج عنه، ولحق ببغداد ومعه ابناه الأمجد والظاهر فمنعه الخليفة من دخولها فطلب وديعته فلم يسعف بها. وأقام في أحياء عربية، ثم رجع إلى

دمشق بشفاة من المستعصم للناصر وسكن عنده، والله تعالى ينصر من
يشاء من عباده.

خلع الأشرف بن أطسز واستبداد أيبك وأمراء

الترك بمصر

قد تقدم لنا آنفاً بيعة أمراء التركمان بمصر للأشرف موسى بن يوسف أطسز بن الكامل، وأنهم خطبوا له وأجلسوه علىالتخت بعد أن نصبوا للملك أيبك، وكان طموحاً إلى الاستبداد. وكان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك، وبغض من عنانه منافسة وغيره فأرصد له أيبك ثلاثة من المماليك اغتالوه في بعض سكك القصر وقتلوه سنة اثنتين وخمسين. وكانت جماعة البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بالناصر في دمشق، واستبد أيبك بمصر، وخلع الأشرف وقطع الخطبة له فكان آخر أمراء بني أيوب بمصر، وخطب أيبك لنفسه. ثم تزوج شجرة الدر أم خليل الملكة قبله فلما وصل البحرية إلى الناصر بدمشق أطمعوه في ملك مصر واستحثوه فتجهز وسار إلى غزة، وبرز أيبك بعساكره إلى العباسية فنزل بها.

وانتقض عليه فتوهموا بالثورة به فإرتاب بهم ولحقوا بالناصر. ثم ترددت الرسل بين الناصر وأييك فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العريش. وبعث الناصر

إلى المستعصم مع وزيره كمال الدين بن العديم في طلب الخلعة. وكان أيبك قد بعث بالهدية والطاعة إلى المستعصم فمطل المستعصم الناصر بالخلعة حتى بعثها إليه سنة خمس وخمسين. ثم قتل المعز أيبك قتلته شجرة الدر غيلة في الحمام سنة خمس وخمسين غيره من خطبته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه المنصور، وثاروا به من شجرة الدر كما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

مسير المغيـث بن العادل صاحب الكرك

مع البحرية إلى مصر وإنهزامهم

كان البحرية منذ لحقوا بالناصر بعد مقتل أقطاي الجامدار مقيمين عنده، ثم ارتاب

بهم وطردهم آخر سنة خمس وخمسين فلحقوا بغزة وكاتبوا المغيـث فتح الدين عمر بن العادل بالكرك وقد كنا ذكرنا إن بدرا الصوافي أخرجه من

محبسه بالكرك بعد مقتل تورانشاه بمصر، وولاه الملك وقام بتدبير دولته.
وبعث إليه الآن ببيرس البندقاري مقدم البحرية من غزة

يدعوه إلى الملك، وبلغ الخبر إلى الناصر بدمشق فجهز العساكر إلى غزة فقاتلوهم وإنهزموا إلى الكرك فتلقاهم المغيـث وقسم فيهم الأموال واستحثوه لملك مصر فسار معهم، وبرزت عساكر مصر لقتالهم مع قطز مولى أيبك المعز ومواليه، فالتقى الفريقان بالعباسية فانهزم المغيـث والبحرية إلى الكرك، ورجعت العساكر إلى مصر. وفي خلال ذلك أخرج الناصر داود بن المعظم من دمشق حاجا، ونادى في الموسم بتوسله إلى المستعصم في وديعته، وإنصرف مع الحاج إلى العراق فأكرهه المستعصم على براءته من وديعته فكتب وأشهد ولحق بالبرية. وبعث إلى الناصر يوسف يستعطفه فأذن له وسكن دمشق. ثم رجع مع رسول المستعصم الذي جاء معه إلى الناصر بالخلعة والتقليد فأقام بقرقيسيا حتى يستأذن له الرسول فلم يأذن له فأقام عنده بأحياء العرب في التيه فقرّبوا في قلبهم من الكرك، فقبض عليه المغيـث صاحب الكرك وحبسه، حتى إذا زحف التتر لبغداد بعث عنه المستعصم لبيعته مع العساكر لمدافعتهم، وقد استولى التتر على بغداد فرجع ومات ببعض قرى دمشق بالطاعون سنة ست وخمسين إنتهى، والله تعالى أعلم.

زحف الناصر صاحب دمشق إلى الكرك

وحصارها والقبض على البحرية

ولما كان من المغيـث والبحرية ما قدمناه، ورجعوا منهزمين إلى الكرك بعث الناصر عساكره من دمشق إلى البحرية فالتقوا بغزة، وإنهزمت عساكر الناصر وظفرت البحرية بهم. واستفحل أمرهم بالكرك فسار الناصر بنفسه إليهم بالعساكر من دمشق سنة سبع وخمسين، وسار معه صاحب حماة المنصور بن المظفر محمود فنزلوا على الكرك وحاصروها. وأرسل المغيـث إلى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فاجاب. ونمي الخبر إلى بيبرس أميرهم البندقداري فهرب في جماعة منهم، ولحق بالناصر. وقبض المغيـث على الباقيين، وبعث بهم إلى الناصر في القيود ورجع إلى الكرك. ثم بعث إلى الأمراء بمصر وزيره كمال الدين بن العديم يدعوهم إلى الإتفاق إلى مدافعة التتر. وفي أيام مقدم ابن العديم

مصر خلع الأمراء على ابن المعز أيك، وقبض عليه أتابك عسكره وموالي
أبيه، وجلس على التخت وخطب لنفسه،

وقبض على الأمراء الذين يرتاب منازعتهم كما نذكره في أخبارهم. وأعاد ابن العديم إلى مرسله صاحب دمشق بالإجابة والوعد بالمظاهرة، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وإنقراض ملك

بني أيوب وهلاك من هلك منهم

ثم زحف التتر وسلطانهم هلاكو إلى بغداد، واستولى على كرسي الخلافة، وقتلوا المستعصم وطمسوا معالم الملة. وكادت تكون من أشراط الساعة. وقد شرحناها في أخبار الخلفاء ونذكرها في أخبار التتر فبادر الناصر صاحب دمشق بمصانغته، وبعث ابنه العزيز محمداً إلى السلطان هلاكو بالهدايا والألطف فلم يغن ورده بالوعد. ثم بعث هلاكو عساكره إلى ميفارقين، وبها الكامل محمد بن المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الكبير فحاصروها سنتين، ثم ملكوها عنوة سنة ثمان وخمسين وقتلوه. وبعث العساكر إلى إربل فحاصروها ستة أشهر وفتحوها. وسار ملوك بلاد الروم كيكافوس وقليج أرسلان ابنا كنجسرو إلى هلاكو أثر ما ملك بغداد فدخلوا في طاعته ورجعوا إلى بلادهم. وسار هلاكو إلى بلاد أذربيجان، ووفد عليه هنالك لؤلؤ صاحب الموصل سنة سبع وخمسين ودخل في طاعته ورده إلى بلده وهلك أثر ذلك. وملك الموصل مكانه ابنه الصالح وسنجان ابنه علاء الدين. ثم أوفد الناصر ابنه على هلاكو بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة، واعتذر عن لقائه بالتخوف على سواحل الشام من الإفرنج فتلقى ولده بالقبول، وعذره وأرجعه إلى بلده بالمهادنة والمواعدة الجميلة. ثم سار هلاكو إلى حران وبعث ابنه في العساكر إلى حلب وبها المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين نائباً عن الناصر يوسف فخرج لقتالهم في العساكر. وأكمن له التتر واستجروهم ثم كروا عليهم فآخذوا فيهم ورحلوا إلى أعزاز فملكوها صلحا. وبلغ الخبر إلى الناصر وهو بدمشق معسكر من ثورة سنة ثمان وخمسين. وجاء الناصر بن المظفر صاحب حماة فأقام معه ينتظر أمرهم. ثم بلغه أن جماعة من مواليه اعتزموا على الثورة به فكر راجعاً إلى دمشق، ولحق أولئك الموالي بغزة. ثم أطلع على خبتهم وأن قصدهم تمليك

أخيه الظاهر فاستوحش منهم ولحق الظاهر بهم فنصبوه للأمر، واعصوبوا عليه. وكان معهم بيبرس البندقداري وشعر بتلاشي أحوالهم فكاتب المظفر صاحب مصر واستأمن إليه فأمنه. وسار إلى مصر فتلقي بالكرامة وأنزل بدار الوزارة، وأقطعه السلطان قطر قليوب بأعماله. ثم هرب هلاكو إلى الفرات فملك وكان بها

إسماعيل أخو الناصر معتقلاً فأطلقه وسرحه إلى عمله بالصبينة وبانياس وولاه عليهما. وقدم صاحب أرزن إلى تورانشاه نائب حلب يدعوه إلى الطاعة فامتنع فسار إليها وملكها عنوة وأمنها. واعتصم تورانشاه والحامية بالقلعة. وبعث أهل حماة بطاعتهم إلى هلاكو وأن يبعث عليهم نائباً من قبله ويسمى برطانتهم الشحنة. فأرسل إليهم قائداً يسمى خسروشاه، وينسب في العرب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه. وبلغ الناصر أخذ حلب فأجفل عن دمشق واستخلف عليها، وسار إلى غزة واجتمع عليه مواليه وأخوه. وسار التتر إلى نابلس فملكوها وقتلوا من كان بها من العسكر. وسار الناصر من غزة إلى العريش، وقدم رسله إلى قطز تسأله النصر من عدوهم واجتماع الأيدي على المدافعة ثم تقدموا إلى واستراب الناصر بأهل مصر فسار هو وأخوه الظاهر ومعهما الصالح بن الأشرف موسى بن شيركوه إلى التيه فدخلوا إليه وفارقهم المنصور صاحب حماة والعساكر إلى مصر فتلقاهم السلطان قطز بالصالحية، وأنسهم ورجع بهم إلى مصر واستولى التتر على دمشق وسائر بلاد الشام إلى غزة، وولوا على جميعها أمراءهم. ثم افتتحت قلعة حلب، وكان بها جماعة من البحرية معتقلين منهم سنقر الأشقر فدفعهم هلاكو إلى السلطان جق من أكابر أمرائه. وولى على حلب عماد الدين القزويني. ووفد عليه بحلب الأشرف موسى بن منصور بن إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص. وكان الناصر قد أخذها منه كما قدمناه فأعادها عليه هلاكو ورد جميع ولايته بالشام إلى رأيه. وسار إلى قلعة حارم فملكها واستباحها وأمر بتخريب أسوار حلب وقلعتها وكذلك

حماة وحمص وحاصروا قلعة دمشق طويلاً، ثم تسموها بالأمان. ثم ملكوا بعلبك وهدموا قلعتها وساروا إلى الصبينة وبها السعيد بن العزيز بن العادل فملكوها منه على الأمان وسار معهم ووفد على هلاكو فخر الدين بن الزكي من أهل دمشق فولاه القضاء بها. ثم اعتزم هلاكو على الرجوع إلى العراق فعبروا الفرات وولى على الشام أجمع أميراً اسمه كتبغا من أكابر أمرائه، واحتمل. عماد الدين القزويني من حلب، وولى مكانه آخر. وأما الناصر فلما دخل في التيه هاله أمره، وحسن له أصحابه قصد هلاكو فوصل

إلى كتبغا نائب الشام يستأذنه. ثم وصل فقبض عليه وسار به إلى حتى
سلمها إليه أهلها. وبعث به إلى هلاكو فمر

بدمشق ثم بحماة، وبها الأشرف صاحب حمص وخسروشاه نائبها فخرجا لتلقيه. ثم مر بحلب ووصل إلى هلاكو فأقبل عليه ووعدته برده إلى ملكه. ثم ثار المسلمون بدمشق بالنصارى أهل الذمة، وخرّبوا كنيسة مريم من كنائسهم وكانت من أعظم الكنائس في الجانب الذي فتحه خالد بن الوليد رحمه الله. وكانت لهم أخرى في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان. ولما ولي طالبهم في هذه الكنيسة ليدخلها في جامع البلد، وأعلى لهم في السوم فامتنعوا فهدمها وزادها في الجامع لأنها كانت لصقه. فلما ولي عمر بن عبد العزيز استعاضوه فعوضهم بالكنيسة التي ملكها المسلمون بالعنوة مع خالد بن الوليد رحمه الله، وقد تقدم ذكر هذه القصة. فلما ثار المسلمون الآن بالنصارى أهل الذمة خربوا كنيسة مريم هذه، ولم يبقوا لها أثراً. ثم إن العساكر الإسلامية أجمعت بمصر، وساروا إلى الشام لقتال التتر صحبة السلطان قطز صاحب ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل فسار إليه كتبغا نائب الشام، ومعه الأشرف صاحب حمص والسعيد صاحب الصبينة ابن العزيز بن العادل والتقوا على عين. جالوت بالغور فانهزم التتر وقتل أميرهم النائب كتبغا وأسر السعيد صاحب الصبينة فقتله قطز، واستولى على الشام أجمع. وأقر المنصور صاحب حماة على بلده ورجع إلى مصر فهلك في طريقه، قتله بيبرس البندقداري، وجلس على التخت مكانه وتلقب بالظاهر حسبما يذكر ذلك كله في دولة الترك.

ثم جاءت عساكر التتر إلى الشام، وشغل هلاكو عنهم بالفتنة مع قومه وأسف على

قتل كتبغا نائبه وهزيمة عساكره فأحضر الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام وتجنى عليه بأنه غره بذلك فاعتذر له الناصر فلم يقبل فرماه بسهم فأنفذه. ثم أتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الأشرف موسى صاحب حمص، وشفعت زوجة هلاكو في العزيز بن الناصر وكان مع ذلك يحبه فاستبقاه. وانقرض ملك بني أيوب من الشام كما انقرض قبلها من مصر؛ واجتمعت مصر والشام في مملكة الترك، ولم يبق لبني أيوب بهما ملك إلا للمنصور بن المظفر صاحب حماة فإن قطز أقره عليها والظاهر، بيبرس من بعده وبقي في إمارته هو وبنوه مدة من دولة الترك

وطاعتهم، حتى أذن الله بانقراضهم وولى عليها غيرهم من أمرائهم كما
نذكر في أخبار دولتهم، والله وارث الأرض ومن عليها والعاقبة للمتقين

الخريطة

دولة الترك

الخبر عن دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب ولهذا العهد ومبادي أمورهم وتصاريف أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر الترك وأنسابهم أول الكتاب عند ذكر أمم العالم، ثم أخبار الأمم السلجوقية، وأنهم من ولد يافث بن نوح باتفاق من أهل الخليقة. فعند نسابة العرب أنهم من عامور بن سويل بن يافث، وعند نسابة الروم أنهم من طيراش بن يافث. هكذا وقع في التوراة. والظاهر أن ما وقع لنسابة العرب غلط، وإن عامور هو مصحف كומר لأن كاهه تنقلب عند التعريب غيناً معجمة فربما صحفت غيناً مهملة أو بقيت بحالها. وأما سويل فغلط بالزيادة وأما ما وقع للروم من نسبتهم إلى طيراش فهو منقول في الإسرائيليات، وهو رأي مرجوح عندهم لمخالفته لما في التوراة. وأما شعوبهم وأجناسهم فكثيرة وقد عددنا منهم أول الكتاب التفرغ، وهم التتر والخطا وكانوا بأرض طغماح، وهي بلاد ملوكهم في الإسلام تركستان وكاشغر.

وعددنا منهم أيضاً الخزلخية والغز كان منهم السلجوقية، والهياطلة الذين منهم الخلج وبلادهم الصغد قريباً من سمرقند ويسمون بها أيضاً. وعددنا منهم أيضاً الغور والخزر والقفجاق، ويقال الخفشاخ ويمك والعلان، ويقال اللان وشركس وأركش. وقال صاحب كتاب زجار في الكلام على الجغرافيا أجناس من الترك كلهم وراء النهر إلى البحر المظلم، وهي العسية والتفرغرية والخرخيرية والكيماكية والخزلخية والخزر والحاسان وتركش وأركش وخفشاخ والخلخ والغزية وبلغار وخجاكت ويمناك وبرطاس وسنجرت وخرجان وأنكر. وذكر في موضع آخر أنكرك من شعوب الترك، وأنهم في بلاد البنادقة من أرض الروم وأما مواطنهم فإنهم ملكوا الجانب الشمالي من المعمور في النصف الشرقي منه قبالة الهند والعراق في ثلاثة

أقاليم: هي السادس والسابع والخامس، كما ملك العرب الجانب الجنوبي من المعمور أيضاً في جزيرة العرب وما إليها من أطراف الشام والعراق وهم رجالة مثلهم وأهل حرب وافتراس ومعاش من التغلب والنهب إلا في الأقل. وقد ذكرنا أنهم عند الفتح لم يذعنوا إلا بعد طول حرب وممارسة أيام سائر دولة بني أمية، وصدراً من صولة بني العباس. وامتلت أيدي العرب يومئذ من سبيهم فاتخذوهم خولا في المهن والصنائع، ونساءهم فرشا للولادة كما فعلوه في سبي الفرس والروم وسائر الأمم الذين قاتلوهم على الدين، وكان شأنهم أن لا يستعينوا برقيقهم في شيء مما يغانونه من الغزو والفتوح ومحاربة الأمم، ومن أسلم منهم تركوه لسبيله التي هو

عليها من أمر معاشه على طاغية هواه. لأن عصبية العرب كانت مستفحلة يومئذ وشوكتهم قائمة مرهفة، ويدهم ويد سلطانهم في الأمر جميعاً، ومرامهم إلى العز والمجد واحد. وكانوا كأسنان المشط لتزاحم الأنساب وعضاضة الدين، حتى إذا أرهف الملكم حده ونهج إلى الإستبداد طريقه وإحتاج السلطان في القيام بأمره إلى الإستظهار على المنازعين فيه من قومه بالعصبية المدافعة دونه، والشوكة المعترض شباها في أذياله حتى تجدع أنوفهم عن التناول إلى رتبته، وتغض أعتهم عن السير في مضماره اتخذ بنو العباس من لدن المهدي والرشيدي بطانة إصطنعوههم من موالي الترك والروم والبربر، ملؤا منهم المواكب في الأعياد والمشاهد والحروب والصوائف والحراسة على السلطان، وزينة في أيام السلم واكتافاً لعصابة الملك. حتى لقد إتخذ المعتصم مدينة سامرا لنزلهم تخرجاً من أضرار الرعية باصطدام مراكبهم، وتراكم القتال بجوهم، وضيق السكك على المارين بزحامهم.

وكان إسم الترك غالباً على جميعهم فكانوا تبعاً لهم ومندرجين فيهم. وكانت حروب المسلمين لذلك العهد في القاصية وخصوصاً مع الترك متصلة والفتوح فيهم متعاقبة، وأمواج السبي من كل وجه متداركة. وربما رام الخلفاء عند استكمال بغيتهم واستجماع عصابتهم إصطفاء عليّة منهم للمخالصة، وقواد العساكر ورؤساء المراكب، فكانوا يأخذون في تدرجهم لذلك بمذاهب الترشيح فينتقون من أجود السبي الغلمان كالدنانير، والجوار كاللآلئ ويسلمونهم إلى قهارمة القصور وقرمة الدواوين، يأخذونهم بحدود الإسلام والشريعة وآداب الملك والسياسة، ومراس الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح، والبصر بأمور الحرب والفروسية، ومعاناة الخيول والسلاح والوقوف على معاني السياسة.

حتى إذا تنازعوا في التشريح وإنسلخوا من جلدة الخشونة إلى رقة الحاشية ومملكة التهذيب إصطنعوا منهم للمخالصة، ورقوهم في المراتب وإختاروا منهم لقيادة العساكر في الحروب، ورئاسة المواكب أيام الزينة، ورتق الفتوق الحادثة وسد الثغور القاصية كل على شاكلة غنائه وسابق

إصطناعه. فلم يزل هذا دأب الخلفاء في إصطناعهم، ودعامة سرير الملك بعمدهم ؛ وتمهيد الخلافة بمقاماتهم حتى سموا في درج الملك، وامتلات جوانجهم من الغزو، وطمحت أبصارهم إلى الإستبداد فتغلبوا على الدولة، وحجروا الخلفاء وقعدوا بدست الملك ومدرج النهي والأمر، وقادوا الدولة بزمامهم، وأضافوا إسم السلطان إلى مراتبهم. وكان مبدأ ذلك واقعة المتوكل، وما حصل بعدها من تغلب الموالي واستبدادهم بالدولة والسلطان. ونهج السلف منهم في ذلك السبيل للخلف، وإقتدى الاخر بالأول فكانت لهم دول في الإسلام متعددة تعقب غالباً دولة أهل العصبية وشوكة النسب: كمثل دولة بني

سامان وراء النهر، وبنى سبكتكين بعدهم، وبنى طولون بمصر، وبنى طغج. وما كان بعد الدولة السلجوقية من دولتهم مثل: بني خوارزم شاه بما وراء النهر، وبنى طغرلتكين بدمشق، وبنى أرتق بماردين، وبنى زنكي بالموصل والشام، وغير ذلك من دولهم التي قصصناها عليك في تصانيف الكتاب. حتى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبثت أثواب البلاء والعجز ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسي الخلافة وطمسوا رونق البلاد، وأدالوا بالكفر من الإيمان بما أخذ أهلها عند الإستغراق في التنعم والتشاغل في اللذات والإسترسال في الترف من تكاسل الهمم والقعود عن المناصرة، والإنسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولية، فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بأحياء رmqه وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه، وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية، يجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام في مقادة الرق الذي كمن اللطف في طيه، وتعرفوا العز والخير في مغبته، وتعرضوا للعناية الربانية بتلافيه. يدخلون في الدين بعزائم إيمانية وأخلاق بدوية لم يدنسها لؤم الطباع، ولا خالطتها أقدار اللذات، ولا دنستها عوائد الحضارة، ولا كسر من سورتها غزارة الترف. ثم يخرج بهم التجار إلى مصر أرسالا كالقطا نحو الموارد فيستعرضهم أهل الملك منهم، ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا لقصد الإستعباد، إنما هو إكثاف للعصبية وتغليظ للشوكة، ونزوع إلى العصبية الحامية يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائريهم. ثم ينزلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهدة التربية، ومدارسة القرآن وممارسة التعليم، حتى يشتدوا في ذلك. ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة وركض الخيل في الميادين، والمطاعنة بالرمح والمطاعنة بالسيوف، حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم الملكات، ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم. فإذا بلغوا إلى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم، ووفروا من أقطاعهم وفرضوا عليهم إستجادة السلاح وإرتباط الخيول، والإستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد. وربما عمروا بهم خطط الملك، ودرجوه في مراتب الدولة فيسترشح من يسترشح منهم

لإقتعاد كرسي السلطان، والقيام بأمر المسلمين عناية من الله تعالى سابقة، ولطائف في خلقه سارية. فلا يزال نشو منهم يردف نشوا وجيل يعقب جيلا، والإسلام ينتهج بما يحصل به من الغناء، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب. وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام، وأخوه العادل أبو بكر من بعده ثم بنوهم من بعدهم قد تناغوا في ذلك يما فوق الغاية. وإختص الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوكهم بالمبالغة في ذلك والإمعان فيه، فكان عامة عسكره منهم. فلما إنفض عشيره، وخذله

أنصاره، وقعد عنه أولياؤه وجنوده، لم يدع سببا في استجلابهم إلا أتاه من إستجادة المترددين إلى ناحيتهم، ومراضاة التجار في أثمانهم بأضعاف ثمنهم، وكان رقيقهم قد بلغ الغاية من الكثرة لما كان التتر قد دوخوا الجانب الغربي من ناحية الشمال، وأوقعوا بسكانه من الترك وهم شعوب القفجاق والروس والعلان والمولات وما جاورهم من قبائل جركس. وكان ملك التتر بالشمال يومئذ دوشي خان بن جنسكزخان قد أصابهم بالقتل والسبي فامتلت أيدي أهل تلك النواحي برقيقهم، وصاروا عند التجار من أنفس بضائعهم والله تعالى أعلم.

ذكر بيبرس البندقداري

في تاريخه حكاية غريبة عن سبب دخول التتر لبلادهم بعد أن عد شعوبهم فقال: ومن قبائلهم- يعني القفجاق- قبيلة طغصبا وستا وبرج أغلا والبولى وقنغرا على وأوغلي ودورت وقلابا أعلى وجرثان وقد كابر كلي وكنن. هذه إحدى عشرة قبيلة وليس فيها ذكر الشعوب العشرة القديمة الذكر التي عددها النسابة كما قدمناه أول الترجمة. وهذه والله أعلم بطون متفرعة من القفجاق فقط، وهي التي في ناحية الغرب من بلادهم الشمالية، فإن سياق كلامه إنما هو في الترك المجلوين من تلك الناحية لا من ناحية خوارزم ولا ما وراء النهر. قال بيبرس: ولما استولى التتر على بلادهم سنة ست وعشرين، والملك يومئذ بكرس جنكز خان لولده دوشي خان، وإتفق إن شخصاً من قبيلة دورت يسمى منقوش بن كتمر خرج متصيداً فلقه آخر من قبيلة طغصبا إسمه أكاكك وبين القبيلتين عداوة مستحكمة فقتله. وأبطأ خبره عن أهله فبعثوا طليعة لإستكشاف أمره إسمه جلنقر فرجع إليهم وأخبرهم، وأنه قتل وسمى لهم قاتله فجمعوا للحرب. وتزاحفت القبيلتان فانهزمت قبيلة طغصبا، وخرج أكاكك القاتل، وتفرق جمعه فأرسل أخاه أقصر إلى ملكهم دوشي يستعلم ما على ذوي قبيلة دورت القفجاقية. وذكره ما فعل كتمر وقومه بأخيه وأغر بهم، وسهل له الشأن فيهم. وبعث دوشي خان جاسوسه لإستكشاف حالهم وإختيار مراسلهم وشكيمتهم، فعاد إليه بتسهيل المرام فيهم. وقال: إن رأيت كلاباً مكين على فريستهم متى طردتهم عنها تمكنت منها فأطمعه ذلك في بلاد

القفجاق، واستحثه أقصر الذي جاء صريخاً وقال له، ما معناه نحن ألف رأس
تجر ذنباً واحداً، وأنتم رأس واحد تجر ألف ذنب، فزاده ذلك إغراء. ونهض
بجموع التتر فأوقع بالقفجاق، وأثخن فيهم قتلاً وسبياً وأسرا، وفرقهم في
البقاع وامتلت أيدي التجار، وجلبوهم إلى مصر فعوضه الله بالدخول

في الإيمان والاستيلاء على الملك والسلطان. إنتهى كلام بيبرس. ومساق القصة يدل على أن قبيلة دورت من القفجاق، وأن قبيلة طغصبا من التتر. فيقتضي ذلك أن هذه البطون التي عدت ليست من بطن واحد، وكذلك يدل مساقها على أن أكثر هؤلاء الترك الذين بديار مصر من القفجاق، والله تعالى أعلم.

الخبر عن استبداد الترك بمصر وإنفرادهم بها

عن بني أيوب ودولة المعز أيبك أول ملوكهم

قد تقدم لنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من المماليك الترك، ومن في معناهم من التركمان والأرمن والروم وجركس وغيرهم. إلا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم، وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون إليه من نسب أو سلطان: فمنهم العزيزية نسبة إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين، ومنهم الصالحية نسبة إلى هذا الصالح أيوب، ومنهم البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل إزاء المقياس بما كانوا حاميتها. وكان هؤلاء البحرية شركة دولته وعصابة سلطانه وخواص داره، وكان من كبرائهم عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني، ورفيفه فارس الدين أقطاي الجامدار، وركن الدين بيبرس البندقداري ولما كان ما قدمناه ووفاة الصالح بالمنصورة في محاصرة الإفرنج بدمياط في سنة سبع وأربعين، وكتمانهم موله ورجوعهم في تدبير أمورهم إلى شجرة الدر زوجة الصالح وأم ولد خليل، وبعثهم إلى ابنه المعظم تورانشاه وانتظاره، وأن الإفرنج شعروا بموت الصالح فدخلوا إلى معسكر المسلمين على حين غفلة فانكشف أوائل العسكر وقتل فخر الدين الأتابك. ثم أفرغ الله الصبر وثبت أقدامهم، وأبلى أمراء الترك في ذلك اليوم بلاء حسناً، ووقفوا مع شجرة الدر زوج السلطان تحت الرايات ينوهون بمكانها فكانت لهم الكرة وهزم الله العدو. ثم وصل المعظم تورانشاه من كيفا فبايعوا له وأعطوه الصفقة وانتظم الحال، واستطال المسلمون على الإفرنج براً وبحراً فكان ما قدمناه من هزيمتهم والفتك بهم وأسر ملكهم الفرنسييس. ثم رحل المعظم إثر هذا الفتح إلى مصر لشهرين

من وصوله، ونزل بفارس كور يريد مصر، وكانت بطانته قد استطالوا على موالي أبيه، وتقسموهم بين النكبة والإهمال فاتفق كبراء البحرية على قتله وهم: أيبك وإقطاي وبيرس فقتلوه كما مر ونصبوا للملك شجرة الدر أم الخليل، وخطب لها على المنابر، ونقش إسمها على السكة، ووضعت علامتها على المراسم ونصها أم خليل. وقام أيبك التركماني بأتابكية العسكر. ثم فودي الفرنسيس بالنزول عن دمياط وملكها المسلمون سنة ثمان وأربعين. وسرحوه في البحر إلى بلاده بعد أن توثقوا منه باليمين أن لا

يتعرض لبلاد المسلمين ما بقي. واستقلت الدولة بمصر للترك وانقرضت منها دولة بني أيوب، وبلغ الخبر إلى بني أيوب بقتل المعظم وولاية المرأة، وما اكتنف ذلك فامتعضوا له. وكان فتح الدين عمر بن العادل قد حبسه عمه الصالح أيوب بالكرك لنظر بدر الصوابي خادمه الذي ولاه على الكرك والشويك لما ملكهما كما مر فأطلق بدر الدين من محبسه. وباع له وقام بأمره ولقبه المغيث وأتصل الخبر بمصر وعلموا أن الناس قد نعموا عليهم ولاية المرأة فاتفقوا على ولاية زعيمهم أيك لتقدمه عند الصالح وأخيه العادل قبله فبايعوا له، وخلعوا أم خليل ولقبوه بالمعز فقام بالأمر وانفرد بملك مصر. وولى مولاة سيف الدين قطز نائباً، وعمر المراتب والوظائف بأمراء الترك، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

نهوض الناصر صاحب دمشق من بني أيوب إلى مصر وولاية الأشرف موسى مكان أيك

كان الملك الصالح أيوب قبل موته قد استخلف جمال الدين بن يغمور على دمشق مكان ابن مطروح، وأمراء الدولة الأيوبية بها متوافرون فلما بلغهم استبداد الترك

بمصر وولاية أيك وبيعة المغيث بالكرك أمعنوا النظر في تلافي أمورهم. وكبراء بني أيوب يومئذ بالشام: الناصر يوسف بن العزيز، محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين حلب وحمص وما إليها فاستدعوه وبايعوا له بدمشق وأغروه بطلب مصر. وإتصل الخبر للترك في مصر فاعتزموا على أن ينصبوا بعض بني أيوب فيكفوا به ألسنة النكير عنهم ، فبايعوا لموسى الذي كان أبوه يوسف صاحب اليمن، وهو يوسف أطسز بن المسعود بن الكامل، وهو يومئذ ابن ست سنين ولقبوه الأشرف. وتزحزح له أيك عن كرسي السلطان إلى رتبة الأتابكية، واستمر الناصر على غلوائه في النهوض إلى مصر. واستدعى ملوك الشام من بني أيوب فأقبل إليه موسى الأشرف الذي كان صاحب حمص، وإسماعيل الصالح بن العادل صاحب بعلبك، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصر الدين، وإبنا داود الناصر صاحب الكرك وهما الأمجد حسن والظاهر شادي. وإرتحل من

دمشق سنة ثمان وأربعين، وفي مقدمته أتاكه لؤلؤ الأرمني، وبلغ الخبر إلى مصر فاضطرب الأمر ونادوا بشعار الخلافة والدعاء للمستعصم، وجددوا البيعة على ذلك للأشرف وجهزوا العساكر وخرجوا للقائهم. وسار في المقدمة أقطاي الجامدار وجمهور البحرية، وتبعهم أيك ساقه في العساكر. والتقى الجمعان بالعباسية فانكشف عسكر مصر أولاً، وتبعهم أهل الشام وثبت المعز في القلب، ودارت عليه رحى الحرب. وهرب إليه جماعة من عسكر الناصر فيهم أمراء العزيزية

مثل جمال الدين لا يدعون، وشمس الدين أئسز اليرلي، وشمس الدين أئسز الحسامي. غضبوا من رياسة لؤلؤ عليهم فهربوا وبقي لؤلؤ في المعركة صامداً. ثم حمل المعز على الناصر وأصحابه فانهزموا وإنفض عسكره وجيء بلؤلؤ الأتابكي أسيراً فقتله صبراً، وبأمراء بني أيوب فحبسهم ورجع أيك من الوقعة فوجد عساكر الناصر مجتمعين بالعباسية يظنون الغلب لهم. فعدل إلى بلبيس، ثم إلى القلعة. ورجعت عساكر الشام من أتباع المنهزمين لما شعروا بهزيمة صاحبهم فلاحقوا بالناصر بدمشق، ودخل أيك إلى القاهرة وحبس بني أيوب بالقلعة. ثم قتل منهم إسماعيل الصالح ووزيره ابن يغمور الذي كان معتقلاً من قبل. ولما وصل الناصر إلى دمشق أزاح علل عساكره وعجل الكرة إلى مصر، ونزل غزة سنة خمسين وبرزت عساكر مصر للقائه، فتواقفوا ملياً. ثم وصل نجم الدين البادر إلى رسول المستعصم فأصلح بين الطائفتين على أن يكون القدس والساحل إلى نابلس للمعز، والتخيم بين المملكتين نهر الأردن. وإنعقد الأمر على ذلك، ورجع كل إلى بلده، وأخرج المعز عن أمراء بني أيوب الذين حبسهم يوم الواقعة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد مع أقطاي:

لما شغل الصالح بالإفرنج وما بعدهم عظم فساد العرب بالصعيد واجتمعوا على الشريف خضر الدين أبي ثعلب بن نجم الدين عمر بن فخر الدين إسماعيل بن حصن الدين ثعلب الجعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب الذين أجازوا من الحجاز لما غلبهم بنو عمهم بنواحي المدينة، في الحروب التي كانت بينهم. وأطاعه أعراب الصعيد كافة، ولم يقدر على كفههم عن الراية. وإتصل ذلك وهلك الصالح واستبد الترك بمصر، وشغلوا عنهم بما كان من مطالبة بني أيوب لهم. فلما فرغ المعز أيك من أمر الناصر وعقد الصلح معه، بعث لحربهم فارس الدين أقطاي وعز الدين أيك الأقرم أمير البحرية فساروا إليهم ولقوهم بنواحي أخميم فهزموهم، وفرّ الشريف ناجياً بنفسه. ثم قبض عليه بعد ذلك وقتل، ورجعت العساكر إلى القاهرة، والله تعالى أعلم.

مقتل أقطاي الجامدار وفرار البحرية إلى الناصر ورجوع أيبك إلى كرسيه:

كان أقطاي الجامدار من أمراء البحرية وعظمائهم، ويلقب فارس الدين، وكان رديفاً للمعز أيبك في سلطانه وأتابكه. وكان يغض من عنانه عن الطموح إلى الكرسي، وكان يخفض من

جناحه للبحرية يتألفهم بذلك فيميلون له عن أيبك فاعتز في الدولة واستفحل أمره وأخذ من المعز الإسكندرية إقطاعاً، وتصرف في بيت المال. وبعث فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حياء إلى المظفر صاحب حماة في خطبة إبنته فتزوجها، وأطلق يده في العطاء والإقطاع فعم الناس وكثر تابعه. وغص به المعز أيبك، وأجمع قتله فاستدعاه بعض الأيام للقصر للشورى سنة اثنتين وخمسين. وقد أكن له ثلاثة من مواليه في ممره بقاعة الأعمدة وهم: قطز وبهادل وسنجر فوثبوا عليه عند مروره بهم وبادروه بالسيوف، وقتلوه لحينه. واتصلت الهيعة بالبحرية فركبوا وطافوا بالقلعة فرمى إليهم برأسه فانفضوا. واستراب أمراؤهم فاجتمع ركن الدين بيبرس البندقداري وسيف الدين قلاون الصالحي، وسيف الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بنسر الشمسي، وسيف الدين بلبان الرشيدي، وسيف الدين تنكر وأخوه سيف الدين موافق، ولحقوا بالشام فيمن إنضم إليهم من البحرية، واختفى من تخلف منهم، واستصفيت أموالهم وذخائرهم. وارتجع ما أخذه أقطاي من بيت المال، ورد ثغر الإسكندرية إلى أعمال السلطان، وإنفرد المعز أيبك بتدبير الدولة، وخلع موسى الأشرف وقطع خطبته وخطب لنفسه. وتزوج شجرة الدر زوجة الصالح التي كانوا ملكوها من قبل. واستخلص علاء الدين أيدغدي العزيزي وجماعة العزيزية، وأقطعه دمياط. ولما وصل البحرية وأمراؤهم إلى غزة كاتبوا الناصر يسأذونه في القدوم، وساروا إليه فاحتفل في مبرتهم، وأغروه بملك مصر فأجابهم وجهز العساكر. وكتب المعز فيهم إلى الناصر، وطلبوا منه القدس والبلاد الساحلية فأقطعها لهم. ثم سار الناصر إلى الغور وبرز إلى القاهرة في العزيزية ومن إليهم، ونزل العباسية وتواقف الفريقان مدة. ثم اصطلحوا ورجع كل إلى بلده سنة أربع وخمسين وبعث أيبك رسوله إلى المستعصم بطاعته وطلب الألوية والتقليد. ولما رجع إلى مصر قبض على علاء الدين أيدغدي لإستراتته به، وأعاد دمياط إلى أعمال السلطان، واتصلت أحواله إلى أن هلك في الدولة، والله تعالى أعلم.

فرار الأفرم إلى الناصر بدمشق:

كان عز الدين أيبك الأفرم الصالحي والياً على قوص واخميم وأعمالها فقوي أمره،

وهم بالإستبداد وأراد المعز عزله فامتنع عليه، فبعث بعض الخوارزمية مداداً له. ودس إليهم الفتك به. فلما وصلوا إليه استخدمهم وخلطهم بنفسه فاغتالوه وقبضوا عليه وتراموا اليه للحين فبطشوا بهم وقتلوهم وخلعوه. ثم عزله بعد ذلك عز الدين الصيمري عن خدمته واستدعاه إلى مصر فأقام عنده ثم بعثه مع أقطاي إلى الصعيد وحضر ومعه الشريف أبو ثعلب والعرب كما مرّ

وعاد أقطاي إلى مكانه من الدولة وأوعز المعز أيبك إلى الأفرم بالمقام لتمهيد بلاد الصعيد وأن يكون الصيمري في خدمته وبلغه وهو هناك أن المعز عدا على أقطاي وقتله وأن أصحابه البحرية فروا إلى الشام فاستوحش وأظهر العصيان واستدعى الشريف أبا ثعلب وتظاهر معه على الفساد وجمعوا الأعراب من كل ناحية ثم بعث المعز سنة ثلاث وخمسين شمس الدين اليرلي في العساكر فهزمهم. واعتقل الشريف فلم يزل في محبسه إلى أن قتله الظاهر. ونجا الأفرم في فل من مواليه إلى الواحات. ثم اعتزم على قصد الشام فرجع إلى الصعيد مع جماعة من أعراب جذام مروا به على السويس والطور، ورجع عنه مواليه إلى مصر. ولما انتهى إلى غزة تولع به الناصر فأذنه بالقدوم عليه بدمشق وركب يوم وصوله فتلقيه بالكسوة وأعطاه خمسة آلاف دينار. ولم يزل عنده بدمشق إلى أن هرب البحرية من الكرك إلى مصر كما يذكر فخشى أن يأخذه الناصر وكاتب الأتابك قطز بمصر، وسار إليه فقبله أولًا. ثم قبض عليه بعد ذلك واعتقله بالإسكندرية. وكان الصيمري قد بقي بعد الأفرم في ولاية الصعيد، واستفحل فيه فسولت له نفسه الإستبداد ولم يتم له فهرب إلى الناصر سنة أربع وخمسين إنتهى، والله تعالى أعلم.

مقتل المعز أيبك وولاية ابنه علي المنصور:

كان المعز أيبك عندما استفحل أمره ومهد سلطانه ودفع الأعداء عن حوزته طمحت

نفسه إلى مظاهرة المنصور صاحب حماة، و لؤلؤ صاحب الموصل ليصل يده بهما، وأرسل إليهما في الخطبة. وأثار ذلك غيرة من زوجته شجرة الدر وأغررت به جماعة من الخصيان منهم محسن الخزري، وخصى العزيزي، ويقال سنجر الخادمان فيبتوه في الحمام بقصره وقتلوه سنة خمس وخمسين لثلاث سنين من ولايته. وسمع مواليه الناعية من جوف الليل فجاؤا مع سيف الدين قطز وسنجر الغتمي وبهادر فدخلوا القصر وقبضوا على الجوجري فقتلوه، وفرّ سنجر العزيزي إلى الشام، وهموا بقتل شجرة الدر. وقام الموالي الصالحة دونها فاعتقلوها ونصبوا للملك علي بن المعز أيبك ولقبوه المنصور، وكان أتابكه علم الدين سنجر الحلبي واشتمل

موالي المعز على إبنه المنصور فكبسوا علم الدين سنجر واعتقلوه وولوا مكانه أقطاي المعزي الصالحي مولى العزيز على الدولة في نقضها وإبرمها سنة ست وخمسين. وأغرته أم المنصور بالصاحب شرف الدين الغازي لأن المعز كان يستودعه سراياه عنده فاستصفاه وقتله. وفي هذه السنة توفي زهير بن

علي المهلي، وكان يكتب عن الصالح ويلزمه في سجنه بالكرك، ثم صحبه إلى مصر، والله تعالى أعلم.

نهوض البحرية بالمغيث صاحب الكرك وإنهزامه:

قد ذكرنا فرار البحرية إلى الناصر ونهوضهم به إلى مصر، وخروج أيبك إلى العباسة وما كان بينهما من الصلح. فلما إنعقد الصلح ورجع الناصر إلى دمشق، ورجعوا عنه إلى قلعة ، ولم يرضوا الصلح فاستراب بهم الناصر وصرفهم عنه فلحقوا بغزة ونابلس. وبعثوا إلى المغيث صاحب الكرك بطاعتهم فأرسل الناصر عساكره للإقاع بهم فهزموهم فسار إليهم بنفسه فهزموه إلى البلقاء ولحقوا بالكرك، وأطمعوا المغيث في مصر واستمدوه لها فأمدهم بعسكره، وقصدوا مصر وكبرأؤهم: بيبرس البندقداري وقلاوون الصالحي وبليان الرشيدي. وبرز الأمير سيف الدين قطز بعساكر مصر إلى الصالحية فهزموهم، وقتل بلغار الأشرف وأسر قلاوون الصالحي وبليان الرشيدي. وأطلق قلاوون الصالحي بعد أيام في كفالة أستاذ الدار فاخفى، ثم لحق بأصحابه واستحثوا المغيث إلى مصر فنهض في عساكره سنة ست وخمسين ونزل الصالحية، وقدم إليه عز الدين الرومي والكافوري والهواشر ممن كان يكاتبه من أمراء مصر. وبرز سيف الدين قطز في عساكر مصر والتقى الجمعان فانهمز المغيث ولحق في الفل بالكرك. وفرت البحرية إلى الغور فوجدوا هنالك أحياء من الأكراد فروا من جبال شهرزور أمام التتر فاجتمعوا بهم، والتحموا بالصهر معهم، وخشي الناصر غائلة اجتماعهم فجهز العساكر من دمشق إليهم والتقوا بالغور فانهمزت عساكره فتجهز ثانياً بنفسه، وسار إليهم فخاموا عن لقاءه وافترقوا فلحق الأكراد بمصر، واعترضهم التركمان في طريقهم بالعريش فأوقعوا بهم وخلصوا إلى مصر. ولحق البحرية بالكرك مع عسكر المغيث ووعدهم بالنصر، وأرسل إليه من دمشق في إسلامهم إليه. وتوعده أنفسهم وإضطربوا ففر بيبرس وقلاوون إلى الصحراء وأقاموا بها. ثم لحقوا بمصر وأكرمهم الأتابك قطز وأقطعهم وأقاموا عنده. ولما فر بيبرس وقلاوون من المغيث قبض على بقية أمراء البحرية سنقر الأشقر وشكروبرانق، وبعث بهم إلى

الناصر فحبسهم بقلعة حلب إلى أن استولى التتر عليها. ونقلهم هلاكو إلى بلاده، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع المنصور علي بن أيبك واستبداد قطر بالملك:

ثم كان ما ذكرناه ونذكره من زحف هلاكو إلى بغداد واستيلائه عليها، وما بعدها إلى الفرات وفتحه ميفارقين وإربل، ومسير لؤلؤ صاحب الموصل إليه ودخوله في طاعته. ووفادة ابن الناصر صاحب دمشق إليه رسوياً عن أبيه بالهدايا والتحف على سبيل المصانعة والعذر عن الوصول بنفسه، خوفاً على سواحل الشام من الإفرنج فارتاب الأمراء بشأنهم، واستصغروا سلطانهم المنصور علي بن المعز أيبك عن مدافعة هذا العدو لعدم ممارسته للحروب، وقلة دريته بالوقاع. واتفقوا على البيعة لسيف الدين قطز المعزي وكان معروفاً بالصرامة والإقدام فبايعوا له وأجلسوه على الكرسي سنة ست وخمسين، ولقبوه المظفر. وخلعوا المنصور لسنتين من ولايته، وحبسوه وأخوه بدمياط. ثم غربهما الظاهر بعد ذلك إلى القسطنطينية. وكان المتولون لذلك الصالحة والعززية ومن يرجع إلى قطز من المعزية. وكان بهادر وسنجر الغتمي غائبين فلما قدما استراب بهما قطز، وخشي من نكيرهما ومزاحمتهما فقبض عليهما وحبسهما. وأخذ في تمهيد الدولة فاستوثقت له. وكان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية، يقال أنه ابن أخت خوارزم شاه وإسمه محمود بن مودود، أسره التتر عند الحادثة عليهم وبيع واشتراه ابن الزعيم. حكاه النووي عن جماعة من المؤرخين، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

استيلاء التتر على الشام وانقراض امر بني ايوب ثم

مسير قطز بالعساكر وإرتجاعه الشام من أيدي

التتر

وهزيمتهم وحصول الشام في ملك التتر:

ثم عبر هلاكو الفرات سنة ثمان وخمسين، وفرّ الناصر وأخوه الظاهر إلى التيه ولحق بمصر المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر. وملك هلاكو بلاد الشام واحدة واحدة، وهدم

أسوارها وولي عليها وأطلق المعتقلين من البحرية بحلب مثل: سنقر الأشقر وشكر وبرانق واستخدمهم. ثم قفل إلى العراق لإختلاف بين إخوته، واستخلف على

الشام كتبغا من أكبر أمراءه في إثني عشر ألفاً من العساكر، وتقدم إليه بمطالعة الأشرف إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص بعد أن ولاه على مدينة دمشق وسائر مدن الشام. واحتمل معه الناصر وابنه العزيز بعد أن استشاره في تجهيز العساكر بالشام لمدافعة أهل مصر عنها، فهون عليه الأمر وقللهم في عينه نجهز كتبغا ومن معه. ولما فصل سار كتبغا إلى قلعة دمشق وهي ممتنعة بعد فحاصرها وافتتحها عنوة، وقتل نائبها بدر الدين بريدك، وخيم بمرج دمشق. وجاءه من ملوك الإفرنج بالساحل. ووفد عليه الظاهر أخو الناصر صاحب صرخد فرده إلى عمله، وأوفد عليه المغيـث صاحب الكرك ابنه العزيز بطاعته فقبله وردة إلى أبيه، واجتمعت عساكر مصر واحتشد المظفر العرب والتركمـان وبعث إليهم بالعطايا وأزاح العـلل، وبعث كتبغا إلى المظفر قطز بأن يقيم طاعة هلاكـو بمصر فـضرب أعناق الرسل، ونهض إلى الشام مصمماً للقاء العدو، ومعه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل. وزحف كتبغا وعساكر التتر ومعه الأشرف صاحب حمص، والسعيد صاحب الضبيـنة ابن العزيز بن العادل. وبعث اليهما قطز يستميلهما فوعده الأشرف بالإنهزام يوم اللقاء، وأساء العزيز الرد على رسوله وأوقع به، والتقى الفريقان بالغور على عين جالوت وتحيز الأشرف عندما تناشبوا فانهزم التتر، وقتل أميرهم كتبغا في المعركة. وجيء بالسعيد صاحب الضبيـنة أسيراً فوبخه ثم قتله وجيء بالعزيز بن المغيـث وأسر يومئذ الذي ملك مصر بعد ذلك. ولقي العادل بيبرس المنهزمين في عسكر من الترك فأثن فيهم وإنهى إلى حمص فلقى مدداً من التتر جاء لكتبغا فاستأصلهم ورجع إليه الأشرف صاحب حمص من عسكر التتر فأقره على بلده، وبعث المنصور على بلده حماة وأقره عليها، ورد إليه المعرة وانتزع منه سلمية فأقطعها لأمير العرب مهنا بن مانع بن جديلة. وسار إلى دمشق فهرب من كان بها من التتر وقتل من وجد بها من بقاياهم. ورتب العساكر في البلاد، وولى على دمشق علم الدين سنجر الحلبي الصالح، وهو الذي كان أتابك علي بن أبيك ونجم الدين أبا الهيجاء ابن خشترين الكردي. وولى على حلب السعيد، ويقال المظفر علاء الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل. وكان وصل إلى الناصر بمصر هارباً أمام التتر وسار معه فلما دخل الناصر منها لحق هو

بمصر، وأحسن إليه قطز. ثم ولاة الناصر على حلب الآن ليتوصل إلى أخبار التتر من أخيه الصالح بالموصل. وولى على نابلس وغزة والسواح شمس الدين دانشير اليرلي من أمراء العزيز محمد، وهو أبو الناصر، وكان هرب منه عند نهوضه إلى مصر في جماعة من العزيفية ولحق بأتاك. ثم إرتاب بهم وقبض على بعضهم، ورجع اليرلي في الباقيين

إلى الناصر فاعتقله بقلعة حلب حتى سار إلى التتر. فلما دخل إليها سار اليرلي مع العساكر إلى مصر فأكرمه المظفر، وولاه الآن على السواحل وغزة وأقام المظفر بدمشق عشرين ليلة، وأقبل إلى مصر. ولما بلغ إلى هلاكو ما وقع بقومه في الشام واستيلاء الترك عليه، إتهم صاحب دمشق بأنه خدعه في إشارته وقتله كما مرّ وانقرض ملك بني أيوب من الشام أجمع، وصار لملوك مصر من الترك. والله يرث الأرض من عليها وهو خير الوارثين.

مقتل المظفر وولاية الظاهر بيبرس:

كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثاره، وكان قطر

هو الذي تولى قتله فكان مستريباً بهم. ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه. وجاء البحرية من القفر هارين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطر أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنه واشتمل عليهم، وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت، وأبلغوا فيها والمقدمون فيهم يومئذ: بيبرس البندقداري وأنز الأصبهاني وبلبان الرشيدي وبكتون الجوكنداري وبندوغار التركي. فلما إنهزم التتر من الشام واستولوا عليه، وحسر ذلك المد، وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من التترصد لثأر أقطاي. فلما قفل قطر من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا به في طريقهم. فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيد، وسارت الرواحل على الطريق فاتبعوه، وتقدم إليه أنز شفيحاً في بعض أصحابه. فشغفه فأهوى يقبل يده فأمسكها. وعلاه بيبرس بالسيف فخر صريعاً لليدين والفم. ورشقه الآخرون بالسهم فقتلوه، وتبادروا إلى المخيم. وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز أيبك، وسأل من تولى قتله منكم؟ فقالوا بيبرس فبايع له، وأتبعه أهل المعسكر ولقبوه الظاهر. وبعثوا أيدمر الحلبي بالخبر إلى القلعة بمصر فأخذ له البيعة على من هناك. ووصل الظاهر منتصف ذي القعدة من السنة فجلس على كرسيه، واستخلف الناس على طبقاتهم، وكتب إلى الأقطار بذلك. ورتب الوظائف وولى الأمراء. وولى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت

الأعز الوزارة مع القضاء، واقتدى بآثار أستاذه الصالح نجم الدين. ومبدأ أمر هذا الظاهر بيبرس أنه كان من موالى علاء الدين أيدكين البندقداري مولى الصالح فسخط عليه واعتقله وانتزع ماله ومواليه وكان منهم بيبرس فصيره مع الجامدانية وما زال يترقى في المراتب إلى أن تقدم في الحروب ورياسة المراكب، ثم كان خبره بعد الصالح ما قصصناه إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض سنجر الحلبي بدمشق ثم أقوش البرلي بحلب:

ولما بلغ علم الدين سنجر بدمشق مقتل قطز، وولاية الظاهر بيبرس انتقض ودعا لنفسه وجلس على التخت بدمشق وتلقب المجاهد، وخطب لنفسه وضرب السكة بإسمه، وتمسك المنصور صاحب حماة بدعوة الظاهر. وجاءت عساكر التتر إلى الشام فلما شارفوا البيرة جرد إليهم السعيد بن لؤلؤ من حلب عسكرياً فهزمهم التتر وقتلوه. وإتهم الأمراء العزيزية والناصرية ابن لؤلؤ في ذلك فاعتقله وقدموا عليهم حسام الدين الجو كنداري وأقره الظاهر. وزحف التتر إلى حلب فملكوها، وهرب حسام الدين إلى حماة. ثم زحف إليها التتر فلحق صاحبها المنصور وأخوه علي الأفضل إلى حمص، وبها الأشرف بن شيركوه واجتمعت إليه العزيزية والناصرية وقصدوا التتر سنة تسع وخمسين فهزموهم بعد هزيمتهم ونازلوا حماة.

وسار المنصور والأشرف صاحب حمص إلى سنجر الحلبي بدمشق ولم يدخل في طاعته لضعفه. وسار التتر من حماة إلى أفامية فحاصروها يوماً وعبروا الفرات إلى بلادهم. وبعث بيبرس الظاهر صاحب مصر أستاذه علاء الدين البندقداري في العساكر لقتال سنجر الحلبي بدمشق وقاتلهم فهزموه، ولجأ إلى القلعة. ثم خرج منها ليلاً إلى بعلبك، وأتبعوه فقبضوا عليه وبعثوه إلى الظاهر فاعتقله واستقر أيديكين بدمشق، ورجع صاحب حمص وحماة إلى بلديهما. وبعث الظاهر إلى أيديكين بالقبض على بهاء الدين بقري وشمس الدين أقوش البرلي وغيرهما من العزيزية فقبض على بقري والعزيزية والناصرية مع أقوش البرلي، وطالبوا صاحب حمص وصاحب حماة في الإنتقاض فلم يجيباهم إلى ذلك. فقال لفخر الدين: اطلب لي الظاهر المقدم معك في خدمتك. وبينما هو يسير لذلك خلفه البرلي إلى حلب، وثار بها وجمع العرب والتركمان، ونصب للحرب فجاءت العساكر من مصر فقاتلوه وغلبوه عليها. ولحق بالبيرة فملكها واستقر بها حتى إذا جهز الظاهر عساكره سنة ستين إلى حلب مع سنقر الرومي، سار معه صاحب

حماة وصاحب حمص للإغارة على أنطاكية. ولقيهم اليرلي وأعطاهم طاعته، وأقره الظاهر على البيرة. ثم ارتاب به بعد ذلك واعتقله، ثم علاء الدين أيدكن البندقاري مولى السلطان بدمشق، وولى عليها بيبرس الوزير ورجع، والله ينصر من يشاء من عباده إنتهى.

البيعة للخليفة بمصر ثم مقتله بالحديثة وغانة على يل التتر

والبيعة للآخر الذي استقرت الخلافة في عقبه

بمصر:

لما قتل الخليفة عبد الله المستعصم ببغداد بقي رسم الخلافة الإسلامية عطلاً بأقطار الأرض، والظاهر متشوف إلى تجديده وعمارة دسسته. ووصل إلى مصر سنة تسع وخمسين عم المستعصم وهو أبو العباس أحمد بن الظاهر كان بقصورهم ببغداد، وخلص يوم البيعة، وأقام بتردد في الأحياء إلى أن لحق مصر فسّر الظاهر بقدمه وركب للقائه، ودعا الناس على طبقاتهم إلى أبواب السلطان بالقلعة وأفرد بالمجلس أديا معه. وحضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز فحكم باتصال نسبه بالشجرة الكريمة بشهادة العرب الواصلين به والخدم الناجعين من قصورهم. ثم بايع له الظاهر والناس على طبقاتهم، وكتب إلى النواحي بأخذ البيعة والخطب على المنابر، ونقش إسمه في السكة، ولقب المستنصر وأشهد هو حينئذ الملاً بتفويض الأمر للظاهر والخروج له عن العهد، وكتب بذلك سجله. وأنشأه فخر الدين بن لقمان كاتب الترسيل. ثم ركب السلطان والناس كافة إلى خيمة بنيت خارج المدينة فقرئ التقليد على الناس، وخلع على أهل المراتب والخواص ونادى السلطان بمظاهرتة وإعادته إلى دار خلافته. ثم خطب هذا الخليفة يوم الجمعة وخشع في منبره فأبكى الناس وصلى وانصرفوا إلى منازلهم ؛ ووصل على أثره الصالح إسماعيل بن لؤلؤ صاحب الموصل، وأخوه إسحاق صاحب الجزيرة، وقد كان أبوهما لؤلؤ استخدم لهلاكو كما مر، وأقره على الموصل وما إليها وتوفي سنة سبع وخمسين. وقد ولي ابنه إسماعيل على الموصل، وابنه إسماعيل المجاهد على جزيرة ابن عمر، وابنه السعيد على سنجار. وأقرهم هلاكو على أعمالهم، ولحق السعيد بالناصر صاحب دمشق، وسار معه إلى مصر، وصار مع قطز وولاه حلب كما مر، ثم اعتقل. ثم ارتاب هلاكو بالأخوين فأجفلا ولحقا بمصر، وبالغ الظاهر في إكرامهم وسألوه

في إطلاق أخيهم المعتقل فأطلقه، وكتب لهم بالولاية على أعمالهم وأعطاهم الألوية، وشرع في تجهيز الخليفة إلى كرسيه ببغداد فاستخدم له العساكر وأقام الفساطيط والخيام، ورتب له الوظائف، وأزاح علل الجميع. يقال أنفق في تلك النوبة نحو من ألف ألف دينار. ثم سار من مصر في شوال من السنة إلى دمشق ليعث من هناك الخليفة وابني لؤلؤ إلى ممالكهم. ووصل إلى دمشق ونزل بالقلعة، وبعث بليان الرشيدي وشمس الدين سنقر إلى الفرات. وصمم الخليفة لقصده وفارقهم. وسار الصالح إسماعيل وأخواه إلى الموصل، وبلغ الخبر إلى هلاكو فجرد العساكر إلى الخليفة وكبسوه بغانة والحديثة فصابرهم قليلاً ثم

استشهد وبعث العساكر إلى الموصل فحاصروها تسعة أشهر حتى جهدهم الحصار واستسلموا فملكها التتر، وقتلوا الصالح إسماعيل، والظاهر خلال مقيم بدمشق.

وقد وفد عليه بنو أيوب من نواحي الشام وأعطوه طاعتهم: المنصور صاحب حماة، والأشرف صاحب حمص فأكرم وصلهما وولاهما على أعمالهما وأذن لهما في إتخاذ الآلة وبسط حكمهما على بلاد الإسماعيلية. وإلى المنصور تل باشر الذي اعتاضه عن حمص لما أخذها منه الناصر صاحب حلب. ووفد على الظاهر أيضاً بدمشق الزاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وصاحب بعلبك والمنصور والسعيد ابنا الصالح إسماعيل بن العادل، والأمجد بن الناصر داود الأشرف بن مسعود، والظاهر بن المعظم فأكرم وفادتهم وقابل بالإحسان والقبول طاعتهم، وفرض لهم الأرزاق وقرر الجرايات. ثم قفل إلى مصر وأفرج عن العزيز بن المغيث الذي كان اعتقله قطز وأطلقه يوم الموقعة بالكرك. وولى على أحياء العرب بالشام عيسى بن مهنا بن مانع بن جريلة من رجالاتهم، ووفر لهم الإقطاع على حفظ السابلة إلى حدود العراق، ورجع إلى مصر فقدم عليه رجل من عقب المسترشد من خلفاء بني العباس بيغداد إسمه أحمد، فأثبت نسبه ابن بنت الأعز كأول. وجمع الظاهر الناس على مراتبهم وباع له وفوض إليه هو الأمور وخرج إليه عن التدبير. وكانت هذه البيعة سنة ستين ونسبه عند العباسيين في أدراج نسبهم الثابت أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد ابن الإمام المسترشد. وعند نسابة مصر أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القتيبي ابن الأمير حسن ابن الإمام الراشد ابن الإمام المسترشد. هكذا قال صاحب حماة في تاريخه وهو الذي استقرت الخلافة في عقبه بمصر لهذا العهد إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فرار التركمان من الشام إلى بلاد الروم:

كان التركمان عند دخول التتر إلى بلاد الشام كلهم قد أجفلوا إلى الساحل، واجتمعت أحياءهم بالجوكان قريباً من صفد. وكان الظاهر لما نهض إلى الشام اعترضه رسل الإفرنج من يافا وبيروت وصفد يسألونه في الصلح على ما كان لعهد صلاح الدين، فأجابهم وكتب به إلى الأنبردور ملكهم

ببلاد إفرنسة وراء البحر فكانوا في ذمه من الظاهر وعهد. ووقعت بين الإفرنج بصفد وبين أحياء التركمان واقعة يقال أغار فيها أهل صفد عليهم فأوقع بهم التركمان، وأسروا عدة من رؤسائهم وفادوهم بالمال. ثم خشوا عاقبة ذلك من الظاهر فارتحلوا إلى بلاد الروم وأقفر الشام منهم. والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

انتفاض الأشرافية والعزيزية واستيلاء اليرلي على البيرة:

كان هؤلاء العزيزية والأشرافية من أعظم جموع هؤلاء الموالي وكان مقدم الأشرافية

بهاء الدين بقري، ومقدم العزيزية شمس الدين أقوش، وكان المظفر قطز قد أقطعه نابلس وغزة وسواحل الشام. ولما ولي الظاهر إنتقض عليه سنجر الحلي بدمشق وجهاز أستاذه علاء الدين البندقاري في العساكر لقتاله. وكان الأشرافية والعزيزية بحلب وقد انتقضوا على نائبها السعيد بن لؤلؤ كما مر فتقدم البندقارب باستدعائهم معه إلى دمشق. ثم أضاف الظاهر بيسان لليرلي زيادة على ما بيده فسار وملك دمشق. ثم أوعز الظاهر إلى البندقاري بالقبض على العزيزية والأشرافية. فلم يتمكن إلا من بقري مقدم الأشرافية، وفارقه الباقون وانتقضوا. واستولى شرف الدين اليرلي على البيرة، وأقام بها وشن الغارات على التتر شرقي الفرات فنال منهم. ثم جهاز الظاهر عساكره إليه مع جمال الدين بامو الحموي فهزمهم وأطلقهم وأقام الظاهر على استمالاته بالترغيب والترهيب حتى جنح إلى الطاعة، واستأذن في القدوم، وسار بكباس الفخري للقاءه فلقبه بدمشق سنة إحدى وستين، ثم وصل فأوسع السلطان يداً وعطاءً والواصلين معه على مراتبهم وإختصه بمراكبته ومشورته، وسأله النزول عن البيرة فنزل عنها فقبلها الظاهر وأعاضه عنها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على الكرك من يد المغيـث

وعلى حمص بعد وفاة صاحبها:

لما قفل السلطان من الشام سنة ستين كما قدمناه جرد عسكرياً إلى الشويك مع بدر الدين أيدمري فملكها، وولى عليها بدر الدين بليان الخصي ورجع إلى مصر. وكان عند المغيـث بالكرك جماعة من الأكراد الذين أجفلوا من شهرزور أمام التتر إلى الشام، وكان قد اتخذهم جنداً لعسكرته فسرحهم للإغارة على الشويك ونواحيه فاعتزم السلطان على الحركة إلى الكرك مخافة المغيـث. وبعث بالطاعة واستأمن من الأكراد فقبلهم الظاهر

وأمن الأكراد فوصلوا إليه. ثم سار سنة إحدى وستين إلى الكرك، واستخلف على مصر سنجر الحلبي، واستخلف على غزة فلقى هنالك أم المغيـث تستعطفه وتتأمن منه لحضور ابنها فأجابها، وسار إلى بيسان فسار المغيـث للقاءه. فلما وصل قبض عليه، وبعثه من حينه إلى القاهرة مع أقسنقر الفارقاني، وقتل بعد ذلك بمصر. وولى على الكرك عز الدين أيـدمر وأرسل نور الدين بيسري الشمسي ليؤمن أهل الكرك

ويرتب الأمور بها. وأقام بالطور في انتظاره فأبلغ بيسري القصد من ذلك. ورجع إليه فإرتحل إلى القدس وأمر بعمارة مسجده، ورجع إلى مصر. وبلغه وفاة صاحب حمص موسى الأشرف بن إبراهيم المنصور شيركوه المجاهد بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وكانت وراثته له من آباءه، أقطعه نور الدين العادل لجدّه أسد الدين، ولم تزل بأيديهم وأخذها الناصر يوسف صاحب حلب سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر وأعادها عليه هلاكو، وأقره الظاهر. ثم توفي سنة إحدى وستين، وصارت للظاهر؛ وانقرض منها ملك بني أيوب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

هزيمة التتر على البيرة وفتح قيسارية وارسوف

بعدها:

ثم رجعت عساكر التتر إلى البيرة مع ردمانة من أمراء المغل سنة ثلاث وستين فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، فجهز السلطان العساكر مع لوغان من أمراء الترك فساروا في ربيع من السنة، وسار السلطان في أثرهم وانتهى إلى غزة. ولما وصلت العساكر إلى البيرة وأشرفوا عليها والعدو يحاصرها أجفلها عساكر التتر وساروا منهزمين، وخلفوا سوادهم وأثقالهم فنهبتها العساكر. وارتحل السلطان من غزة وقصد قيسارية وهي للإفرنج فنزل عليها عاشر جمادى من السنة فنصب المجانيق ودعا أهلها للحرب واقتحمها عليهم فهربوا إلى القلعة فحاصرها خمسا وملكها عنوة، وفر الإفرنج منها. ثم رحل في خوف من العساكر إلى عملها فنسّ عليها الغارة، وسرح عسكرا إلى حيفا فملكها عنوة. وخربوها وقلعتها في يوم أو بعض يوم. ثم ارتحل إلى ارسوف فنازلها مستهل جمادى الأخيرة فحاصرها وفتحها عنوة، وأسر الإفرنج الذين بها، وبعث بهم إلى الكرك. وقسم أسوارها على الأمراء فرموها، وعمد إلى ما ملك في هذه الغزاة من القرى والضياع والأرضين فقسّمها على الأمراء الذين كانوا معه، وكانوا إثنين وخمسين، وكتب لهم بذلك وقفل إلى مصر. وبلغه الخبر بوفاة هلاكو ملك التتر في ربيع من السنة وولاية ابنه أبغا مكانه، وما وقع بينه وبين برکه صاحب الشمال من الفتنة. ولأول دخوله لمصر قبض على شمس الدين

سنقر الرومي وحبسه، وكانت الفتنة قبل غزاته بين عيسى بن مهنا، ولحق زامل بعد ذلك بهلاكو. ثم استأمن إلى الظاهر فأمنه وعاد إلى احيائه، والله تعالى أعلم.

غزو طرابلس وفتح صغد:

كانت طرابلس للإفرنج وبها سمند بن البرنس الأشتر، وله معها أنطاكية. وبلغ السلطان أنه قد

تجهز للقتال فلقية النائب بها علم الدين سنجر الباشقر وانهزم المسلمون واستشهد كثير منهم فتجهز السلطان للغزو، وسار من مصر في شعبان سنة أربع وستين وترك ابنه السعيد عليا بالقلعة في كفالة عز الدين أيدير الحلبي. وقد كان عهد لابنه السعيد بالملك سنة اثنتين وستين. ولما انتهى إلى غزة بعث العساكر صحبة سيف الدين قلاون ايدغدي العزيزي فنازل القليعات وحلب وعرقا من حصون طرابلس، فاستأمنوا إليه. وزحفت العساكر وسار السلطان إلى صفد فحاصرها عشرا، ثم اقتحمها عليهم في عشرين من رمضان السنة، وجمع الإفرنج الذين بها فاستلحمهم أجمعين، وأنزل بها الحامية وفرض أرزاقهم في ديوان العطاء، ورجع إلى دمشق، والله تعالى أعلم.

مسير العساكر لغزو الأرمن:

هؤلاء الأرمن من ولد أخي إبراهيم عليه السلام من بني قوميل بن ناحور، وناحور بن تارح وعبر عنه في التنزيل بأزر. وناحور أخو إبراهيم عليه السلام. ويقال أن الكرج إخوة الأرمن، وأرمنية منسوبة إليهم. وآخر مواطنهم الدروب المجاورة لحلب، وقاعدتها سيس، ويلقب ملكهم التكفور. وكان ملكهم صاحب هذه الدروب لعهد الملك الكامل وصلاح الدين من بعده اسمه قليج بن اليون. واستنجد به العادل وأقطع له، وكان يعسكر معه. وصالحه صلاح الدين على بلاده. ثم كان ملكهم لعهد هلاكو والتتر هيثوم بن قسطنطين، ولعله من أعقاب قليج أو قرابته. ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته فأقره على سلطانه ثم أمره بالإغارة على بلاد الشام وأمدّه صاحب بلاد الروم من التتر. وسار سنة اثنتين وستين ومعه بنو كلاب أعراب حلب. وانتهوا إلى سيس، وجهاز الظاهر عساكر حماة وحمص فساروا إليهم وهزموهم ورجعوا إلى بلادهم. فلما رجع السلطان من غزاة طرابلس سنة أربع وستين سرح العساكر لغزو سيس وبلاد الأرمن وعليهم سيف الدين قلاون والمنصور صاحب حماة فساروا لذلك. وكان هيثوم ملكهم قد ترهب ونصب للملك ابنه كيقومن فجمع كيقومن الأرمن وسار للقائهم ومعه أخوه وعمه. وأوقع بهم المسلمون قتلا وأسرا وقتل أخوه وعمه في جماعة من الأرمن. واكتسحت عساكر المسلمين بلادهم

واقترحوا مدينة سيس وخبوها، ورجعوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي، وتلقاهم الظاهر من دمشق عند قارا. فلما رأهم ازداد سرورا بما حصل لهم، وشكا إليه هنالك الرعية ما لحقهم من عدوان الأحياء الرحالة، وانهم ينهبون موجودهم ويبيعون ما يتخطفونه منهم من الإفرنج بعكا فأمر باستباحتهم

وأصبحوا نهبا في أيدي العساكر بين القتل والأسر والسبي. ثم سار إلى مصر وأطلق كيقومن ملك الأرمن وصالحه على بلده. ولم يزل مقيما إلى أن بعث أبوه في فدائه وبذل فيه الأموال والقلاع فأبى الظاهر من ذلك، وشرط عليه خلاص الأمراء الذين أخذهم هلاكو من سجن حلب وهم: سنقر الأشقر وأصحابه. فبعث فيهم تكفور إلى هلاكو فبعث بهم إليه، وبعث الظاهر بابنه منتصف شوال وتسلم القلاع التي بذلت في فدائه، وكانت من أعظم القلاع وأحصنها منها: مرزبان ورعبان. وقدم سنقر الأشقر على الظاهر بدمشق، وأصبح معه في المواكب، ولم يكن أحد علم بأمره. وأعظم إليه السلطان النعمة ورفع الرتبة ورعى له السابقة والصحة. وتوفي هيثوم سنة ستين بعدها والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مسير الظاهر لغزو حصون الإفرنج بالشام وفتح يافا والشقيف ثم أنطاكية:

كان الظاهر عندما رجع من غزاة طرابلس إلى مصر أمر بتجديد الجامع الأزهر وإقامة الخطبة به، وكان معطلا منها منذ مائة سنة، وهو أول مسجد أسسه الشيعة بالقاهرة حين اختطوها ثم خرج إلى دمشق لخبر بلغه عن التتر ولم يثبت فسار من هنالك إلى صفد، وكان أمر عند مسيره بعمارتها، وبلغه إغارة أهل الشقيف على الثغور فقصدتها وشن الغارة على عكا، واكتسح بسائطها حتى سأل الإفرنج منه الصلح على ما يرضيه فشرط المقاسمة في صيدا، أو هدم الشقيف، وإطلاق تجار من المسلمين كانوا أسروهم ودية بعض القتلى الذين أصابوا دمه. وعقد الصلح لعشر سنين ولم يوفوا بما شرط عليهم فنهض لغزوهم، ونزل فلسطين في جمادى سنة ست وستين، وسرح العساكر لحصار الشقيف. ثم بلغه مهلك صاحب يافا من الإفرنج، ومملك ابنه مكانه. وجاءت رسله إليه في طلب المودعة فحبسهم وصبح البلد فاقتحمها ولجأ أهلها إلى القلعة فاستنزلهم بالأمان وهدمها. وكان أول من اختط مدينة يافا هذه صنكل من ملوك الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ثم مدنها وأتم عمارتها ريدا فرنس المأسور على دمياط عندما خلص من حبسه بدار ابن لقمان. ثم رجع

إلى حصن الشقيف فحاصره وافتتحة بالأمان، وبث العساكر في نواحي طرابلس فاكتمسحوها وخرّبوا عمرانها وكنائسها. وبادر صاحب طرطوس بطاعة السلطان وبعث إلى العساكر بالميرة وأطلق الأسرى الذين عنده ثلثمائة أويزيدون. ثم ارتحل السلطان إلى حمص وحماة يريد أنطاكية،

وقدم سيف الدين قلاوون في العساكر فنازل أنطاكية في شعبان فسار المنصور صاحب حماة وجماعة البحرية الذين كانوا بأحياء العرب في القفر.

وكان صاحب أنطاكية سمند بن تيمند، وكانت قاعدة ملك الروم قبل الإسلام اختطها انطيوخس من ملوك اليونانيين وإليه تنسب ثم صارت للروم وملكها المسلمون عند الفتح. ثم ملكها الإفرنج عندما ساروا إلى ساحل الشام أعوام التسعين والأربعمئة. ثم استطردوا صلاح الدين من البرنس ارناط الذي قتله في واقعة حطين كما مر. ثم ارتجعا الإفرنج بعد ذلك على يد البرنس الأشتر وأظنه صنكل. ثم صارت لابنه تيمند، ثم لابنه سمند. وكان عندما حاصرها الظاهر بطرابلس وكان بها كندا صطبل عم يغمور ملك الأرمن أفلت من الواقعة عليه بالذرابند، واستقر بأنطاكية عند سمند فخرج في جموعه لقتال الظاهر فانهزم أصحابه. وأسر كندا صطبل على أن يحمل أهل أنطاكية على الطاعة فلم يوافقوه. ثم جهدهم الحصار واقتحمها المسلمون عنوة وأثخنوا فيهم، ونجا فلهم إلى القلعة فاستنزلوا على الأمان. وكتب الظاهر إلى ملكهم سمند وهو بطرابلس وأطلق كندا صطبل وأقاربه إلى ملكهم هيثوم بسيس. ثم جمع الغنائم وقسمها وخرّب قلعة أنطاكية وأضرّمها ناراً. واستأمن صاحب بغراس فبعث إليه سنقر الفارقي أستاذ داره فملكها، وأرسل صاحب عكا إلى الظاهر في الصلح وهو ابن أخت صاحب قبرس فعقد له السلطان الصلح لعشر سنين. ثم عاد إلى مصر فله خلتها ثالث أيام التشريق من السنة، والله تعالى أعلم.

الصلح مع التتر:

ثم نهض السلطان من مصر سنة سبع وستين لغزو الإفرنج بسواحل الشام، وخلف

على مصر عز الدين ايدمر الحلبي مع ابنه السعيد ولي عهده، وانتهى إلى ارسوف فبلغه أن رسلاً جاؤا من عند أبغا بن هلاكو، ومروا نقفور ملك الروم فبعث بهم إلى ، فبعث أميراً من حلب لإحضارهم. وقرأ كتاب أبغا بسعي نقفور تكفر في الصلح، ويحتال فيما أذاعه من رسالته فأعاد رسله

بجوابهم، وأذن للأمرء في الإنطلاق إلى مصر، ورجع إلى دمشق. ثم سار منها في خف من العسكر إلى القلاع، وبلغه وفاة ايدمر الحلبي بمصر فخيم بخربة اللصوص، وأغذ السير إلى مصر متنكرا منتصف شعبان في خف من التركمان. وقد طوى خبره عن معسكره وأوهمهم القعود في

خيمته عليلا، ووصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء رابعة سفره فتنكر له الحراس، وطولع مقدم الطواشية فطلب منهم إمارة على صدقهم فأعطوها. ثم دخل فعرفوه، وباكر الميدان يوم الخميس فسر به الناس. ثم قضى حاجة نفسه، وخرج ليلة الإثنين عائداً إلى الشام كما جاء فوصل إلى مخيمه ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان، وفرح الأمراء بقدومه. ثم فرق البعوث في الجهات وأغاروا على صور وملكوا إحدى الضياع وساحوا في بسيط كركو فاكتسحوها، وامتلات أيديهم بالغنائم ورجعوا والله تعالى أعلم.

استيلاء الظاهر على صهيون:

كان صلاح الدين بن أيوب قد أقطعها يوم فتحها وهي سنة أربع وثمانين وخمسائة لناصر الدين منكبرس، فلم تزل بيده إلى أن هلك وولي فيها بعده ابنه مظفر الدين عثمان، وبعده ابنه سيف الدين بن عثمان. واستبد الترك بمصر، وبعث سيف الدين أخاه عماد الدين سنة ستين بالهدايا إلى الملك الظاهر بيبرس فقبلها وأحسن إليه. ثم مات سيف الدين سنة تسع وستين، وكان أوصى أولاده بالنزول للظاهر عن صهيون فوفد ابنه سابق الدين وفخر الدين على السلطان بمصر فأكرمهما وأقطعهما، وولى سابق الدين منهما أميراً، وولى على صهيون من قبله. ولم يزل كذلك إلى أن غلب عليها سنقر الأشقر عندما انتقض بدمشق أيام المنصور، والله تعالى أعلم.

نهوض الظاهر إلى الحج:

ثم بلغ الظاهر أن أبا نمي بن أبي سعد بن قتادة غلب عمه ادريس بن قتادة على

مكة واستبد بها، وخطب للظاهر فكتب له بالإمارة على مكة. واعتزم على النهوض إلى الحج وتجهز لذلك سنة سبع وستين، وأزاح علل أصحابه. وشيع العساكر مع اقسنقر الفارقاني استاذ داره إلى دمشق. وسار إلى الكرك موربا بالصيد، وانتهى إلى الشويك، ورحل منه لاحدى عشرة ليلة من ذي القعدة ومر بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم فأحرم من ميقاتها، وقدم مكة لخمس من ذي الحجة وغسل الكعبة بيده وحمل لها الماء على كتفه، وأباح للمسلمين دخولها، وأقام على بابها يأخذ

بأيديهم. ثم قضى حجه ومناسكه، وولى نائبا على مكة شمس الدين مروان، وأحسن إلى الأمير أبي نمي وإلى صاحب ينبع وخليص وسائر شرفاء الحجاز. وكتب إلى صاحب اليمن: إني بمكة، وقد وصلتها في سبع عشرة خطوة. ثم فصل من

مكة ثالث عشر ذي الحجة فوصل المدينة على سبعة أيام، ووصل إلى الكرك منسلخ السنة. ثم وصل دمشق غرة ثمان وستين وسار إلى زيارة القدس وقدم العساكر مع الأمير اقسنقر إلى مصر وعاد من الزيارة فأدركهم بتل العجول، ووصل لقلعة ثالث صفر من السنة، والله تعالى أعلم.

اغارة الإفرنج والتتر على حلب ونهوض السلطان

اليهم:

كان صمغان من أمراء التتر مقيما ببلاد الروم وأميرا عليها فوقعت المراسلة بينه وبين الإفرنج في الإغارة على بلاد الشام. وجاء صمغان في عسكره لموعدهم فأغار على أحياء العرب بنواحي حلب. وبلغ الخبر إلى الظاهر سنة ثمان وستين، وهو يتصيد بنواحي الإسكندرية فنهض من وقته إلى غزة، ثم إلى دمشق، ورجع التتر على أعقابهم. ثم سار إلى عكا فاكتسح نواحيها وأثنخ فيها، وفعل كذلك بحصن الأكراد، ورجع إلى دمشق آخر رجب، ثم إلى مصر ومر بعسقلان فخربها وطمس آثارها. وجاءه الخبر بمصر بأن الفرنسيين لويس بن لويس، وملك انكلترة، وملك اسكوسنا وملك نودل، وملك برشلونة وهو ريدراكون، وجماعة من ملوك الإفرنج جاؤا في الأساطيل إلى صقلية، وشرعوا في الإستكثار من الشواني وآلة الحرب. ولم يعرف وجه مذهبهم فاهتم الظاهر بحفظ الثغور والسواحل، واستكثر من الشواني والمراكب. ثم جاء الخبر الصحيح بأنهم قاصدون تونس فكان من خبرهم ما ذكره في دولة السلطان بها من بني أبي حفص، والله تعالى أعلم.

فتح حصن الاكراد وعكا وحصون صور:

ثم سار السلطان سنة تسع وستين لغزو بلاد الإفرنج، وسرح ابنه السعيد في العساكر إلى المرقب لنظر الأمير قلاون وبعليك الخزندار. وسار هو إلى طرابلس فاكتسحوا سائر تلك النواحي وتوافقوا لحصن الأكراد عاشر شعبان من السنة فحاصره السلطان عشرا. ثم اقتحمت أرباضه، وانحجر الإفرنج في قلعتهم، واستأمنوا وخرجوا إلى بلادهم. وملك الظاهر الحصون

وكتب إلى صاحب الأستار بالفتح وهو بطرطوس، وأجاب بطلب الصلح
فعقد له على طرطوس

والمرقب. وارتحل السلطان عن حصن الأكراد بعد أن شحنه بالأقوات والحامية، ونازل حصن عكا واشتد في حصاره. واستأمن أهله إليه وملكه. ثم ارتحل بعد الفطر إلى طرابلس واشتد في قتالها وسأل صاحبها البرنس الصلح فعهده على ذلك لعشر سنين، ورجع إلى دمشق. ثم خرج آخر شوال إلى العليقة، وملك قلعتها بالأمان على أن يتركوا الأموال والسلاح، واستولى عليه وهدمه، وسار إلى اللجون. وبعث إليه صاحب صور في الصلح على أن ينزل له عن خمس من قلاعه فعهده الصلح لعشر سنين وملكها. ثم كتب إلى نائبه بمصر أن يجهز عشرة من الشواني إلى قبرس فجهزها ووصلت ليلا إلى قبرس والله أعلم.

استيلاء الظاهر على حصون الإسماعيلية بالشام:

كان الإسماعيلية في حصون من الشام قد ملكوها، وهي مصياف والعليقة والكهف والمينفة والقدموس. وكان كبيرهم لعهد الظاهر نجم الدين الشعراني وكان قد جعل له الظاهر ولايتها ثم تأخر عن لقائه في بعض الأوقات فعزله، وولى عليها خادم الدين بن الرضا على أن ينزل له عن حصن مصياف. وأرسل معه العساكر فتسلموه منه. ثم قدم عليه سنة ثمان وستين وهو على حصن الأكراد، وكان نجم الدين الشعراني قد أسن وهرم فاستعجب وأعتبه الظاهر وعطف عليه، وقسم الولاية بينه وبين ابن الرضا، وفرض عليهما مائة وعشرين ألف درهم يحملانها في كل سنة. ولما رجع سنة تسع وستين، وفتح حصن الأكراد مر بحصن العليقة من حصونهم فملكه من يد ابن الرضا منتصف شوال من السنة. وأنزل به حامية. ثم سار لقتال التتر على البيرة كما يذكر، ورجع إلى مصر فوجد الإسماعيلية قد نزلوا على الحصون التي بقيت بأيديهم وسلموها لنواب الظاهر فملكوها. وانتظمت قلاع الإسماعيلية في ملكة الظاهر، وانقرضت منها دعوتهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصار التتر البيرة وهزيمتهم عليها:

ثم بعث أبغا بن هلاكو العساكر إلى البيرة سنة إحدى وسبعين مع درباري من مقدمي أمرائه فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وكان السلطان

بدمشق فجمع العساكر من مصر والشام وزحف إلى الفرات، وقد جهز
العساكر على قاصيته فتقدم الأمير قلاون وخالط التتر عليها في

مخيمهم فجالوا معه. ثم انهزموا وقتل مقدمهم وخاض السلطان بعساكره بحر الفرات إليهم فأجفلوا وتركوا خيامهم بما فيها. وخرج أهل البيرة فنهبوا سوادهم وأحرقوا آلات الحصار، ووقف السلطان بساحتها قليلا، وخلص على النائب بها... ولحق درباري بسلطانه أبغا مفلولا فسخطه ولم يعتبه والله تعالى وليّ التوفيق.

غزوة سيسى وتخريبها:

ثم نهض الظاهر من مصر لغزو سيسى في شعبان سنة ثلاث وسبعين وانتهى إلى دمشق في رمضان، وسار منها وعلى مقدمته الأمير قلاون وبدر الدين بيليك الخازندار فوصلوا إلى المصيصة وافتتحوها عنوة. وجاء السلطان على أثرهم، وسار بجميع العساكر إلى سيسى بعد أن كنف الحامية بالبيرة خوفا عليها من التتر. وبعث حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى أمير العرب بالشام للإغارة على بلاد التتر من ناحيتها. وسار إلى سيسى فخرّبها وبث السرايا في نواحيها فانتهوا إلى بانياس وأذنة، واكتسحوا سائر الجهات، ووصل إلى دربند الروم، وعاد إلى المصيصة في التعبية فأحرقها. ثم انتهى إلى أنطاكية فأقام عليها حتى قسم الغنائم. ثم رحل إلى القصر وكان للإفرنج خالصا لتبركهم برومة الذي يسمونه البابا فافتتحوه. ولقيه هنالك حسام الدين العنتابي ومهنا بن عيسى راجعين من إغارتهم وراء الفرات. ثم بلغه مهلك البرنس سمند بن تيمند صاحب طرابلس فبعث الظاهر بليان الداودار ليقدر الصلح مع بنيه فقرره على عشرين ألف دينار وعشرين أسيرا كل سنة، وحضر لذلك صاحب قبرس، وكان جاء معزيا لبني البرنس ورجع الداودار إلى الظاهر فقفل إلى دمشق منتصف ذي الحجة، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

إيقاع الظاهر بالتتر في بلاد الروم ومقتل البرواناة

بمد اخلته في ذلك:

كان علاء الدين البرواناة متغلبا على غياث الدين كنجسرو صاحب بلاد الروم من

بني قليج أرسلان، وقد غلب التتر على جميع ممالك بلاد الروم وأبقوا على كنجسرو اسم الملك في كفالة البرواناة. وأقاموا أميرا من أمرائهم ومعه عسكر التتر حامية بالبلاد ويسمونه بالشحنة، وكان أول

أمير من التتر ببلاد الروم بيكو، وهو الذي افتتحها، وبعده صمغان وبعده توقوو وتداون شريكين في أمرهما لعهد الملك الطاهر. وكان البرواناة يتأفف من التتر لاستطالتهم عليه وسوء ملكهم. ولما استفحل أمر الظاهر بمصر والشام أمل البرواناة الظهور على التتر والكرة لبني قليج أرسلان بممالة الظاهر فداخله في ذلك وكاتبه. وزحف أبغا ملك التتر إلى البيرة سنة أربع وسبعين، وخرج الظاهر بالعساكر من دمشق، وكاتبه البرواناة يستدعيه. وأقام الظاهر على حمص، وأرسل إليه البرواناة يستحثه للقاء التتر. وعزم أبغا على البرواناة في الوصول فاعتذر، ثم رحل مثاقلا.

وكتب إليه الأمراء بعده بأن الظاهر قد نهض إلى بلاد الروم بوصيته إليه بذلك فبعث إلى أبغا واستمده فأمدته بعساكر المغل، وأمره بالرجوع لمدافة الظاهر واستحثوه للقدوم فسقط في أيديهم، وحيل بينهم وبين مرامهم، ورجع إلى مصر في رجب من السنة وأقام بها حولا. ثم لقي توقوو وتداون أمير التتر ببلاد الروم وسار إلى الثغور بالشام، وبلغ السلطان خبرهما فسار من مصر في رمضان سنة خمس وسبعين وقصد بلاد الروم، وانتهى إلى النهر الأزرق فبعث شمس الدين سنقر الأشقر فلقى مقدمة التتر فهزمهم. ورجع إلى السلطان وساروا جميعا فلقوا التتر على البلنشين، ومعهم علاء الدين البرواناة في عساكره فهزمهم. وقتل الأمير توقوو وتداون وفر البرواناة وسلطانه كنجسرو لما كان منفردا عنهم، وأسر كثير من المغل منهم: سلار بن طغرل ومنهم قفجاق وجاورصى. وأسر علاء الدين بن معين الدين البرواناة وقتل كثير منهم. ثم رحل السلطان إلى قيسارية فملكها وأقام عليها ينتظر البرواناة لموعدها كان بينهما، وأبطأ عليه وقفل راجعاً ورجع خبر الهزيمة إلى أبغا ملك التتر وأطلع من بعض عيونه على ما كان بين البرواناة والظاهر من المداخلة فتنكر للبرواناة، وجاء لوقته حتى وقف على موضع المعركة، وارتاب لكثرة القتلى من المغل. وأن عسكر الروم لم يصب منهم أحد فرجع على بلادهم بالقتل والتخريب والاكتساح، وامتنع كثير من القلاع ثم أمنهم ورجع. وسار معه البرواناه وهم بقتله أولاً، ثم رجع لتخليته لحفظ البلاد فأعول نساء القتلى من المغل عند

بأبه فرحم بكاءهن، وبعث أميرا من المغل فقتله في بعض الطريق، والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه وأحكم.

وفاة الظاهر وولاية ابنه السعيد:

ولما رجع السلطان من واقعه بالتر على البلستين وقيسارية طرقه المرض في محرم سنة ست وسبعين، وهلك من آخره، وكان بليك الخزندار مستوليا على دولته فكتم موته ودفنه، ورجع

بالعساكر إلى مصر. فلما وصل القلعة جمع الناس وبيع لبركة ابن الملك الظاهر ولقبه السعيد، وهلك بليك أثر ذلك فقام بتدبير الدولة استاذ داره شمس الدين الفارقاني، وكان نائب مصر أيام مغيب الظاهر بالشام واستقامت أموره. ثم قبض على شمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري من أمراء الظاهر بسعاية بطانته الذين جمعهم عليه لأول ولايته، وكانوا من أوغاد الموالي، وكان يرجع إليهم لمساعدتهم له على هواه وصارت شيبته. ولما قبض على هذين الأميرين نكر ذلك عليه خاله محمد بن بركة خان فاعتقله معهما فاستوحشت أمه لذلك فأطلق الجميع، فارتاب الأمراء وأجمعوا على معاتبته فاستعتب واستحلفوه. ثم أغراه بطانته بشمس الدين الفارقاني مدبر دولته فقبض عليه واعتقله، وهلك لأيام من اعتقاله، وولى مكانه شمس الدين سنقر الألفي، ثم سعى أولئك البطانة به فعزله وولى مكانه سيف الدولة كونك الساقي صهر الأمير سيف الدين قلاون على أخت زوجته بنت كرمون، كان أبوها من أمراء التتر قد خرج إلى الظاهر، واستقر عنده وزوج بنته من الأمير قلاون، وبنته الأخرى من كوزيك. ثم حضر عند السعيد لاشين الربعي من حاشيته وغلب على هراة، واستمال أهل الدولة بقضاء حاجاتهم، واستمر معروفه لهم، واستمر الحال على ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع السعيد وولاية أخيه شلامش:

ولما استقر السعيد بملكه في مصر أجمع المسير إلى الشام للنظر في مصالحه فسار لذلك سنة سبع وسبعين فاستقر بدمشق، وبعث العساكر إلى الجهات. وسار قلاون الصالحي وبدر الدين بيسري إلى سيس، زين له ذلك لاشين الربعي والبطانة الذين معه، وأغروه بالقبض عليهم عند مرجعهم. ثم حدث بين هؤلاء البطانة وبين النائب سيف الدين كونك وحشة، وآسفوه بما يلقون فيه عند السلطان فغضب لذلك. وسارت العساكر فأغاروا على سيس واكتسحوا نواحيها ورجعوا فلقبهم النائب كونك، وأسر إليهم ما أضمر لهم السلطان فخيّموا بالمرج وقعدوا. عن لقاء السلطان، وبعثوا إليه بالعذل في بطانته وأن ينصف نائبه منهم فأعرض عنهم ودس لموالي أبيه أن يعاودوهم

إليه فأطلعوهم على كتابه فزادهم ضغنا. وصرحوا بالانتقاض فبعث إليهم سنقر الأشقر وسنقر التركيتي استاذ داره بالاستعطاف فردوهما فبعث أمه بنت بركة خان فلم يقبلوها، وارتحلوا إلى القاهرة فوصلوها في محرم سنة ثمان وسبعين، وبالقلعة عز الدين أيبك الافرم الصالحي أمير جندار، وعلاء الدين اقطوان الساقى، وسيف الدين بليان أستاذ داره فضبطوا أبواب القاهرة ومنعوهم من الدخول. وترددت المراسلة بينهم وخرج ايبك الافرم

واقطوان ولاشين التركماني للحديث فتقبضوا عليهم ودخلوا إلى بيوتهم، ثم باكروا القلعة بالحصار ومنعوا عنها الماء. وكان السعيد بعد منصرفهم من دمشق سار في بقية العساكر واستنفر الأعراب وبث العطاء، وانتهى إلى غزة فتفرقت عنه الأعراب واتبعهم الناس. ثم انتهى إلى بلبس ورأى قلة العساكر فرد عن الشام مع عز الدين ايدمر الظاهري إلى دمشق، والنائب بها يومئذ اقوش فقبض عليه، وبعث به إلى الأمراء بمصر. ولما رحل السعيد من بلبس إلى القلعة اعتزل عنه سنقر الأشقر. وسار الأمراء في العساكر لاعتراضه دون القلعة، وألقى الله عليه حجابا من الغيوم المتركمة فلم يهتدوا إلى طريقه، وخلص إلى القلعة وأطلق علم الدين سنجر الحنفي من محبسه ليستعين به ثم اختلف عليه بطاتته وفارقه بعضهم فرجع إلى مصانعة الأمراء بأن يترك لهم الشام أجمع فأبوا إلا حبسه فسألهم أن يعطوه الكرك فأجابوه، وحلفهم على الأمان، وحلف لهم أن لا ينتقض عليهم ولا يداخل أحدا من العساكر ولا يستميله فبعثوه من حينه إلى الكرك. وكتبوا إلى النائب بها علاء الدين أيدكر الفخري أن يمكنه منها ففعل واستمر السعيد بالكرك، وقام بدولته أيدكر الفخري، واجتمع الأمراء بمصر وعرضوا الملك على الأمير قلاون، وكان أحق به فلم يقبل وأشار إلى شلامش بن الظاهر وهو ابن ثمان سنين فنصبوه للملك في ربيع سنة ثمان وسبعين، ولقبوه بدر الدين. وولى الأمير قلاون أتاك الجيوش، وبعث مكان جمال الدين اقوش نائب دمشق بتسلمها منه. وسار اقوش إلى حلب نائبا وولى قلاون في الوزارة برهان الحصري السنجاوي. وجمع المماليك الصالحة ووفر إقطاعاتهم، وعمر بهم مراتب الدولة، وأبعد الظاهرية وأودعهم السجون ومنع الفساد. ولم يقطع عنهم رزقا إلى أن بلغ العقاب فيهم أجله فأطلقهم تباعا واستقام أمره، والله تعالى أعلم.

خلع شلامش وولاية المنصور قلاون:

أصل هذا السلطان قلاون من القفجاق، ثم من قبيلة منهم يعرفون برج أعلى،

وقد مر ذكرهم. وكان مولى لعلاء الدين اقسنقر الكابلي موالي الصالح نجم الدين أيوب. فلما مات علاء الدين صار من موالي الصالح وكان من

نفرتهم واستقامتهم ما قدمناه. ثم قدم إلى مصر في دولة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس. ولما ملك الظاهر قربه واختصه وأصهر إليه، ثم بايع لابنه السعيد من بعده. ولما استوحش الأمراء من السعيد وخلعوه رغبوا من الأمير قلاون في الولاية عليهم كما قدمناه، ونصب أخاه شلامش بن الظاهر فوافق الأمراء على ذلك طواعية له. واتصلت رغبتهم في ولايته مدة شهرين حتى أجابهم إلى ذلك فبايعوه في جمادى سنة ثمان وسبعين

فقام بالأمر ورفع كثيرا من المكوس والظلامات. وقسم الوظائف بين الأمراء، وولى جماعة من ممالكيه امرة الألوف وزادهم في الأقطاعات. وأفرج لوقته عن عز الدين أيبك الأفرم الصالحي وولاه نائبا بمصر. ثم استبقاه فأعفاه وولى مملوكه حسام الدين طرنطاي مكانه، ومملوكه علم الدين سنجر السنجاعي رئاسة الدواوين. وأقر صاحب برهان الدين السنجاري في الوزارة، ثم عزله بفخر الدين إبراهيم بن لقمان. وبعث عز الدين ايدمر الظاهري الذي كان اعتقله جمال الدين اقوش حين رجع بعساكر الشام عن السعيد بن الظاهر من بلييس، فجيء به مقيداً واعتقله، والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض السعيد بن الظاهر بالكرك

ووفاته وولاية أخيه خسرو مكانه:

ولما ملك السلطان قلاون شرع السعيد بالكرك، وكاتب الأمراء بمصر والشام في الإنتقاض، وخاطبه السلطان بالعتاب على نقض العهد فلم يستعجب. وبعث عساكره مع حسام الدين لاشين الجامدار إلى الشويك فاستولى عليها فبعث السلطان نور الدين بليك الأيدمرى في العساكر فارتدها في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين. وقارن ذلك وفاة السعيد بالكرك، واجتمع الأمراء الذين بها ومقدمهم نائبه أيدكين الفخري. وقال أيدكين أن نائبه كان أيدغري الحراني فنصبوا أخاه خسرو ولقبوه المسعود نجم الدين، واستولى الموالي على رأيه وأفاضوا المال من غير تقدير ولا حساب، حتى أنفقوا ما كان بالكرك من الذخيرة التي ادخرها الملك الظاهر وبعض أمراء الشام في الخلاف. وبعثوا العساكر فاستولوا على الصليب وحاصروا صرخد فامتنعت، وكاتبوا سنقر الأشقر المتظاهر على الخلاف فبعث السلطان أيبك الأفرم في العساكر لحصار الكرك فحاصرها وضيق عليها. ثم سأل المسعود في الصلح على ما كان الناصر داود بن المعظم فأجابه السلطان قلاون وعقد له ذلك. ثم انتقض ثانية ونزع عنه نائبه علاء الدين ايدغري الحراني، ونزع عنه إلى السلطان فصدق ما نقل عنه من ذلك. ثم بعث السلطان سنة خمس وثمانين نائبه حسام الدين طرنطاي في

العساكر لحصار الكرك فحاصروها، واستنزل المسعود وأخاه شلامش منها على الأمان وملكها. وجاء بهما إلى السلطان قلاون فأكرمهما وخلطهما بولده إلى أن توفي ففر بهما الأشرف إلى القسطنطينية.

انتفاض سنقر الأشقر بدمشق هزيمته ثم امتناعه

بصهيون:

كان شمس الدين سنقر الأشقر لما استقر في نيابة دمشق أجمع الإنتفاض والإستبداد وتسلم القلاع من الظاهرية، وولى فيها وطالب المنصور قلاون دخول الشام بأسرها من العريش إلى الفرات في ولايته، وزعم أنه عاهده على ذلك. وولى السلطان على قلعة دمشق مولاه حسام الدين لاشين الصغير سلحدارا في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين فنكر سنقر وانتقض ودعا لنفسه. ثم بلغه خبر قلاون وجلوسه على التخت فدعا الأمراء وأشاع أن قلاون قتل، واستحلفهم على منعه وحبس من امتنع من اليمين وتلقب الكامل، وذلك في ذي الحجة من السنة. وقبض على لاشين نائب القلعة. وجهاز سيف الدين إلى الممالك الشامية والقلاع للاستحلاف، وولى في وزارة الشام مجد الدين إسماعيل بن كسيرات وسكن سنقر بالقلعة. ثم بعث السلطان أيبك الأفرم بالعساكر إلى الكرك لما توفي السعيد صاحبها وانتهى إلى غزة، واجتمع إليه بيليك الأيدمرى منقلبا من الشويك بعد فتحه فحذرهم سنقر الأشقر، وخاطب الأفرم يتجنى على السلطان بأنه لم يفرده بولاية الشام. وولى في قلعة دمشق وفي حلب وبعث الأفرم بالكتاب إلى السلطان، قلاون فأجابه، وتقدم إلى الأفرم أن يكاتبه بالعزل فيما فعله وارتكبه فلم يرجع عن شأنه، وجمع العساكر من عمالات الشام واحتشد العربان وبعثهم مع قراسنقر المقري إلى غزة فلقبهم الأفرم وأصحابه وهزموهم، وأسروا جماعة من أمرائهم، وبعثوا بهم إلى السلطان قلاوون، فأطلقهم وخلع عليهم ولما وصلت العساكر مفلولة إلى دمشق عسكر سنقر الأشقر بالمرج، وكاتب الأمراء بغزة يستميلهم، وبعث السلطان العساكر بمصر مع علم الدين سنجر لاشين المنصوري وبدر الدين بكتاش الفخري السلحدار فساروا إلى دمشق فلقبهم الأشقر على الجسر بالكسرة فهزموه في صفر سنة تسع وسبعين، وتقدموا إلى دمشق فملكوها وأطلق علم الدين سنجر لاشين المنصوري من الإعتقال وولاه نيابة دمشق. وولى على القلعة سيف الدين سنجار المنصوري وكتب إلى السلطان بالفتح. وسار

سنقر إلى الرحبة فامتنع عليه نائبها فسار إلى عيسى بن مهنا، ورجع عنه إلى الفل وكتبوا أبغا ملك التتر واستحثوه لملك الشام يستميلونه فلم يجب، وبعث إليه العساكر فأجفلوا إلى صهيون وملكها سنقر، وملك معها شيزر. وبعث السلطان لحصار شيزر مع عز الدين الأفرم فحاصرها، وجاءت الأخبار بزحف أبغا ملك التتر إلى الشام في مواعدة سنقر وابن مهنا، واستدعى صغار صاحب

بلاد الروم فيمن معه من المغل، وانه بعث بيدو ابن أخيه طرخان صاحب ماردين وصاحب سيس من ناحية أذربيجان، وجاء هو على طريق الشام في مقدمته أخوه منوكتمر. فلما تواترت الأخبار بذلك أفرج الأفرم عن حصار شيزر، ودعا الأشقر إلى مدافعة عدو المسلمين فأجابه ورفع عن موالة أبغا. وسار من صهيون للإجتماع بعساكر المسلمين. وجمع السلطان العساكر بمصر وسار إلى الشام واستخلف على مصر ابنه أبا الفتح عليا بعد أن ولاه عهده، وقرأ كتابه بذلك على الناس. وخرج لجمع العساكر في جمادى سنة تسع وسبعين، وانتهى إلى غزة، ووصل التتر إلى حلب، وقد أجفل عنها أهلها وأقفرت منازلها فأضرموا النار في بيوتها ومساجدها. وتولى كبر ذلك صاحب سيس والأرمن، وبلغهم وصول السلطان إلى غزة فأجفلوا راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطان إلى مصر بعد أن جرد العساكر إلى حمص وبلاد السواحل بحمايتها من الإفرنج. ورجع سنقر الأشقر إلى صهيون وفارقه كثير من عسكره فلقوا بالشام وأقام معه سنجر الدوادر وعز الدين أردين والأمراء الذين مكنوه من قلاع الشام عند انتقاضه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير السلطان لحصار المرقب ثم الصلح معهم

ومع

سنقر الأشقر بصهيون ومع بني الظاهر بالكرك:

كان الإفرنج الذين بحصن المرقب عندما بلغهم هجوم التتر على الشام شنوا الغارات في بلاد المسلمين من سائر النواحي، فلما رجع التتر عن الشام استأذنه بليان الطباخي صاحب حصن الأكراد في غزوهم، وسار إليهم في حامية الحصون بنواحيه، وجمع التركمان وبلغ حصن المرقب ووقف أسفله، واستطرد له أهل الحصن حتى تورط في أوعار الجبل. ثم هجموا عليه دفعة فانهزم ونالوا من المسلمين، وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من مصر لغزوهم آخر سنة تسع وسبعين. واستخلف ابنه مكانه، وانتهى إلى الروحاء فوصله هنالك رسل الإفرنج في تقرير الهدنة مع أهل المرقب على أن يطلقوا من أسروه من المسلمين في واقعة بليان، فعقد لهم في المحرم

سنة ثمانين، وعقد لصاحب بيت الاستار وابنه ولصاحب طرابلس سمند بن
تيمند، ولصاحب عكا على بلادهم، وعلى قلاع الإسماعيلية وعلى جميع البلاد
المستجدة الفتح وما سيفتحه على أن يسكن عمال المسلمين باللاذقية وأن
لا يستجدوا أسير قلعة ولا غيرها، ولا يداخلوا التتر في فتنة ولا يمروا عليهم
إلى بلاد المسلمين إن أطاقوا ذلك. وعقد معهم ذلك لإحدى عشرة سنة.
وبعث السلطان من أمرائه من يستحلف الإفرنج على ذلك، وبلغه الخبر

بأن جماعة من أمراءه أجمعوا الفتك به، وداخلوا الإفرنج في ذلك وكان كبيرهم كوندك. فلما وصل إلى بيسان قبض عليه وعليهم، وقتلهم واستراب من داخلهم في ذلك ولحقوا بسنقر في صهيون. ودخل السلطان دمشق، وبعث العساكر لحصار شيزر. ثم ترددت الرسل بينه وبين الأشقر في الصلح على أن ينزل عن شيزر ويتعوض عنها بالشعر وبكاس، وعلى أن يقتصر في حامية الحصون التي لقطره على ستمائة من الفرسان فقط، ويطرد عنه الأمراء الذين لحقوا به فتم الصلح على ذلك، وكتب له التقليد بتلك الأعمال. ورجع من عنده سنجر الدوادر فأحسن إليه السلطان، وولى على نيابة شيزر بليان الطباخي. وكان بنو الظاهر بالكرك يسألون السلطان في الصلح بالزيادة على الكرك كما كان السلطان داود. فلما تم الصلح مع سنقر رجعوا إلى القنوع بالكرك. وبعث إليهم السلطان بأقاربهم من القاهرة وأتم لهم العقد على ذلك، وبعث الأمير سلحدار والقاضي تاج الدين بن الأثير لاستحلافهم، والله تعالى أعلم.

واقعة التتر بحمص ومهلك ابغا سلطانهم باثرها:

ثم زحف التتر سنة ثمانين إلى الشام من كل ناحية متظاهرين فسار أبغا في عساكر المغل وجموع التتر، وانتهى إلى الرحبة فحاصرها ومعه صاحب ماردين، وقدم أخوه منكوتر في العساكر إلى الشام. وجاء صاحب الشمال منكوتر من بني دوشي خان من كرسيهم بصراي مظاهراً لأبغا بن هلاكو على الشام فمر بالقسطنطينية ثم نزل بين قيسارية وتفليس، ثم سار إلى منكوتر بن هلاكو، وتقدم معه إلى الشام. وخرج السلطان من دمشق في عساكر المسلمين وسابقهم إلى حمص، ولقيه هناك سنقر الأشقر فيمن معه من أمراء الظاهرية. وزحف التتر ومن معهم من عساكر الروم والإفرنج والأرمن والكرج ثمانون ألفاً أو يزيدون؛ والتقى الفريقان على حمص. وجعل السلطان في ميمنته صاحب حماة محمد بن المظفر، ونائب دمشق لاشين السلحدار، وعيسى بن مهنا فيمن إليه من العرب. وفي الميسرة سنقر الأشقر في الظاهرية مع جموع التركمان ومن إليهم جماعة من أمراءه. وفي القلب نائبه حسام الدين طرنطاي، والحاجب ركن الدين أيحي وجمهور العساكر والمماليك. ووقف السلطان تحت الرايات في مواليه

وحاشيته. ووقفت عساكر التتر كراديس، وذلك منتصف رجب سنة ثمانين
واقتلوا، ونزل الصبر.

ثم انفضت ميسرة المسلمين واتبعهم التتر، وانفضت ميسرة التتر ورجعوا على ملكهم منكوتر في القلب فانهزم، ورجع التتر من اتباع ميسرة المسلمين فمروا بالسلطان وهو ثابت في مقامه لم يبرح، ورجع أهل الميرة. ونزل السلطان في خيامه ورحل من الغد في اتباع العدو، وأوعز إلى الحصون التي في ناحية الفرات باعتراضهم على المقابر فعدلوا عنها، وخاضوا الفرات في المجاهل فغرقوا ومر بعضهم ببر سلمية فهلكوا وانتهى الخبر إلى أبغا، وهو على الرحبة فأجفل إلى بغداد. وصرف السلطان العساكر إلى أماكنهم، وسار سنقر الأشقر إلى مكانه بصهيون. وتخلف عنه كثير من الظاهرية عند السلطان، وعاد السلطان إلى دمشق، ثم إلى مصر آخر شعبان من السنة فبلغه الخبر بمهلك منكوتر بن هلاكو بهمذان ومنكوتر صاحب الشمال بصراي فكان ذلك تماما للفتح. ثم هلك أبغا بن هلاكو سنة إحدى وثمانين؛ وكان سبب مهلكه فيما يقال أنه إتهم شمس الدين الجريز وزيره باغتيال أخيه منكوتر منصرفه من واقعة حمص، فقبض عليه وامتحنه واستصفاه فدس له الجويني من سمه ومات. وكان أبغا إتهم بأخيه أيضا أميراً من المغل كان شحنة بالجزيرة ففر منها وأقام مشركا. وبعث السلطان قلاون بعثا إلى ناحية الموصل للإغارة عليها وانتهوا إلى سنجر فصادفوا هذا الأمير، وجاءوا به إلى السلطان فحبسه. ثم أطلقه وأثبت اسمه في الديوان، وكان يحدث بكثير من أخبار التتر وكتب بعضها عنه. وبعث السلطان في هذه السنة بعوثا أخرى إلى نواحي سبب من بلاد الروم جزاء بما كان من الأرمن في حلب ومساجدها فاكتسحوا تلك النواحي، ولقيهم بعض أمراء التتر بمكان هنالك فهزموه ووصلوا إلى جبال بلغار ورجعوا غانمين. وبعث السلطان شمس الدين قراسنقر المنصوري إلى حلب لإصلاح ما خرب التتر من قلعتها وجامعها فأعاد ذلك إلى أحسن ما كان عليه. ثم أسلم ملوك التتر فبعث أولا بكدار بن هلاكو صاحب العراق بإسلامه، وانه تسمى أحمد وجاءت رسله بذلك إلى السلطان وهم شمس الدين أتابك ومسعود بن كيكافوس صاحب بلاد الروم، وقطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس وشمس الدين محمد بن الصاحب من حاشية صاحب ماردين، وكان كتابه مؤرخا بجمادى سنة إحدى وثمانين، وحملوا على

الكرامة، وأجيب سلطانهم بما يناسبه. ثم وصل رسول قزدان بن طقان المتولي بكرسي الشمال بعد أخيه منكوتمر سنة اثنين وثمانين بخبر ولايته ودخوله في دين الإسلام، ويطلب تقليد الخليفة واللقب منه والراية للجهاد فيمن يليه من الكفار فأسعف بذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء السلطان قلاون على الكرك وعلى

صهيون ووفاة صاحب حماة:

ثم توفي المنصور محمد بن المظفر صاحب حماة في شوال سنة اثنتين وثمانين، وولى السلطان ابنه المظفر وبعث بالخلع له ولا قاربه. وسار السلطان قلاون إلى الشام في ربيع سنة ثلاث وثمانين لمحاصرة المرقب بما فعلوه من ممالأة العدو فحاصره حتى استأمنوا إليه، وملك الحصن من أيديهم وانتظر وصول سنقر الأشقر من صهيون فلم يصل فرجع إلى مصر. وجهز النائب حسام الدين طرنطاي في العساكر لحصار الكرك بما وقع من شلامش وخسرو من الإنتقاض فسار سنة خمس وثمانين وحاصره حتى استأمنوا. وجاء بهم إلى السلطان فركب للقائهم وبالغ في إكرامهم ثم ساءت سيرتهم فاستراب بهم واعتقلهم وغربهم إلى القسطنطينية. وولى على الكرك عز الدين المنصوري، وبعده بيبرس الدويدار مؤلف أخبار الترك ثم جهز السلطان ثانيا النائب طرنطاي بالعساكر لحصار سنقر الأشقر بصهيون لانتقاضه وإغارته على بلاد السلطان فسار لذلك سنة ست وثمانين، وحاصره حتى استأمن هو ومن معه. وجاء به إلى السلطان وأنزله بالقلعة، ولم يزل عنده إلى أن هلك السلطان فقبض عليه، وتولى ابنه الأشرف من بعده كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفاة ميخائيل ملك القسطنطينية:

قد تقدم لنا كيف تغلب الإفرنج على القسطنطينية من يد الروم سنة ستمائة، وكان ميخائيل هذا من بطارقتهم، أقام في بعض الحصون بنواحيها فلما أمكنته الفرصة بيتها وقتل من كان بها من الإفرنج، وفر الباقون في مراكبهم. واجتمع الروم إلى ميخائيل هذا وملكوه عليهم، وقتل الملك الذي قبله. وكان بينه وبين صاحب مصر والناصر قلاون من بعده اتصال ومهاداة، ونزل بنو الظاهر عليه عندما غربوا من مصر. ثم مات ميخائيل سنة إحدى وثمانين، وولى ابنه ماندر ويلقب الراونس، وميخائيل هذا يعرف بالأشكري وبنوه من بعده بنو الأشكري، وهم ملوك القسطنطينية إلى هذا العهد، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

أخبار النوبة:

كان الملك الظاهر وفد عليه أعوام سنة خمس وسبعين ملك النوبة من
تشكيل مستنجدا به

على ابن أخيه داود لما كان تغلب عليه، وانتزع الملك من يده، فوعده السلطان وأقام ينتظر. واستفحل ملك داود وتجاوز حدود مملكته إلى قرب أسوان من آخر الصعيد، فجهز السلطان العساكر إليه مع اقسنقر الفارقاني وأبيك الأفرم أستاذ داره، وأطلق معهم مرتشكين ملك النوبة فساروا لذلك، واستنفروا العرب وانتهوا إلى رأس الجنادل، واستولوا على تلك البلاد وأمنوا أهلها. وساروا في البلاد فلقبهم داود الملك فهزموه وأثخنوا في عساكره، وأسروا أخاه وأخته وأمه. وسار إلى مملكة السودان بالأبواب، ورآه فقاتله ملكها وهزمه وأسره، وبعث به مقيدا إلى السلطان فاعتقل بالقلعة إلى ان مات. واستقر مرتشكين في سلطان النوبة على جراية مفروضة وهدايا معلومة في كل سنة، وعلى أن تكون الحصون المجاورة لأسوان خالصة للسلطان، وعلى أن يمكن ابن أخيه داود وجميع أصحابه من كل ما لهم في بلادهم فوفى بذلك. ثم مات الظاهر وانقرض دولته ودولة بنيه، وانتقل الملك إلى المنصور قلاون فبعث سنة ست وثمانين العساكر إلى النوبة مع علم الدين سنجر الخياط، وعز الدين الكوراني وسار معهم نائب قوص عز الدين أيدمر السيفي بعد أن استنفر العربان: أولاد ابي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد كنز الدولة، وجماعة من الغرب، وبني هلال وساروا على العدو الغربية والشرقية في دنقلة، وملكهم بيتمامون. هكذا سماه النووي، وأظنه أبا مرتشكين وبرزوا للعساكر فهزمتهم، واتبعتهم خمسة عشر يوماً وراء دنقلة ورتب ابن أخت بيتمامون في الملك ورجعت العساكر إلى مصر فجاء بيتمامون إلى دنقلة فاستولى على البلاد ولحق ابن أخته بمصر، صريخا بالسلطان فبعث معه عز الدين أبيك الأفرم في العساكر، ومعه ثلاثة من الأمراء، وعز الدين نائب قوص وذلك سنة ثمان وثمانين. وبعثوا المراكب في البحر بالأزودة والسلاح. ومات ملك النوبة بأسوان ودفن بها، وجاء نائبه صريخا إلى السلطان فبعث معه داود ابن أخيه مرتشكين الذي كان أسيرا بالقلعة، وتقدم جريس بين يدي العساكر فهرب بيتمامون، وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمس عشرة مرحلة وراء دنقلة. ووقف العساكر على ساحل البحر وتعذر وصول المراكب إلى الجزيرة من كثرة الحجر، وخرج بيتمامون منها فلحق بالأبواب، ورجع عنه أصحابه،

ورجعت العساكر إلى دنقلة فملكوا داود ورجعوا إلى مصر سنة تسع وثمانين لتسعة أشهر من مسيرهم، بعد أن تركوا أميراً منهم مع الملك داود، ورجعوا إلى مصر، ورجع بيتامون إلى دنقلة، وقتل داود، وبعث الأمير الذي كان معهم إلى السلطان وحمله رغبة في الصلح على أن يؤذي الضريبة المعلومة فأسعف لذلك، واستقر في ملكه انتهى والله تعالى أعلم.

فتح طرابلس:

كان الإفرنج الذين بها قد نقضوا الصلح وأغاروا على الجهات فاستنفر السلطان العساكر من مصر والشام، وأزاح علّهم، وجهاز آلات الحصار، وسار إليها في محرم سنة ثمان وثمانين فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وفتحها عنوة لأربعة وثلاثين يوماً من حصارها واستباحها. وركب بعضهم الشواني للنجاة فرددتهم الريح إلى السواحل فقتلوا وأسروا، وأمر السلطان بتخريبها فخربت وأحرقت. وفتح السلطان ما إليها من الحصون والمعقل، وأنزل حاميتها وعاملها بحصن الأكراد. ثم أتخذ حصناً آخر لترك النائب والحامية في العمل، وسمي باسم المدينة، وهو الموجود لهذا العهد وكان من خبر هذه المدينة من لدن الفتح أن معاوية أيام ولايته الشام لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث إليها سفيان بن مخنف الإزدي فحاصرها وبنى عليها حصناً حتى جهد أهلها الحصار، وهربوا منها في البحر. وكتب سفيان إلى معاوية بالفتح. وكان يبعث العساكر كل سنة للمرابطة بها. ثم جاء إلى عبد الملك بن مروان بطريق من الروم وسأله في عمارتها والنزول بها مجمعا على أن يعطيه الخراج فأجاب، وأقام قليلا ثم غدر بمن عنده من المسلمين. وذهب إلى بلاد الروم فتخطفته شواني المسلمين في البحر، وقتله عبد الملك، ويقال الوليد، وملكها المسلمون. وبقي الولاة يملكونها من دمشق إلى أن جاءت دولة العبيديين فأفردوها بالولاية، ووليها رمان الخادم، ثم سرّ الدولة، ثم أبو السعادة علي بن عبد الرحمن بن جبارة، ثم نزال، ثم مختار الدولة بن نزال، وهؤلاء كلهم من أهل دولته.

ثم تغلب قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، وتوفي سنة أربع وستين وأربعمائة. وكان من فقهاء الشيعة، وهو الذي صنف الكتاب الملقب بخراب الدولة ابن منقذ بن كمود فقام بولاية أخيه أبي الحسن بن محمد بن عمار ولقبه جلال الدين.

وتوفي سنة اثنتين وتسعين صنجيل من ملوكهم واسمه ميمنت، ومعناه ميمون. وصنجيل اسم مدينة عرف بها، وأقام صنجيل يحاصرها طويلاً، وعجز ابن عمار عن دفاعه. ثم قصد سلطان السلجوقية بالعراق محمد بن

ملكشاه، يستنجد به، واستخلف بالمناقب ابن عمه على طرابلس، ومعه سعد الدولة فتيان بن الأغر فقتله أبو المناقب ودعا للأفضل ابن أمير الجيوش المستبد على خلفاء العبيديين بمصر لذلك العهد. ثم هلك صنجيل وهو محاصر لها، وولي مكانه السرداني من زعمائهم. وبعث الأفضل قائداً إلى طرابلس فأقام بها وشغل عن مدافعة العدو بجمع الأموال. ونمي عنه إلى الأفضل أنه يروم الاستبداد فبعث آخر مكانه، ونافر أهل البلد لسوء سيرته فتيين وصول المراكب من مصر بالمدد، وقبض

على أعيانهم وعلى مخلف فخر الملك بن عمار من أهله وولده، وبعث بهم إلى مصر. وجاء فخر الملك بن عمار بعد أن قطع جبل الرجاء في يده من إنجاد السلجوقية لما كانوا فيه من الشغل بالفتنة، وربما علله بعضهم بولاية الوزارة له. ثم رجع إلى دمشق سنة اثنتين وخمسمائة ونزل على طغتكين الأتابك. ثم ملكها السرداني سنة ثلاث وخمسمائة بعد حصارها سبع سنين. وجاء ابن صنجيل من بلاد الإفرنج فملكها منه، وأقامت في مملكته نحو من ثلاثين سنة. ثم ثار عليه بعض الزعماء وقتله بطرس الأعور واستخلف في طرابلس القوش بطرار. ثم كانت الواقعة بين صاحب القدس ملك الإفرنج، وبين زنكي الأتابك صاحب الموصل، وانهزم الإفرنج وأسر القوش في تلك الواقعة، ونجا ملك الإفرنج إلى تغريب فتحصن بها وحصره زنكي حتى اصطالحا على أن يعطي تغريب، ويطلق زنكي الأسرى في الواقعة فأنطلق القوش إلى طرابلس فأقام بها مدة، ووثب الإسماعيلية به فقتلوه وولي بعده رهند صيبا وحضر مع الإفرنج سنة سبع وخمسين ووقعة حارم التي هزمهم فيها العادل. وأسر رهند يومئذ وبقي في اعتقاله إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب فأطلقه سنة سبعين وخمسمائة، ولحق بطرابلس ولم تزل في ملكه وملك ولده إلى أن فتحها المنصور سنة ثمان وثمانين كما مر والله تعالى أعلم.

إنشاء المدرسة والمارستان بمصر:

كان المنصور قلاون قد اعتزم على إنشاء المارستان بالقاهرة ونظر له الأماكن، حتى وقف نظره على الدار القطبية من قصور العبيديين وما يجاورها من القصرين، واعتمد بإنشائه هنالك، وجعل الدار أصل المارستان، وبنى بإزائه مدرسة لتدريس العلم وقبة لدفنه. وجعل النظر في ذلك لعلم الدين الشجاعى فقام بإنشاء ذلك لأقرب وقت وكملت العمارة سنة اثنتين وثمانين وستمائة. ووقف عليها أملاكاً وضياعاً بمصر والشام وجلس بالمارستان في يوم مشهود. وتناول قدحا من الأشربة الطيبة وقال: وقفت هذا المارستان على مثلي فمن دوني من أصناف الخلق، فكان ذلك من صالح آثاره والله أعلم.

وفاة المنصور قلاون وولاية ابنه خليل الأشرف:

كان المنصور قلاون قد عهد لابنه علاء الدين ولقبه الصالح، وتوفي سنة سبع وثمانين فولي العهد مكانه ابنه الآخر خليل. ثم انتقض الإفرنج بعكا وأغاروا على النواحي ومرت بهم رفقة من التجار برقيق من الروم والترك جلبوهم للسلطان فنهبهم وأسروهم فأجمع السلطان

غزوههم وخرج في العساكر بعد الفطر من سنة تسع وثمانين. واستخلف ابنه خليلاً على القاهرة ومعه زين الدين سيف، وعلم الدين الشجاعى الوزير وعساكر بظاهر البلد فطرقة المرض، ورجع إلى قصره فمرض. وتوفي في ذي القعدة من السنة فبوع ابنه خليل ولقب الأشرف، وكان حسام الدين طرنتاي نائب المنصور إليه فأقره وأشرك معه زين الدين سيف في نيابة العتبة، وأقر علم الدين الشجاعى على الوزارة، وبدر الدين بيدو أستاذ داره، وعز الدين أبيك خزندار. وكان حسام الدين لاشين السلحدار نائباً بدمشق، وشمس الدين قراسنقر الجوكندار نائباً بحلب فأقرهما وجمع ما كان بالشام من ولاة أبيه. ثم قبض على النائب حسام الدين طرنتاي لأيام قلائل وقتله واستولى على مخلفه، وكان لا يعبر عنه. كان الناض منها ستمائة ألف دينار، وحملت كلها لخزانتة، واستقل بدر الدين بالنيابة، وبعث إلى محمد بن عثمان بن السلعوس من الحجاز فولاه الوزارة، وكان تاجراً من تجار الشام وتقرب له أيام أبيه، واستخدم له فاستعمله في بعض إقطاعه بالشام، ووفر جبايتها فولاه ديوانه بمصر فأسرف في الظلم وأنهى أمره إلى طرنتاي النائب فصادره المنصور وامتحنه، ونفاه عن الشام. وحج في هذه السنة وولي الأشرف فكان أول أعماله البحث عنه، وولاه الوزارة فبلغ المبالغ في الظهور وعلو الكلمة واستخدم الخواص له وترفع عن الناس، واستقل الرتب وقبض الأشرف على شمس الدين سنقر وحبسه، وكان قد قبض مع طرنتاي النائب على عز الدين سيف لما بلغه أنه يدبر عليه مع طرنتاي، ثم ثبتت عنده براءته فأطلقه والله تعالى أعلم.

فتح عكا وتخريبها:

ثم سار الأشرف أول سنة تسعين وستمائة لحصار عكا متمماً عزم أبيه فيها فجهز العساكر واستنفر أهل الشام، وخرج من القاهرة فأغذ السير إلى عكا، ووافاه بها أمراء الشام والمظفر بن المنصور صاحب حماة فحاصرها ورماها بالمجانيق فهدم كثير من أبراجها، وتلاها المقاتلة لاقتحامها فرشقوهم بالسهم فا من اللبود، وزحفوا في كنها ورددوا الخندق بالتراب فحمل كل واحد منهم ما قدر عليه حتى طموه، وانتهاوا إلى الأبراج المتهدمة فألصقوها بالأرض، واقتحموا البلد من ناحيتها، واستلحموا من كان فيها

وأكثروا القتل والنهب، ونجا الفل من العدو إلى أبراجها الكبار التي بقيت
مائلة فحاصرها عشرا آخرا، ثم اقتحمها عليهم

فاستوعبهم السيف. وكان الفتح منتصف جمادى سنة سبعين لمائة وثلاث سنين من ارتجاع الكفار لها من يد صلاح الدين سنة سبع وثمانين وخمسائة. وأمر الأشرف بتخريبها فخرت وبلغ الخبر إلى الإفرنج بصور وصيدا وعتلية وحيفا فأجفلوا عنها وتركوها خاوية، ومر السلطان بها وأمر بهدمها فهدمت جميعا، وانكف راجعا إلى دمشق. وتقبض في طريقه على لاشين نائب دمشق لأن بعض الشياطين أوحى إليه أن السلطان يروم الفتك به فركب للفرار، واتبعه علم الدين سنجر الشجاعى، وسار إلى بيروت ففتحها. ومر السلطان بالكرك فاستعفى نائبها ركن الدين بيبرس الدوادار وهو المؤرخ فولى مكانه جمال الدين أتنز الاشرفى، ورجع السلطان إلى القاهرة فبعث شلامش وخسرو ابني الظاهر من محبسهما بالإسكندرية إلى القسطنطينية. ومات شلامش هنالك، وأفرج عن شمس الدين سنقر الأشقر، وحسام الدين لاشين المنصوري اللذين اعتقلهما كما قدمناه. وقبض على علم الدين سنجر نائب دمشق، وسبق إلى مصر معتقلا. وأمر السلطان ببناء الرفوف بالقلعة على أوسع ما يكون وأرفعه، وبني القبة بإزائه لجلوس السلطان أيام الزينة والفرح فبنيت مشرفة على سوق الخيل والميدان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فتح قلعة الروم:

ثم سار السلطان سنة إحدى وتسعين في عساكره إلى الشام بعد أن أفرج عن حسام الدين لاشين وردة إلى إمارته وانتهى إلى دمشق. ثم سار إلى حلب، ثم دخل منها إلى قلعه الروم فحاصرها في جمادى من السنة وملكها عنوة بعد ثلاثين يوماً من الحصار، وقاتل المقاتلة الذريعة، وخرب القلعة وأخذ فيها بطرك الأرمن أسيرا، وانكف السلطان راجعا إلى حلب فأقام بها شعبان، وولى عليها سيف الدين الطباقي نائبا مكان قراسنقر الظاهري لأنه ولاء مقدم المماليك. ورحل إلى دمشق ف قضى بها عيد الفطر، واستراب لاشين النائب فهرب ليلة الفطر، وأركب السلطان في طلبه، وتقبض عليه بعض العرب في حيه. وجاء به إلى السلطان فبعثه مقيدا إلى القاهرة، وولى على نيابة دمشق عز الدين أيبك الحميدي عوضا عن علم الدين سنجر الشجاعى، ورجع إلى مصر فأفرج عن علم الدين

سنجر الشجاعي، وتوفي لسنة بعد إطلاقه. ثم قبض على سنقر الأشقر وقتله، وسمع نائبه بيدو براءة لاشين فأطلقه. وتوفي ابن الأثير بعد شهر فولى مكانه ابنه عماد الدين أيوب، وكان أيوب قد اعتقله المنصور لأول ولايته فأطلقه الأشرف هذه السنة ثلاث عشرة سنة من اعتقاله، واستخلصه للمجالسة والشورى. وتوفي

القاضي فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر كاتب السر
وصاحب

ديوان الانشاء وله التقدم عنده وعند أبيه، فولى مكانه فتح الدين أحمد بن الأثير الحلبي. وترك ابن عبد الظاهر ابنه علاء الدين عليا فألقى عليه النعمة منتظما في جملة الكتاب. ثم سار السلطان إلى الصعيد يتصيد، واستخلف بيدو النائب على دار ملكه، وانتهى إلى قوص. وكان ابن السلعوس قد دس إليه بأن بيدو احتجن بالصعيد من الزرع ما لا يحصى فوقف هنالك على مخازنها واستكثرها، وارتاب بيدو لذلك. ولما رجع الأشرف إلى مصر ارتجع منه بعض إقطاعه، وبقي بيدو مرتابا من ذلك، وأتحف السلطان بالهدايا من الخيام والهجن وغيرهما، والله تعالى أعلم،

مسير السلطان إلى الشام وصلاح الارمن

ومكثه في مصيا وهدم الشويك:

ثم تجهز السلطان سنة اثنتين وتسعين إلى الشام، وقدم بيدو النائب بالعساكر، وعاج على الكرك على الهجن فوقف عليها وأصلح من أمورها ورجع. ووصل إلى الشام فوافاه رسول صاحب سيس ملك الأرمن راعياً في الصلح على أن يعطى تهسنا ومرعش وتل حمدون فعقد لهم على ذلك، ومملك هذه القلاع وهي في غم الدرب من ضياع حلب، وكانت تهسنا للمسلمين. ولما ملك هلاكو حلب باعها النائب من ملك الأرمن سيس. ثم سار السلطان إلى حمص ووصل إليها في رجب من السنة، ومعه المظفر صاحب حماة ونزل سلمية، ولقيه مهنا بن عيسى أمير العرب فقبض عليه وعلى أخويه محمد وفضل وابنه موسى وبعثهم معتقلين مع لاشين إلى دمشق، ومن هناك إلى مصر فحبسوا بها. وولى على الغرب مكانهم محمد بن أبي بكر بن علي بن جديلة وأوعز وهو بحمص إلى نائب الكرك بهدم قلعة الشويك فهدمت، وانكف راجعا إلى مصر، وقدم العساكر مع بيدو، وجاء في الساقية على الهجن مع خواصه. ولما دخل علي مصر أفرج عن لاشين المنصوري والله تعالى أعلم.

مقتل الأشرف وولاية أخيه محمد الناصر في كفالة كيبغا:

كان النائب بيدو مستوليا على الأشرف، والأشرف مستريب به حتى
كأنه مستبد،
وكان مستوحشا من الأشرف. واعتزم الأشرف سنة ثلاث وتسعين على
الصيد في البحيرة فخرج

إليها. وبعث وزيره ابن السلعوس للإسكندرية لتحصيل الأموال والأقمشة فوجد بيدو قد سبقوا إليها واستصفرا ما هنالك فكاتب السلطان بذلك فغضب. واستدعى بيدو فوبخه وتوعده ولم يزل هو يلاطفه حتى كسر من سورة غضبه. ثم خلص إلى أصحابه وداخلهم في التوثب به. وتولى كبر ذلك منهم لاشين المنصوري نائب دمشق، وقراسنقر المنصوري نائب حلب، وكان الأمراء كلهم حاقدين على الأشرف لتقديمه حاشيته عليهم. ولما كتب إليه السلعوس بقله المال صرف مواليه إلى القلعة تخفيفاً من النفقة، وبقي في القليل. وركب بعض أيامه يتصيد وهو مقيم على فرجة فاتبعوه وأدركوه في صيده فأوجس في نفسه الشر منهم فعاجلوه وعلوه بالسيوف ضربه أولاً بيدو وثنى عليه لاشين وتركوه مجندلاً بمصرعه منتصف محرم من السنة، ورجعوا إلى المخيم وقد أبرموا أن يولوا بيدو فولوه ولقبوه القاهر. وتقبض على بيسري الشمسي وسيف الدين بكتمر السلحدار، واحتملوهما وساروا إلى قلعة الملك. وكان زين الدين سيف قد ركب للصيد فبلغه الخبر في صيده فسار في اتباعهم، ومعه سوس الجاشنكير وحسام الدين أستاذ دار وركن الدين سوس وطقجي في طائفة من الجاشنكيرية، وأدركوا القوم على الطرانة. ولما عاينهم بيدو وبيسري وبكتمر المعتقلين في المخيم رجعوا إلى كييغا وأصحابه وفر عن بيدو من كان معه من العريان والجند وقاتل قليلاً ثم قتل، ورجع برأسه على القناة، وافترق أصحابه قراسنقر ولاشين بالقااهرة. ويقال أن لاشين كان مختفياً في مأذنة جامع ابن طولون، ووصل كييغا وأصحابه إلى القلعة وبها علم الدين الشجاعي، واستدعوا محمد بن قلاون أخا الأشرف وبايعوه ولقبوه الناصر، وقام بالنيابة كييغا وبالأتابكية حسام الدين، وبالوزارة علم الدين سنجر، وبالأستاذ دارية ركن الدين سوس الجاشنكير. واستبدوا بالدولة فلم يكن الناصر يملك معهم شيئاً من أمره، وجدوا في طلب الأمراء الذين داخلوا بيدو في قتل الأشرف فاستوعبوهم بالقتل والصلب والقطع وكان بهادر، رأس نوبة، وأقوش الموصلي فقتلا، وأحرقت أشلاؤهما. وشفع كييغا في لاشين وقراسنقر المتولين كبر ذلك فظهرا من الأختفاء وعادا إلى محلها من الدولة. ثم

تقبض على الوزير محمد بن السلعوس عند وصوله من الإسكندرية، وصادره
الوزير الشجاعي وامتحنه فمات تحت الامتحان، وأفرج عن

عز الدين ايبك الأفرم الصالحي، وكان الأشرف اعتقله سنة اثنتين وتسعين والله سبحانه وتعالى أعلم.

وحشة كيبيغا ومقتل الشجاعى:

ثم انّ الشجاعى لطف محله من الناصر واختصه بالمداخلة، وأشار عليه بالقبض

على جماعة من الأمراء فاعتقلهم: وفيهم سيف الدين كرجى وسيف الدين طونجى. وطوى ذلك عن كيبيغا، وبلغه الخبر وهو في موكب بساحة القلعة. وكان الأمراء يركبون في خدمته فاستوحش، وارتاب بالشجاعى وبالناصر. ثم جاء بعض مماليك الشجاعى إلى كيبيغا في الموكب، وجرّد سيفه لقتله فقتله مماليكه، وتأخر هو ومن كان معه من الأمراء عن دخول القلعة، وتقبضوا على سوس الجاشنكير أستاذ دار وبعثوا به إلى الإسكندرية ونادوا في العسكر فاجتمعوا وحاصروا القلعة. وبعث إليهم السلطان أميراً فشرطوا عليه أن يمكنهم من الشجاعى فامتنع، وحاصروه سبعا واشتد القتال. وفر من كان بقي في القلعة من العسكر إلى كيبيغا، وخرج الشجاعى لمدافعته فلم يغن شيئاً. ورجع إلى السلطان وقد خامره الرعب فطلب أن يحبس نفسه فمضى به المماليك إلى السجن وقتلوه في طريقهم. وبلغ الخبر إلى كيبيغا ومن كان معه فذهبت عنهم الهواجس، واستأمنوا للسلطان فأمنهم واستحلفوه فحلف لهم ودخلوا إلى القلعة، وأفاض كيبيغا العطاء في الناس، وأخرج من كان في الطبايق من المماليك بمداخلة الشجاعى فأنزلهم إلى البلد بمقاصر الكسر، ودار الوزارة، والجوار وكانوا نحواً من تسعة آلاف فأقاموا بها. ولما كان المحرم فاتح سنة أربع وتسعين استعدوا ليلة وركبوا فيها جميعاً، وأخروا من كان في السجون ونهبوا بيوت الأمراء وأعجلهم الصبح عن تمام قصدهم، وباكرهم الحاجب بهادر ببعض العساكر فهزمهم. وافترقوا وتقبض على كثير منهم فأخذ منهم العقاب مأخذه قتلاً وضرباً وعزلاً، وأفرج عن عز الدين أيبك الأفرم، وأعيد إلى وظيفته أمير جندار، ثم هلك قريباً. واستحكم أمر السلطان ونائبه كيبيغا وهو مستبد عليه، واستمر الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله تعالى ولي التوفيق.

خلع الناصر وولاية كييغا العادل:

ولما وقعت الوحشة بين كييغا والشجاعي، وتلتها هذه الفتنة استوحش كييغا في ظاهر أمره، وانقطع عن دار النيابة متمارضا وتردد السلطان لعيادته. ثم حمل بطانته على الاستبداد بالملك

والجلوس على التخت، وكان طموحا لذلك من أول أمره فجمع الأمراء ودعاهم إلى بيعته فبايعوه. وخلع الناصر وركب إلى دار السلطان فجلس على التخت وتلقب بالعدل، وأخرج السلطان من قصور الملك، وكان مع أمه ببعض الحجر. وولى حسام الدين لاشين نائباً والصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي الدار وزيرا نقله إليها من النظر في الديوان لعلاء الدين ولي العهد ابن قلاون، وعز الدين أيك الأفرم الصالحي أمير جندار، وبهادر الحلبي أمير حاجب، وسيف الدين مناص أستاذ دار، وقسم إمارة الدولة بين مماليكه. وكتب إلى نواب الشام بأخذ البيعة فأجابوا بالسمع والطاعة، وقبض على عز الدين أيك الخازندار نائب طرابلس، وولى مكانه فخر الدين أيك الموصلية. وكان الخازندار ينزل حصن الأكراد، ونزل الموصلية بطرابلس، وعادت دار إمارة. ثم وفد سنة خمس وتسعين على العدل كيغا طائفة من التتر يعرفون بالأردانية، ومقدمهم طرنطاي كان مداخلا لبدولي كنجاب ابن عمه ملك التتر. فلما سار الملك إلى غازان خافه طرنطاي، وكانت أحيائه بين غازان والموصل. وأوعز غازان إلى التتر الذين من مارتكن فأخذ الطرق عليهم. وبعث قط قرا من أمرائه للقبض على طرنطاي ومن معه من أكابر قبيله فسار لذلك في ثمانين فارساً فقتله طرنطاي وأصحابه وعبروا الفرات إلى الشام. وأتبعهم التتر من ديار بكر فكروا عليهم فهزموهم. وأمر العدل سنجر الدوادار أن يتلقاهم بالرحب واحتفل نائب دمشق لقدمهم. ثم ساروا إلى مصر فتلقاهم شمس الدين قراسقر، وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلعة فأنفوا لذلك، وكان سبباً لخلع العدل كما نذكر. ووصل على أثرهم بقية قومهم بعد أن مات منهم كثير. ثم رسخوا في الدولة وخلطهم التتر بأنفسهم، وأسلموا واستخدموا أولادهم وخلطوهم بالصهر والولاء والله سبحانه وتعالى أعلم.

خلع العدل كيغا وولاية لاشين المنصور:

كان أهل الدولة نقموا على السلطان كيغا العدل تقديم مماليكه عليهم، ومساواة الأردانية من التتر بهم فتفاوضوا على خلعه. وسار إلى الشام في شوال سنة خمسة وتسعين فعزل عز الدين أيك الحموي نائب دمشق واستصفاه، وولى مكانه سيف الدين عزلو من مواليه. ثم سار إلى

حمص متصيدا ولقيه المظفر صاحب حماة فأكرمه وردة إلى بلده. وسار إلى مصر والأمراء مجتمعون خلعه والفتك بمماليكه، وانتهى إلى العوجاء من أرض فلسطين، وبلغه عن بيسري الشمسي انه كاتب التتر فنكر عليه وأغلظ له في الوعيد. وارتاب الأمراء من ذلك وتمشيت

رجالهم واتفقوا. وركب حسام الدين لاشين وبدر الدين بيسري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين قفجاق وبهادر الحلبي الحاجب وبكتاش الفخري وبليك الخازندار وأقوش الموصلي وبكتمر السلحدار وسلار وطغجي وكرجي ومعطاي، ومن انضاف إليهم بعد أن بايعوا لاشين، وقصدوا مخيم بكتوت الأزرق فقتلوه. وجاءهم ميحاص فقتلوه أيضا. وركب السلطان كييغا في لفيغه فحملوا عليه فانهمز إلى دمشق، وباع القوم لاشين ولقبوه المنصور وشرطوا عليه أن لا ينفرد عنهم برأي فقبل، وسار إلى مصر ودخل القلعة. ولما وصل كييغا إلى دمشق لقيه نائبه سيف الدين غزلو وأدخله القلعة واحتاط على حواصل لاشين والأمراء الذين معه، وأمن جماعة من مواليه. ووصلت العساكر التي كانت مجردة بالرحبة ومقدمهم جاغان، وكانوا قد داخلوا لاشين في شأنه ونزلوا ظاهر دمشق، واتفقوا على بيعه لاشين وأعلنوا بدعوته. وانحل أمر العادل وسأل ولاية صرخد، وألقى بيده فحبس بالقلعة لسنتين من ولايته. وبعث الأمراء بيعتهم للاشين، ودخل سيف الدين جاغان إلى القلعة. ثم وصل كتاب لاشين ببعثه إلى مصر، وبعث إلى كييغا بولاية صرخد كما سأل، ووصل قفجق المنصوري نائبا عن دمشق. وأفرج لاشين بمصر عن ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من المماليك، وولى قراسنقر نائبا وسيف الدين سلار أستاذ دار وسيف الدين بكتمر السلحدار أمير جاندار وبهادر الحلبي صاحب * * وأقر فخر الدين الخليلي على وزارته، ثم عزله وولى مكانه شمس الدين سنقر الأشقر، وقبض على قراسنقر النائب وسيف الدين سلار أستاذ دار آخر سنة ست وتسعين وولى مكانه سيف الدين منكوتر الحسامي مولاه، واستعمل سيف الدين قفجق المنصوري نائبا. ثم أمر بتجديد عمارة جامع ابن طولون وندب لذلك علم الدين سنجر الدوادر، وأخرج للنفقة فيه من خالص ماله عشرين ألف دينار، ووقف عليه أملاكاً وضياعاً. ثم بعث سنة تسع وسبعين بالناصر محمد بن قلاون إلى الكرك مع سيف الدين سلار أستاذ في دار، وقال لزين الدين بن مخلوف فقيه بيته هو ابن استاذي وأنا نائبه في الأمر، ولو علمت أنه يقوم بالأمر لأقمته. وقد خشيت عليه في الوقت فبعثته إلى الكرك فوصلها في ربيع. وقال النووي: انه بعث معه جمال الدين بن أقوش. ثم قبض السلطان

في هذه السنة على بدر الدين بيسري الشمسي بسعاية منكوتمر نائبه، لأن لاشين أراد أن يعهد إليه بالأمر فرده بيسري عن ذلك وقبحه عليه، فدرس منكوتمر بعض ممالك بيسري وانها إلى السلطان أنه يريد الثورة فقبض عليه آخر ربيع الثاني من السنة وأودعه السجن فمات في محبسه. وقبض في هذه السنة على

بهادر الحلبي وعلى عز الدين أيبك الحموي. ثم أمر في هذه السنة برد الإقطاعات في النواحي، وبعث الأمراء والكتاب لذلك. وتولى ذلك عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة. وقال مؤرخ حماة المؤيد: كانت مصر منقسمة على أربعة وعشرين قيراطاً: أربعة منها للسلطان والكلف والرواتب وعشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات، وعشرة للأجناد الجلقة. فصيروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد، وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش. وقال النووي: قرر للخاص في الروك الجيزة وأطفيح ودمياط ومنفلوط والكوم الأحمر، وحولت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين. وهذا في العدد، إنما هو بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين سنة واحدة، هي تفاوت ما بين السنين الشمسية والقمرية، وهو حجة ديوان الجيش في انقضاء التفاوت الجيشية، وهو تحويل بالأقلام فقط. وليس فيه نقص شيء. ثم أقطعت البلاد بعد الروك واستثنيت المراتب الجسرية والرزق الإحباسية. انتهى كلام النووي رحمه الله، والله تعالى أعلم.

فتح حصون سيس:

ولما ولي سيف الدين منكوتر النيابة، وكان مختصاً بالسلطان استولى على الدولة وطلب من السلطان أن يعهد له بالملك فنكر ذلك الأمراء، وثنوا عنه السلطان فتنكر لهم منكوتر وأكثر السعاية فيهم، حتى قبض على بعضهم وتفرق الآخرون في النواحي. وبعث السلطان جماعة منهم سنة سبع وتسعين لغزو سيس وبلاد الأرمن: كان منهم بكتاش أمير سلاح وقراسنقر وبكتمر السلحدار وتدلار وتمراز ومعهم الألفي نائب صفد في العساكر، ونائب طرابلس ونائب حماة، ثم أردفهم بعلم الدين سنجر الدوادار. وجاءت رسل صاحب سيس وأغاروا عليها ثلاثة أيام واكتسحوها. ثم مروا ببغراس، ثم بمرج أنطاكية وأقاموا بها ثلاثاً، ومروا بجسر الحديد ببلاد الروم. ثم قصدوا تل حمدون فوجدوها خاوية، وقد انتقل الأرمن الذين بها إلى قلعة النجيمة، وفتحوا قلعة مرعش وحاصروا قلعة النجيمة أربعين يوماً وافتتحوها صلحاً، وأخذوا أحد عشر حصناً منها المصيصة وحموم وغيرها. واضطرب أهلها من الخوف فأعطوا طاعتهم، ورجع العساكر إلى حلب. وبلغ السلطان

لاشين أن التتر قاصدون الشام فجهز العساكر إلى دمشق مع جمال الدين أقوش الأفرم، وأمره أن يخرج العساكر من دمشق إلى حلب مع قفجق النائب فسار إلى حمص وأقام بها. ثم بلغهم الخبر برجوع التتر، ووصل أمر السلطان إلى سيف الدين الطباخي نائب حلب بالقبض على بكتمر السلحدار والألفي نائب صفد، وجماعة

من الأمراء بحلب بسعاية بكتمر. وحاول الطباخي ذلك فتعذر عليه وبرز تدلار إلى بسار فتوفي بها وأقام الآخرون. وشعروا بذلك فلهجوا بقفجق النائب على حمص فأمنهم، وكتب إلى السلطان يشفع فيهم فأبطأ جوابه. وعزله سيف الدين كرجي وعلاء الدين أيدغري من إجارتهم فاستراب، وولى السلطان مكانه على دمشق جاغان فكتب إلى قفجق بطلبهم فنفروا وافترق عسكره، وعبر الفرات إلى العراق ومعه أصحابه بعد أن قبضوا على نائب حمص واحتملوه. ولحقهم الخبر بقتل السلطان لاشين وقد تورطوا في بلاد العدو فلم يمكنهم الرجوع. ووفدوا على غازان بنواحي واسط، وكان قفجق من جند التتر وأبوه من جند غازان خصوصاً. ولما وقعت الفتنة بين لاشين وغازان، وكان فيروز أتابك غازان مستوحشا من سلطانه فكاتب لاشين في اللحاق به، واطلع سلطانه على كتبه فأرسل إلى شاه نائب حران فقبض على فيروز وقتله، وقتل غازان أخويه في بغداد، والله تعالى أعلم.

مقتل لاشين وعود الناصر محمد بن قلاون إلى

ملكه:

كان السلطان لاشين قد فوض أمر دولته إلى مولاة منكوتر فاستطال وطمع في الإستبداد؛ ونكره الأمراء كما قدمناه فأغرى السلطان بهم وشردهم كل مشرد بالنكبة والإبعاد. وكان سيف الدين كرجي من الجاشنكير ومقدما عليهم، كما كان قراسنقر مع الأشرف. وكان جماعة المماليك معصوبين عليه. وسعى منكوتر في نيابته على القلاع التي افتتحت من الأرمن ببلاد سبب فاستعفى من ذلك وأسرها في نفسه، وأخذ في السعاية على منكوتر وظاهره على أمره قفجي من كبار الجاشنكيرية. وكان لطقجي صهر من كبار الجاشنكيرية اسمه طنطاي أغلظ له منكوتر يوماً بالمخاطبة فامتعض وفزع إلى كرجي وطقجي فاتفقوا على اغتيال السلطان. وقصدوه ليلاً، وهو يلعب بالشطرنج، وعنده حسام الدين قاضي الحنفية فأخبره كرجي بغلق الأبواب على المماليك فنكره، ولم يزل يتصرف أمامه حتى ستر سيفه بمنديل طرحه عليه. فلما قام السلطان لصلاة العتمة نحاها عنه وعلاه بالسيف. وافتقد السلطان سيفه فتعاوروه بسيوفهم حتى

قتلوه، وهموا بقتل القاضي ثم تركوه. وخرج كرجي إلى طقجي بمكان انتظاره وقصدوا منكوتمر وهو بدار النيابة فاستجار بطقجي فأجاره وحبسه بالجب ثم راجعوا رأيهم واتفقوا على قتله فقتلوه. وكان مقتل لاشين في ربيع سنة ثمان وتسعين، وكان من موالي علي بن المعز أيك فلما غرب للقسطنطينية تركه بالقاهرة واشتراه المنصور قلاون من القاضي بحكم البيع على الغائب بألف درهم، وكان يعرف بلاشين الصغير لأنه كان هناك لاشين اخر أكبر منه، وكان نائبا

بحمص. ولما قتل اجتمع الأمراء، وفيهم ركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار أستاذ دار وحسام الدين لاشين الرومي، وقد وصل على البريد من بلاد سيس جمال الدين أقوش الأفرم وقد عاد من دمشق بعد أن أخرج النائب والعساكر إلى حمص وعز الدين أيبك الخزندار وبدر الدين السلحدار فضبطوا القلعة. وبعثوا إلى الناصر محمد بن قلاون بالكرك يستدعونه للملك فاعتزم طقجي على الجلوس على التخت، واتفق وصول الأمراء الذين كانوا بحلب منصرفين من غزاة سيس، وفيهم سيف الدين كرجي وشمس الدين سرقنشاه، ومقدمهم بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح فأشار الأمراء على طقجي بالركوب للقائهم فأنف أولا، ثم ركب ولقيهم وسألوه عن السلطان فقال قتل فقتلوه. وكان كرجي عند القلعة فركب هاربا وأدرك عند القرافة وقتل، ودخل بكتاش والأمراء القلعة لحول من غزاة سيس. ثم اجتمعوا بمصر وكان الأمر دائرا بين سلار وبيبرس وأيبك الجامدار وأقوش الأفرم وبكتمر أمير جندار وكرت الحاجب وهم ينتظرون وصول الناصر من الكرك، وكتبوا إلى الأمراء بدمشق بما فعلوه فوافقوا عليه، ثم قبضوا على نائبها جاغان الحسامي. وتولى ذلك بهاء الدين قرا أرسلان السيفي فاعتقل ومات لأيام قلائل فبعث الأمراء بمصر مكانه سيف الدين قطلوبك المنصوري. ثم وصل الناصر محمد بن قلاون إلى مصر في جمادى سنة ثمان وتسعين فبايعوا له وولى سلار نائبا وبيبرس أستاذ دار وبكتمر الجو كندار أمير جندار وشمس الدين الأعسر وزيرا، وعزل فخر الدين بن الخليلي بعد أن كان أقره، وبعث على دمشق جمال الدين أقوش الأفرم عوضا عن سيف الدين قطلوبك، واستدعاه إلى مصر فولاه حاجبا وبعث على طرابلس سيف الدين كرت وعلى الحصون سيف الدين كراي، وأقر بليان الطباخي على حلب، وأفرج عن قراسنقر المنصوري وبعثه على الضبينة، ثم نقله إلى حماة عندما وصله وفاة صاحبها المظفر آخر السنة، وخلص على الأمراء وبث العطايا والأرزاق. واستقر في ملكه وبيبرس وسلار مستوليان عليه، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

الفتنة مع التتر:

قد كنا قدمنا ما كان من فرار قفجق نائب دمشق إلى غازان وحدث الوحشة بين المملكتين فشرع غازان في تجهيز العساكر إلى الشام، وبعث شلامش بن امال بن بكو في خمسة وعشرين ألفا في عساكر المغل، ومعه أخوه قطقطو وأمره بالمسير من جهة سيس فسار لذلك. ثم حدثته نفسه بالملك فخاضع وطلب الملك لنفسه، وكاتب ابن قزمان أمير التركمان فسار إليه في

عشرة آلاف فارس. وسار في ستين ألف فارس وسار إلى سيواس فامتنت عليه، وكتب إلى صاحب مصر مع مخلص الرومي يستنجده فبعث إلى نائب دمشق بإنجاده، وبلغ الخبر غازان فبعث لقتاله مولاي من أمراء التتر في خمسة وثلاثين ألف فارس، ولحقه إلى سيواس فانتقض عليه العسكر ورجع التتر إلى مولاي. ولحق التركمان بالجمال، ولحق هو بسيس في فل من العسكر، وسار إلى دمشق ثم إلى مصر، وسأل من السلطان لاشين أن يمدّه بعسكر ينقل به عياله إلى الشام فأمر السلطان نائب حلب أن ينجده على ذلك فبعث معه عسكرا عليهم بكتمر الحلبي، وساروا إلى سيواس فاعترضهم التتر وهزموهم وقتل الحلبي، ونجا شلامش إلى بعض القلاع، فاستنزله غازان وقتله، واستقر أخوه قطقطو ومخلص بمصر، وأقطع لهما وانتظما في عسكر مصر، والله تعالى أعلم.

واقعة التتر مع الناصر واستيلاء غازان على الشام

ثم ارتجاعه منه:

قد كنا قدمنا ما حدث من الوحشة بين التتر وبين الترك بمصر، وقدمنا من أسبابها ما قدمناه. فلما بويع الناصر بلغه أن غازان زاحف إلى الشام فتجهز وقدم العساكر مع قطلبك الكبير وسيف الدين غزار. وسار على أثرهم آخر سنة ثمان وسبعين وانتهى إلى غزة فنمي إليه أن بعض المماليك مجمعون للتوثب عليه، وأن الأربدانية الذين وفدوا من التتر على كييغا داخلوهم في ذلك. وبينما هو يستكشف الخبر إذ بمملوك من أولئك قد شهر سيفه واخترق صفوف العسكر وهم مصطفىون بظاهر غزة فقتل لحينه، وتتبع أمرهم من هذه البادرة حتى ظهرت جليتها فسبق الأربدانية ومقدمهم طرنتاي، وقتل بعض المماليك وحبس الباقيين بالكرك. ورحل السلطان إلى عسقلان ثم إلى دمشق. ثم سار ولقي غازان ما بين سلمية وحمص بمجمع المروج ومعه الكرج والأرمن، وفي مقدمته أمراء الترك الذين هربوا من الشام وهم قفجق المنصوري وبكتمر السلحدار وفارس الدين البكي وسيف الدين غزار، فكانت الجولة منتصف ربيع فانهزمت ميمنة التتر وثبت غازان. ثم حمل على القلب فانهزم الناصر، واستشهد كثير من الأمراء، وفقد حسام

الدين قاضي الحنفية وعماد الدين إسماعيل ابن الأمير، وسار غازان إلى حمص فاستولى على الذخائر السلطانية. وطار الخبر إلى دمشق فاضطربت العامة وثار الغوغاء، وخرج المشيخة إلى غازان يقدمهم بدر الدين بن جماعة وتقي الدين بن تيمية وجلال الدين القزويني. وبقي البلد فوضى وخاطب المشيخة غازان في الأمان فقال قد خالفكم إلى بلدكم

كتاب الأمان. ووصل جماعة من أمراءه فيهم إسماعيل ابن الأمير والشريف الرضي وقرأ كتاب الأمان ويسمونه بلغاتهم الفرمان. وترجل الأمراء بالبساتين خارج البلد وامتنع علم الدين سلحدار بالقلعة فبعث إليه إسماعيل يستنزله بالأمان فامتنع فبعث إليه المشيخة من أهل دمشق فزاد امتناعا ودمشق ودس إليه الناصر بالتحفظ. وأن المدد على غزة ووصل قفجق بكتمر فنزلوا الميدان، وبعثوا إلى سنجر صاحب القلعة في الطاعة فأساء جوابهم وقال لهم: إن السلطان وصل وهزم عساكر التتر التي اتبعته. ودخل قفجق إلى دمشق فقرأ عهد غازان له بولاية دمشق والشام جميعا، وجعل إليه ولاية القضاء وخطب لغازان في الجامع، وانطلقت أيدي العساكر في البلد بأنواع جميع العيث، وكذا في الصالحية والقرى التي بها والمزة وداريا. وركب ابن تيمية إلى شيخ الشيوخ نظام الدين محمود الشيباني. وكان نزل بالعادية فأركبه معه إلى الصالحية وطردوا منها أهل العيث، وركب المشيخة إلى غازان شاكين فمنعوا من لقائه حذرا من سطوته بالتتر فيقع الخلاف ويقع وبال ذلك على أهل البلد. فرجعوا إلى الوزير سعد الدين ورشد الدين فأطلقوا لهم الأسرى والسبي.

وشاع في الناس أن غازان أذن للمغل في البلد وما فيه ففزع الناس إلى شيخ الشيوخ وفرضوا على أنفسهم أربعمئة ألف درهم مصانعة له على ذلك وأكروهوا على كرمها بالضرب والحبس حتى كملت. ونزل التتر بالمدرسة العادية فأحرقها ارجواش نائب القلعة ونصب المنجنيق على القلعة بسطح جامع بني أمية فأحرقوه فأعيد عمله. وكان المغل يحرسونه فانتهكوا حرمة المسجد بكل محرّم من غير استثناء، وهجم أهل القلعة فقتلوا النجار الذي كان يصنع المنجنيق وهدم نائب القلعة ارجواش ما كان حولها من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة، وطلبوا ما لا يقدرون عليه، وامتحن القضاء والخطباء وعطلت الجماعات والجمعة، وفحش القتل والسبي، وهدمت دار الحديث وكثير من المدارس. ثم قفل إلى بلده بعد أن ولي على دمشق والشام قفجق، وعلى حماة وحمص بكتمر السلحدار، وعلى صفد وطرابلس والساحل فارس الدين البكي، وخلف نائبه قطلوشاه في ستين ألف حامية للشام واستصحب وزيره بدر الدين بن فضل الله

وشرف الدين ابن الأمير وعلاء الدين بن القلانسي. وحاصر قطلوشاه القلعة فامتنت عليه فاعتزم على الرحيل، وجمع له قفجق الأوغاد في جمادى من السنة، وبقي قفجق منفردا بأمره فأمن الناس بعض الشيء، وأمر مماليكه ورجعت عساكر التتر من اتباع الترك بعد أن وصلوا إلى القدس وغزة والرملة واستباحوا ونهبوا، وقائدهم يومئذ مولاي من أمراء التتر فخرج إليه ابن تيمية واستوهبه بعض الأسرى فأطلقهم. وكان الملك الناصر لما وصل إلى القلعة ووصل معه كييغا العادل، وكان حضر

معه المعركة من محلّ نيابته بصرخد. فلما وقعت الهزيمة سار مع السلطان إلى مصر وبقي في خدمة النائب سلار، وجرد السلطان العساكر وبث النفقات وسار إلى الصالحية وبلغه رحيل غازان من الشام. ووصل إليه بليان الطباخي نائب حلب على طريق طرابلس، وجمال الدين الأفرم نائب دمشق وسيف الدين كراي نائب طرابلس. واتفق السلطان في عساكرهم، وبلغه أن قطلوشاه نائب غازان رحل من الشام على أثر غازان فتقدم بيبرس وسار في العساكر، ووقعت المراسلة بينه وبين قفجق ويكتمر والبيكى فأذعنوا للطاعة، ووصلوا إلى بيبرس وسلار فبعثوا بهم إلى السلطان وهو في الصالحية في شعبان من السنة فركب للقائهم وبالغ في تكريمهم والإتطاع لهم. وولى قفجق على الشويك، ورحل عائداً إلى مصر. ودخل بيبرس وسلار إلى مصر وقرروا في ولايتها جمال الدين أقوش الأفرم بدمشق، وفي نيابة حلب قراسنقر المنصوري الجوكندار لاستعفاء بليان الطباخي عنها وفي طرابلس سيف الدين قطلبك، وفي حماة كيبغا العادل، وفي قضاء دمشق بدر الدين بن جماعة لوفاة إمام الدين بن سعد الدين القزويني. وعاد بيبرس وسلار إلى مصر منتصف شوال، وعاقب الأفرم كل من استخدم للتتر من أهل دمشق. وأغزى عساكره جبل كسروان والدرزية لما نالوا من العسكر عند الهزيمة، وألزم أهل دمشق بالرمية وحمل السلاح. وفرضت على أهل دمشق ومصر الأموال عن بعث الخيالة والمسكن لأربعة أشهر وضمنان للقري وكثر الأرجاف سنة سبعمائة بحركة التتر فتوجه السلطان إلى الشام بعد أن فرض على الرعية أموالاً، واستخرجها لتقوية عساكره. وأقام بظاهر غزة أياماً يؤلف فيها الأمصار. ثم بعث ألفي فارس إلى دمشق، وعاد إلى مصر منسلخ ربيع الآخر. وجاء غازان بعساكره وأجفلت الرعايا أمامه حتى ضاقت بهم السبل والجهات فنزل ما بين حلب ومرس ونازلها، واكتسح البلاد إلى أنطاكية وجبل السمير، وأصابهم هجوم البرد وكثرة الأمطار والوحل، وانقطعت الميرة عنهم، وعدمت الأقوات وصوحت المراعي من كثرة الثلج، وارتحلوا إلى بلادهم. وكان السلطان قد جهز العساكر كما قلنا إلى الشام صحبة بكتمر السلحدار نائب صفد، وولى مكانه سيف الدين فنحاص المنصوري. ثم وقعت المراسلة

بين السلطان الناصر وبين غازان وجاءت كتبه، وبعث الناصر كتبه ورسله
وولى السلطان على حمص فارس الدين البكي، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة الحاكم وولاية ابنه المستكفي

والغزاة إلى العرب بالصعيد:

ثم توفي الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، وهو الذي ولاه الظاهر وباع له

سنة ستين

فتوفي سنة إحدى وسبعمئة لإحدى وأربعين سنة من خلافته، وقد عهد لابنه أبي الربيع سليمان فبايع له الناصر ولقبه المستكفي، وارتفعت شكوى الرعايا في الصعيد من الأعراب، وكثر عيْثهم فجهز إليهم السلطان العساكر مع شمس الدين قراسنقر فاكْتسحهم. وراجعوا الطاعة وقرر عليهم مالا حملوه ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، وألف فرس واحدا وألْفِي جمل اثنين، وعشرة آلاف من الغنم. وأظهروا الإستكانة، ثم أظهروا النفاق فسار إليهم كافل المملكة سلار وبيبرس في العساكر فاستلحموهم وأبادوهم، وأصابوا أمواله ونعمهم ورجعوا. وأستأذن بيبرس في قضاء فرضه فخرج حاجا وكان أبو نمي أمير مكة قد توفي، وقام بأمره في مكة ابنه رميثة وخميصة، واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث فنقبا السجن وجاءا إلى بيبرس مستعدين على أخويهما فقبض عليهما بيبرس، وجاء بهما إلى القاهرة. وفي سنة ستين وسبعمئة بعدها خرجت الشواني مشحونة بالمقاتلة إلى جزيرة أرواد في بحر طرطوس، وبها جماعة من الإفرنج قد حصنوها وسكنوها فملكوها وأسروا أهلها وخربوها وأذهبوا آثارها والله تعالى ولي التوفيق.

تقرير العهد لأهل الذمة

حضر في سنة سبعمئة وزير من المغرب في عرض الرسالة فرأى حال

أهل الذمة

وترفهم وتصرفهم في أهل الدولة فنكره وقبح ذلك، واتصل بالسلطان نكيره فأمر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها أهل الذمة بمقتضى عهد المسلمين لهم عند الفتح وأجمع الملاء فيهم على ما نذكر وهو أن يميز بين أهل الذمة بشعار يخصهم: فالنصارى بالعمائم السود، واليهود بالصفرة، والنساء منهن بعلامات تناسبهن. وأن لا يركبوا فرسا ولا يحملوا سلاحا، وإذا ركبوا الحمير يركبونها عرضاً ويتنحون وسط الطريق، ولا يرفعوا

أصواتهم فوق صوت المسلمين، ولا يعلوا بناءهم على بناء المسلمين، ولا يظهروا شعائرهم ولا يضربوا بالنواقيس، ولا ينصروا مسلماً ولا يهودوه، ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ولا من سبابة مسلم، ولا من جرت عليه سهام المسلمين. ومن دخل منهم الحمام يجعل في عنقه جرساً يتميز به. ولا ينقشوا فص الخاتم

بالعربي، ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يخدموا في أعمالهم الشاقة مسلماً. ولا يرفعوا النيران. ومن زنى منهم بمسلمة قتل. وقال البترك، بحضرة العدول حرمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة ذلك والعدول عنه. وقال رئيس اليهود: أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي وكتب بذلك إلى الأعمال. ولنذكر في هذا الموضوع نسخة كتاب عمر بالعهد لأهل الذمة بعد كتاب نصارى الشام ومصر ونصه: هكذا كتاب لعبد لله عمر امير المؤمنين من نصارى أهل الشام ومصر، لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذراريها وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا على أنفسنا أن لا تحدث في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا عليّة ولا صومعة راهب، ولا نجد ما خرب منها ولا ما كان في خطط. وأن نوسع أبوابنا للمارة ولبنى السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم عيباً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذي قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أرادوه. وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتسمى بأسمائهم ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية. وأن نجزم مقدم رؤسنا، ونكرم نزيلنا حيث كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا، ولا نفتح كنفنا في طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانيننا ولا طواغيتنا. ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا نطلع في منازلهم ولا نعلي منازلنا. فلما أتى عمر بالكتاب زاد فيه. ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطنا لكم علينا وضمناه على أنفسنا وأهل ملتنا فلا ذمة لنا عليكم، وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق. فكتب عمر رضي الله عنه أمض ما سألوه، وألحق فيه حرفاً اشترطه عليهم مع ما

اشترطوه، من ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده. وعلى أحكام هذا الكتاب جرت فتاوى الفقهاء في أهل الذمة نصاً وقياساً. وأما كنائسهم فقال أبو هريرة أمر عمر بهدم كل كنيسة استحدثت بعد الهجرة، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام. وسير عروة بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء، وصالح القبط على كنائسهم وهدم بعضها، ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل الهجرة. وفي إباحة رمها وإصلاحها لهم خلاف معروف بين الفقهاء، والله تعالى ولي التوفيق.

إيقاع الناصر بالتمر على شقحب:

ثم تواترت الأخبار سنة اثنتين وسبعمئة بحركة التتر؛ وأن قطلوشاه وصل إلى جهة الفرات، وأنه قدم كتابه إلى نائب حلب بأن بلادهم محلة، وأنهم يرتادون المراعي بنواحي الفرات فخادع بذلك عن قصده ويوهم الرعية أن يجفلوا من البسائط. ثم وصلت الأخبار بإجازتهم الفرات فأجفل الناس أمامهم كل ناحية، ونزل التتر مرعش. وبعث العساكر من مصر مدداً لأهل الشام فوصلوا إلى دمشق، وبلغهم هنالك أن السلطان قازان وصل في جيوش التتر إلى مدينة الرحبة ونازلها فقدم نائبها قري وعلوفة واعتذر له بأنه في طاعته إلى أن يرد الشام، فإن ظفر به فالرحبة أهون شيء وأعطاه ولده رهينة على ذلك فأمسك عنه، ولم يلبث أن عبر الفرات راجعاً إلى بلاده. وكتب إلى أهل الشام كتاباً مطولاً يندرهم فيه أن يستمدوا عسكر السلطان أو يستجيشوه ويخادعهم بلين القول وملاطفته، وتقدم قطلوشاه وجوبان إلى الشام بعساكر التتر يقال في تسعين ألفاً أو يزيدون. وبلغ الخبر إلى السلطان فقدم العساكر من مصر وتقدم بيبرس كافل المملكة إلى الشام، والسلطان وسلار على أثره ومعهم الخليفة أبو الربيع. وساروا في التعبية. ودخل بيبرس دمشق، وكان النائب بحلب قراسنفر المنصوري، وقد اجتمع إليه كبيغا العادل نائب حماة وأسد الدين كرجي نائب طرابلس بمن معهم من العساكر فأغار التتر على القريتين، وبها أحياء من التركمان كانوا أجفلوا أمامهم من الفرات فاستاقوا أحياءهم بما فيها واتبعهم العساكر من حلب فأوقعوا بهم واستخلصوا أحياء التركمان من أيديهم. وزحف قطلوشاه وجوبان بجموعهما إلى دمشق يظنان أن السلطان لم يخرج من مصر، والعساكر والمسلمون مقيمون بمرج الصفر وهو المسمى بشقحب مع ركن الدين بيبرس، ونائب دمشق أقوش الأفرم ينتظرون وصول السلطان فارتابوا لزحف التتر وتأخروا عن مراكزهم قليلاً، وارتاعت الرعايا من تأخرهم فأجفلوا إلى نواحي مصر. وبينما هم كذلك إذ وصل السلطان في عساكره وجموعه غرة رمضان من السنة فرتب مصافه وخرج لقصدهم فالتقى الجمعان بمرج الصفر، وحمل التتر على ميمنة السلطان فثبت الله

أقدامهم وصابروهم إلى أن غشيهم الليل، واستشهد جماعة في الجولة. ثم انهزم التتر ولجؤا إلى الجبل يعتصمون به، واتبعهم السلطان فأحاط بالجبل إلى أن أطل الصباح. وشعر المسلمون باستماتتهم فأفرجوا لهم من بعض الجوانب، وتسلسل معظمهم مع قطلوشاه وجوبان، وحملت العساكر الشامية على من بقي منهم

فاستلحموهم وأبادوهم. وأتبعَت الخيول آثار المنهزمين، وقد اعترضتهم الأحوال بما كان السلطان قدم إلى أهل الأنهار بين أيديهم فبثقوها، ووحلت خيولهم فيها فاستوعبوهم قتلاً وأسراً. وكتب السلطان إلى قازان بما يجدد عليه الحسرة ويملاً قلبه رعباً، وبعث البشائر إلى مصر. ثم دخل إلى دمشق وأقام بها عيد الفطر، وخرج لثالثه منها إلى مصر فدخلها آخر شوال في موكب حفل ومشهد عظيم، وقر الإسلام بنصره، وتيمن بنقيب نوابه، وأنشده الشعراء في ذلك. وفي هذه السنة توفي كيغيا العادل نائب حماة، وهو الذي كان ولي الملك بمصر كما تقدم ذكره فدفن بدمشق. وتوفي أيضاً بليان الجو كندار نائب حمص. وتوفي أيضاً القاضي تقي الدين بن دقيق العيد بمصر لولايته ست سنين بها، وولي مكانه بدر الدين بن جماعة. وهلك قازان ملك التتر، يقال أصابته حمى حادة للهزيمة التي بلغته فهلك وولي أخوه خربندا. وفيها أفرج السلطان عن رميثة وحميصة ولدي الشريف أبي نمي، وولاهما بدلاً من أخويهما عطيفة وأبي الغيث، والله تعالى أعلم.

أخبار الأرمن

أخبار الأرمن وغزو بلادهم وإدعائهم الصلح

ثم مقتل ملكهم صاحب سيس علم يد التتر

قد كان تقدم لنا ذكر هؤلاء الأرمن، وأنهم وإخوتهم الكرج من ولد قويل بن ناحور بن آزر، وناحور أخو إبراهيم عليه السلام. وكانوا أخذوا بدين النصرانية قبل الملة وكانت مواطنهم أرمينية، وهي منسوبة إليهم. وقاعدتها خلاط وهي كرسي ملكهم ويسمى ملكهم النكفور. ثم ملك المسلمون بلادهم وضربوا الجزية على من بقي منهم، واختلف عليهم الولاة ونزلت بهم الفتنة، وخربت خلاط فانتقل ملكهم إلى سيس عند الدروب المجاورة لحلب، وانزوا إليها وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين. وكان ملكهم لعهد نور الدين العادل قليج بن اليون، وهو صاحب ملك الدروب، واستخدم للعادل وأقطع له، وملك المصيصة وأردن وطرسوس من يد الروم. وأبقاه صلاح الدين بعد العادل نور الدين على ما كان عليه من الخدمة. وغدر في بعض السنين بالتركمان فغزاهم صلاح الدين، وأخنى عليهم حتى أذعنوا ورجع إلى حاله من أداء الجزية والطاعة وحسن الجوار بثغور حلب. ثم ملكها لعهد الظاهر هيثوم بن قسطنطين بن يانس، ويظهر أنه من أعقاب قليج أو من أهل بيته. ولما ملك هلاكو العراق والشام دخل هيثوم في طاعته وأقره على سلطانه، وأجلب مع التتر في غزواتهم على الشام. وغزا سنة اثنتين وستين صاحب بلاد الروم من التتر، واستنفر معه بني كلاب من أعراب حلب. وعاثوا في نواحي عنتاب. ثم ترهب هيثوم بن قسطنطين ونصب ابنه ليون للملك. وبعث الظاهر العساكر سنة أربع وستين، ومعه قلاون المنصور صاحب حماة إلى بلادهم فلقاهم ليون في جموعه قبل الدربند فانهزم وأسر وخرب العساكر مدينة سيس. وبذل هيثوم الأموال والقلاع في فداء ابنه ليون فشرط عليه الظاهر أن يستوهب سنقر الأشقر وأصحابه من أبغا بن هلاكو. وكان هلاكو أخذهم من سجن حلب فاستوهبهم وبعث بهم، وأعطى خمساً من القلاع منها: رغبان ومرزبان لما توفي هيثوم سنة تسع وستين. وملك بعده ابنه ليون وبقي الملك في عقبه. وكان بينهم وبين الترك نفرة

واستقامة لقرب جوارهم من حلب. والترك يرددون العساكر إلى بلادهم حتى أجابوا بالصلح على الطاعة والجزية، وشحنة التتر مقيم عندهم بالعساكر من قبل شحنة بلاد الروم. ولما توفي ليون ملك بعده ابنه هيثوم، ووثب عليه أخوه سنباط فخلعه وحبسه بعد أن سمل عينه الواحدة، وقتل أخاهما الأصغر يروس. ونازلت عساكر الترك لعهد

قلعة حموض من قبل العادل كييفا فاستضعف الأرمن سنباط وهموا به فلقق بالقسطنطينية وقدموا عليهم أخاه رندين فصالح المسلمين وأعطاهم مرعش، وجميع القلاع على جيحان، وجعلوها تخما، ورجعت العساكر عنهم. ثم أفرج رندين عن أخيه هيثوم الأور سنة تسع وستين فأقام معه قليلاً ثم وثب برندين ففر إلى القسطنطينية. وأقام هيثوم بسيس في ملك الأرمن، وقدم ابن أخيه تروس معسول أتابكا، واستقامت دولته فيهم. وسار مع قازان في وقعته مع الملك الناصر فعاث الأرمن في البلاد، واستردوا بعض قلاعهم، وخرّبوا تل حمدون. فلما هزم الناصر التتر سنة إثنين وسبعمئة بعث العساكر إلى بلادهم فاسترجعوا القلاع وملكوا حمص واكتسحوا بسائط سيس وما إليها، ومنع الضريبة المقررة عليهم فأنقذ نائب حلب قراسنقر المنصوري سنة سبع وستمئة العساكر إليهم مع أربعة من الأمراء فعاثوا في بلادهم. واعترضهم شحنة التتر بسيس فهزموهم وقتل أميرهم وأسر الباقون. وجهاز العساكر من مصر مع بكتاش الفخري أمير سلاح من بقية البحرية، وانتهوا إلى غزة، وخشي هيثوم مغبة هذه الحادثة فبعث إلى نائب حلب بالجزية التي عليهم لسنة خمس وقبلها. وتوسل بشفاعته إلى السلطان فشفعه وأمنه، وكان شحنة التتر ببلاد الروم لهذا العهد أرفلي، وكان قد أسلم لما أسلم أباغ، وبنى مدرسة بإذنه وشيد فيها مئذنة. ثم حدث بينه وبين هيثوم صاحب سيس وحشة فسعى فيه هيثوم عند خريندا ملك التتر بأنه مداخل لأهل الشام، وقد واطأهم على ملك سيس وما إليها وشهد له بالمدرسة والمئذنة وكتب بذلك إلى أرفلي بعض قرابته فأسرّها في نفسه، واغتاله في صنيع دعاه إليه. وقبض على وافد من ممالك التتر كان عند هيثوم من قبل نائب حلب يطلب الجزية المقررة عليه، وهو أيدغدي الشهرزوري. ولم يزل في سجن التتر إلى أن فر من محبسه بتوريز سنة عشر وسبعمئة. ونصب لملك سيس أوشني بن ليون، وسار أرفلي إلى خريندا بفسابقه ألتاق أخو هيثوم بنسائه وولده مستعدين عليه فتفجع لهم خريندا وسط أرفلي وقتله وأقر أوشين أخاه في ملكه لسيس، فبادر إلى مراسلة الناصر بمصر، وتقرير الجزية عليه كما كانت وما زال يبعثها مع الأحيان، والله تعالى أعلم.

مراسلة ملك المغرب ومهاداته:

كان ملك المغرب الأقصى من بني مرين المتولين أمره من بعد الموحدين، وهو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد بعث إلى السلطان الناصر سنة أربع وسبعمائة رسوله علاء الدين أيدغدي الشهرزوري من الشهرزورية المقرين هنالك أيام الظاهر بيبرس، ومعه هدية حافلة من الخيل

والبغال والإبل وكثير من ماعون المغرب وسائر طرفه، وجملة من الذهب العين في ركب عظيم من المغاربة ذاهبين لقضاء فرضهم. فقابلهم السلطان بأبلغ وجوه بالتكريمة، وبعث معهم أميراً لإكرامهم وقراهم في طريقهم حتى قضوا فرضهم، وعاد الرسول أيدغدي المذكور من حجه سنة خمس فبعث السلطان معه مكافأة هديتهم بما يليق بها من النفاسة وعين لذلك أميرين من بابه: أيدغدي البابلي وأيدغدي الخوارزمي كل منهما لقبه علاء الدين فانتهوا إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان كما هو في ربيع الآخر سنة ست فقابلهم بما يجب لهم ولمرسلهم، وأوسع لهم في الكرامة والحباء، وبعثهم إلى ممالكه بفاس ومراكش ليتطوفا بها وبعائنا مسرتها. وهلك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصار تلمسان، وإنطلق الرسولان المذكوران من فاس راجعين من رسالتهما في رجب سنة سبع في ركب عظيم من أهل المغرب اجتمعوا عليهم لقصد الحج، ولقوا السلطان أبا ثابت الجزولي من بعد يوسف بن يعقوب في طريقهم فبالغ في التكرمة والإحسان إليهم. وبعث إلى مرسلهم الملك الناصر بهدية أخرى من الخيل والبغال والإبل. ثم مروا بتلمسان، وبها أبو زيان وأبو حمو ابنا عثمان بن يغمراسن فلم يصرفا إليهما وجهاً من القبول، وطلبياً منهما خفير يخفرهما إلى تخوم بلادهما لما كانت نواحي تلمسان قد اضطربت بعد مهلك يوسف بن يعقوب، وما كان من شأنه فبعث معهما بعض العرب فلم يغن عنهم، واعترضهم في طريقهم أشرار حصن من زغبة بنواحي المرية فبالغوا في الدفاع فلم يغن عنهم. واستولى الأشرار على الركب بما فيه، ونهبوا جميع الحجاج ورسل الملك الناصر معهم. وخلصوا برؤوسهم إلى الشيخ بكر بن زغلي شيخ بني يزيد بن زغبة بوطن حمزة بنواحي بجاية، فأوصلهم إلى السلطان بجاية أبي البقاء خالد من ولد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص من ملوك أفريقية فكساهم وحملهم إلى حضرة تونس، وبها السلطان أبو عصيدة محمد بن يحيى الواثق من بني عمه فبالغ في تكريمهم. وسافر معهم إبراهيم بن عيسى من بني وسنار احد أمراء بني مرين كان أميراً على الغزاة بالأندلس، وخرج لقضاء فرضه فمر بتونس واستنهنه سلطانها على الإفرنج بجزيرة جربة، فسار إليها بقومه ومعه عبد

الحق بن عمر بن رحو من أعيان بني مرين. وكان الشيخ أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني يحاصرها في عسكر تونس فأقام معهم مدة. ثم استوحش أبو يحيى اللحياني من سلطانه بتونس فلحق بطرابلس وساروا جميعاً إلى مصر، وتقدم السلطان بإكرامهم حتى قضوا فرضهم وعادوا إلى المغرب. واستمد أبو يحيى اللحياني السلطان الناصر فأمده بالأموال والمماليك، وكان سبباً لإستيلائه على الملك بتونس كما نذكره في أخباره أن شاء الله تعالى.

وحشة الناصر من كافليه بيبرس وسلار ولحاقه

بالكرك وخلعه والبيعة لبيبرس:

ثم عرضت وحشة بين السلطان الناصر وبين كافليه بيبرس وسلار سنة سبع فامتنع

من العلامة على المراسم، وترددت بينه وبينهم السعاة بالعتاب، وركب بعض الأمراء في ساحة القلعة من جوف الليل، ودافعهم الحامية وافترقوا. وامتنع السلطان لذلك وإزداد وحشة. ثم سعى بكتمر الجوكندار في إصلاح الحال، وحمل السلطان على تغريب بعض الخواص من مماليكه إلى القدس. وكان بيبرس ينسب إليهم هذه الفتنة ونشأتها من أجلهم ففر بهم السلطان وأعتب الأميرين. ثم أعيد الموالي من القدس إلى محلهم من خدمتهم، واتهم السلطان الجوكندار في سعايته فسخطه وأبعده وبعثه نائباً عن صفد. ثم غص بما هو فيه من الجحر والإستبداد، وطلب الحج فهجره بيبرس وسلار، وسار على الكرك سنة ثمان. وودعه الأمراء واستصحب بعضاً منهم. فلما مرّ بالكرك دخل القلعة، وأخرج النائب جمال الدين أقوش الأشرف إلى مصر، وبعث عن أهله وولده كانوا مع المحمل الحجازي فعادوا إليه من العقبة وصرف الأمراء الذين توجهوا معه، وأظهر الإنقطاع بالكرك للعبادة، وأذن لهم في إقامة من يصلح لأمرهم فاجتمعوا بدار النيابة، وتشاوروا واتفقوا على أن يكون بيبرس سلطاناً عليهم، وسلار على نيابته. وبايعوا بيبرس في شوال سنة ثمان، ولقبوه المظفر. وقلده الخليفة أبو الربيع، وكتب للناصر بناية الكرك، وعينت له إقطاع يختص بها. وقام سيف الدين سلار بالنيابة على عادة من قبله، وأقر أهل الوظائف والرتب على مراتبهم. وبعث أهل الوظائف بطاعتهم واستقر بيبرس في سلطانه، والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير بيبرس وعود الناصر إلى ملكه:

ولما دخلت سنة تسع هرب بعض موالي الناصر فلحقوا بالكرك، وقلق الظاهر بيبرس المظفر وبعث في أثرهم فلم يدركوهم، واتهم آخرون فقبض عليهم، ونشأت الوحشة لذلك. واتصلت المكاتبة من الأمراء الذين

بالشام إلى السلطان بالكرك، وخرج من مكانه يريد النهوض إليهم. ثم رجع ووصل كتاب نائب دمشق أقوش الأفرم فسكن الحال، وبعث الجاشنكير بيبرس إلى السلطان برسالة مع الأمير علاء الدين مغلطاي أيدغلي وقلوبغا تتضمن الأرجاف فثارت لها حفائظه، وعاقب الرسولين، وكاتب أمراء الشام يتظلم من بيبرس وأصحابه بمصر ويقول:

سلمت لهم في الملك ورضيت بالضنك رجاء الراحة فلم يرجعوا عني، وبعثوا إلى بالوعيد وإنهم فعلوا ما فعلوا بأولاد المعز أيبك وبيبرس الظاهر ومثل ذلك من القول، ويستجدهم ويمت إليهم بوسائل التربية والعتق في دفاع هؤلاء عنه، وإلا لحقت ببلاد التتر. وبعث بهذه الرسالة مع بعض الجند كان مستخدماً بالكرك من عهد أقوش الأشرفي، وأقام هنالك وكان مولعاً بالصيد فاتصل بالسلطان في مصيده. وبث إليه ذات يوم شكواه فقال: أنا أكون رسولك إلى أمراء الشام فبعث إليهم بهذه الرسالة فامتعضوا وأجابوه بالطاعة كما يجب منهم. وسار السلطان إلى البلقاء، وأرسل جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق إلى مصر فأخبر الجاشنكير ببيبرس بالحال، واستمده بالعساكر للدفاع فبعث إليه بأربعة آلاف من العساكر مع كبار الأمراء، وأزاح علهم وأنفق في سائر العساكر بمصر، وكثر الأرجاف وشغبت العامة، وتعين ممالك السلطان للخروج إلى النواحي إسترابة بمكانهم. ووصل الخبر برجوع السلطان من البلقاء إلى الكرك لرأي رآه، واستراب لرجعته سائر أصحابه وحاشيته. وخاف أن يهجمهم عساكر مصر بما كان يشاع عندهم من اعتزام ببيبرس على ذلك. ثم دس السلطان إلى ممالكه وشيع إليهم فأجابوه، وأعاد الكتاب إلى نواب الشام: مثل شمس الدين اقسنقر نائب حلب، وسيف الدين نائب حمص فأجابوه بالسمع والطاعة، وبعث نائب حلب ولده إليه واستنهضوه للوصول فخرج من الكرك في شعبان سنة تسع، ولحق به طائفة من أمراء دمشق. وبعث النائب أقوش أميرين لحفظ الطرقات فلحقا بالسلطان. وكتب ببيبرس الجاشنكير إلى نواب الشام بالوقوف مع جمال الدين أقوش نائب دمشق والإجتماع على السلطان الناصر عن دمشق فأعرضوا ولحقوا بالسلطان وسار أقوش إلى البقاع والشقيف، واستأمن إلى السلطان فبعث إليه بالأمان مع أميرين من أكابر أمراءه. وسار إلى دمشق فدخلها وهي خالصة يومئذ لسيف الدين بكتمر أمير جامدار جاءه من صفد وهاجر إلى خدمته فتلقيه وجزاه أحسن الجزاء. ثم وصل أقوش الأفرم فتلقيه السلطان بالمبرة والتكرمة، وأقره على نيابة دمشق. واضطربت أمور الجاشنكير بمصر، وخرجت طائفة من ممالك السلطان هاربين إلى الشام فسرح في أثرهم العساكر فأدركوهم،

ونال الهاربون منهم قتلاً وجراحة ورجعوا، وثاب العامة والغوغاء وأحاصوا بالقلعة وجأهروا بالخلعان. وقبض على بعضهم وعوقب فلم يزدهم إلا عتوا وتحاملا. وارتاب الجاشنكير لحاله، واجتمع الناس للحلف، وحضر الخليفة وجدد عليه وعليهم الحلف، وبعث نسخة البيعة لتقرأ بالجامع يوم الجمعة فصاح الناس بهم وهموا أن يحصوهم على المنابر، فرجع إلى النفقة وبذل المال، واعتزم على المسير إلى الشام. وقدم

أكابر الأمراء فلحقوا بالسلطان، وزاد اضطراب بيبرس وخرج السلطان من دمشق منتصف رمضان، وقدم بين يديه أميرين من أمراء غزة فوصلها، واجتمعت إليه العرب والتركمان وبلغ الخبر إلى الجاشنكير فجمع إليه شمس الدين سلار وبدر الدين بكتوت الجو كندار وسيف الدين السلحدار، وفاوضهم في الأمر فرأوا أن الخرق قد إتسع، ولم يبق إلا البدار بالرغبة إلى السلطان أن يقطعه الكرك أو حماة أو صهيون، ويتسلم السلطان ملكه فأجمعوا على ذلك، وبعثوا بيبرس الدوادار وسيف الدين بهادر بعد أن أشهد الجاشنكير بالخلع، وخرج من القلعة إلى أطفح بمماليكه فلم يستقر بها، وتقدم قاصداً أسوان واحتمل ما شاء من المال والذخيرة، وخيول الإصطبل. وقام بحفظ القلعة صاحبه سيف الدين سلار، وكاتب السلطان يطالعه بذلك، وخطب للسلطان على المنابر ودعي باسمه على المآذن، وهتف باسمه العامة في الطرقات. وجهاز سلار سائر شعار السلطنة ووصلت رسل الجاشنكير إلى السلطان بما طلب فأسعفه بصهيون وردهم إليه بالأمان والولاية، ووافى السلطان عيد الفطر بالبركة ولقيه هنالك سيف الدين سلار وأعطاه الطاعة. ودخل السلطان إلى القلعة، وجلس باقي العيد بالإيوان جلوساً فخماً، واستخلف الناس عامة. وسأله سلار في الخروج إلى إقطاعه فأذن له بعد أن خلع عليه فخرج ثالث شوال، وأقام ولده بباب السلطان. ثم بعث السلطان الأمراء إلى أخميم فاتتزعوا من الجاشنكير ما كان احتمله من المال والذخيرة وأوصلوها إلى الخزائن ووصل معهم جماعة من مماليكه كانوا أمراء، واختاروا الرجوع إلى السلطان. وولى السلطان سيف الدين بكتمر الجو كندار أمير جاندار نائباً بمصر، وقراسنقر المنصور نائباً بدمشق. وبعث نائبها الأفرم نائباً بصرخد، وسيف الدين بهادر نائباً بطرابلس، وخرجوا جميعاً إلى الشام. وقبض السلطان على جماعة من الأمراء ارتاب بهم، وولى على وزارته فخر الدين عمر بن الخليلي عوضاً عن ضياء الدين أبي بكر ثم إنصرف بيبرس الجاشنكير متوجهاً إلى صهيون وبها بهادر بها الأشجعي موكل به إلى حيث قصد، ورجع عنه الأمراء الذين كانوا عنده إلى السلطان فاستضاف بعضهم إلى مماليكه، واعتقل بعضهم. ثم بدا للسلطان في أمره، وبعث إلى

قراسنقر وبهادر، وهما مقيمان بغزة، ولم ينفصلا إلى الشام أن يقبضا عليه
فقبضا عليه وبعثا به إلى القلعة آخر ذي القعدة فاعتقل ومات هنالك، والله
تعالى ولي التوفيق.

خبر سلار ومآل أمره:

لما إنتقل السلطان الناصر إلى ملكه بمصر، وكان لسلا ر من السعي في أمره وتمكين سلطانه ما ذكرناه، وكانت له ذمة عند السلطان يعتني برعيها له. وكانت الشويك من إقطاعه فرغب إلى السلطان في المسير إليها والتخلي فيها فأذن له، وخلص عليه وزاده في إقطاعه وماليكه، واتبعه مائة من الطواشية بإقطاعهم. وسار من ما عمر إلى الشويك في شوال سنة ثمان وسبعمائة. ثم بعث له داود المقصور بالكرك مضافاً إلى الشويك وباللواء وبخلعة مذهبة ومركب ثقيل ومنطقة مجوهره وأقام هنالك فلما كانت سنة عشر بعدها نمي إلى السلطان عن جماعة من الأمراء أنهم معتزمون على الثورة وفيهم أخو سلار فقبض عليهم جميعاً وعلى شيع سلار وحاشيته الذين بمصر وبعث علم الدين الجوالي لإستقدامه من الكرك تأنيساً له وتسكيناً فقدم في ربيع من السنة واعتقل إلى أن هلك في معتقله واستصفيت أمواله وذخائره بمصر والكرك، وكانت شيئاً لا يعبر عنه من الأموال والفصوص واللالىء والأقمصة والدروع والكراع والإبل. ويقال أنه كان يغلّ كل يوم من أقطاعه وضياعه ألف دينار. وأما أوليته فإنه لما خلا من أسر التتر صار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور قلاون، ولما مات صار لأبيه قلاون، ثم لابنه الأشرف، ثم لأخيه محمد بن الناصر. وظهر في دولهم كلها، وكان بينه وبين لاشين مودة فاستخدم له وعظم في دولته متقرباً في المراكب متحرراً لمحبة السلطان إلى أن إنقرض أمره. ويقال أنه لما إحتضر في محبسه قيل له قد رضي عنك السلطان فوثب قائماً ومشى خطوات ثم مات، والله أعلم.

انتقاض النواب بالشام ومسيرهم

إلى التتر وولاية تنكز على الشام:

كان قفجق نائب حلب قد توفي بعد أن ولاه السلطان فنقل مكانه إلى حلب الكرجي من حماة سنة عشر فتظلم الناس منه فقبض عليه، ونقل إليها قراسنقر المنصوري من نياية دمشق، وولى مكانه بدمشق سيف الدين

كراي المنصوري سنة إحدى عشرة. ثم سخطه واعتقله، وولى مكانه بدمشق جمال الدين أقوش الأشرفي نقله إليها من الكرك.

وتوفي بها محمد نائب طرابلس فنقل إليها أقوش الأفرم من صرخد. ثم قبض على بكتمر الجو كندار نائب مصر وحبسه بالكرك، وجعل مكانه في الثانية بيبرس الدوادر. ثم ارتاب قراسنقر نائب حلب فهرب إلى البرية واجتمع مع مهنا بن عيسى، ويقال أنه استأذن السلطان في الحج فأذن له فلما توسط البرية استوعرها فرجع فمنعه الأمراء الذين بحلب من دخولها إلا بإذن السلطان، فرجع إلى الفرات وبعث مهنا بن عيسى شافعا له عند السلطان فقبله وردة إلى نياية حلب. ثم بلغ السلطان أن خربندا ملك التتر زاحف إلى الشام فجهز العساكر من مصر وتقدم إلى عساكر الشام بأن يجتمعوا معهم بحمص فارتاب قراسنقر، وخرج من حلب وعبر الفرات، ثم راجع نفسه واستأمن السلطان على أن يقيم - بالفرات فأقطعه السلطان الشويك يقيم بها فلم يفعل، وبقي بمكان من الفرات مع مهنا بن عيسى. ثم ارتاب جماعة من الأمراء فلحقوا به، وفيهم أقوش الأفرم نائب طرابلس، وأمضوا عزمهم على اللحاق بخربندا فوصلوا إلى ماردين فتلقاهم صاحبها بالكرامة. وحمل إليهم تسعين ألف درهم ورتب لهم الأتاوات. ثم ساروا إلى خلاط إلى أن جاءهم إذن خربندا فساروا إليه واستحثوه للشام. وبلغ الخبر إلى السلطان فأتهم الأمراء الذين في خدمته بالشام بمداخلة قراسنقر وأصحابه فاستدعاهم وعساكرهم، وبعث على حلب سيف الدين مكان قراسنقر، وعلى طرابلس بكتمر الساقي مكان أقوش. وبعث على العرب فضل بن عيسى مكان أخيه مهنا. ووصل الأمراء إلى مصر فقبض عليهم جميعاً وعلى أقوش الأشرفي نائب دمشق وولى مكانه تنكز الناصري سنة إثنى عشرة، وجعل له الولاية على سائر الممالك الإسلامية. وقبض على نائبه بمصر بيبرس الدوادر وحبسه بالكرك وولى مكانه أرغون الدوادر وعسكر بظاهر القلعة. وإرتحل بعد عيد الفطر من السنة فلقبه الخبر أثناء طريقه بأن خربندا وصل إلى الرحبة ونازلها، وإنصرف عنها راجعاً فانكفأ السلطان إلى دمشق، وفرق العساكر بالشام. ثم سار إلى الكرك واعتزم على قضاء فرضه تلك السنة وخرج حاجا من الكرك. ورجع سنة ثلاث عشرة إلى الشام، وبعث إلى مهنا بن عيسى يستميله وعاد الرسول بامتناعه. ثم

لحق سنة ست عشرة بخريندا وأقطعه بالعراق وأقام هنالك فلم يرجع إلا
بعد مهلك خريندا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

رجوع حماة إلى بني المظفر شاهنشاه بن أيوب

ثم لبني الأفضل منهم وإنقراض أمرهم :

قد كان تقدم لنا أن حماة كانت من أقطاع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، أقطعه إياها عمه صلاح الدين بن أيوب سنة أربع وسبعين وخمسماية، فلم تزل بيده إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وخمسماية، فأقطعها ابنه ناصر الدين محمداً ولقبه المنصور. وتوفي سنة سبع عشرة وستماية بعد عمه صلاح الدين والعاقل فولياها ابنه قليح أرسلان، ويلقب الناصر سنة ست وعشرين، وكان أخوه المظفر ولي عهد أبيه عند الكامل بن العادل فجهزة بالعساكر من دمشق وملكها من يد أخيه، وأقام بها إلى أن هلك سنة ثلاث وأربعين وولى ابنه محمد ويلقب المنصور، ولم يزل في ولايتها إلى أن سار يوسف بن العزيز ملك الشام من بني أيوب هارباً إلى مصر أيام التتر، فسار معه المنصور صاحب حماة وأخوه الأفضل.

ثم خشي من التتر بمصر فرجع إلى هلاكو، واستمر المنصور إلى مصر فأقام بها. وملك هلاكو الشام وقتل الناصر وسائر بني أيوب كما مرّ. ثم سار قطز إلى الشام عندما رجع هلاكو عنه عندما شغل عنه بفتنة قومه فارتجعه من ملكة التتر، وولى على قواعده وأمصاره، ورد المنصور إلى حماة فلم يزل والياً عليها. وحضر واقعة قلاون على التتر بحمص سنة ثلاثين، وكان يتردد إلى مصر سائر أيامه ويخرج مع البعوث إلى بلاد الأرمن وغيرها. ويعسكر مع ملوك مصر متى طلبوه لذلك. ثم توفي سنة ثلاث وثمانين وأقر قلاون ابنه المظفر على ما كان أبوه، وجرى هو معهم على سننه إلى أن توفي سنة ثمان وتسعين عندما بوع الناصر محمد بن قلاون بعد لاشين، وانقطع عقب المنصور فولى السلطان عليها قراسنقر من أمراء التتر، نقله إليها من الضيئة وأمره باستقرار بني أيوب وسائر الناس على إقطاعهم. ثم كان استيلاء قازان على الشام، ورجوعه سنة تسع وتسعين ومسير بيبرس وسلار، وانتزاع الشام من التتر. وكان كيغا العادل الذي ملك مصر وخلعه لاشين نائباً بصرخد فجلا في هذه الوقائع وتنصح لبيبرس وسلار، وحضر معهم بدمشق فولوه على حماة. وغزا بالعساكر بلاد الأرمن، وحضر

هزيمة التتر مع الناصر سنة إثنيتين وسبعمائة فرجع إلى حماة فمات بها. وولى السلطان بعده سيف الدين قفجق، استدعاه إليها من أقطاعه بالشوبك. وكان الأفضل علاء الدين أخو المنصور صاحب حماة توفي أيام أخيه المنصور، وخلف ولداً اسمه إسماعيل ولقبه عماد الدين، ونشأ في دولتهم عاكفا على العلم والأدب حتى توفر منهما حظه، وله كتاب في التاريخ مشهور. ولما رجع السلطان الناصر من الكرك إلى كرسية وسطا ببيرس وسلار، راجع نظره في الإحسان إلى أهل هذا البيت، واختار منهم عماد الدين إسماعيل هذا،

وولاه على حماة مكان قومه سنة ست عشرة وسبعمائة. وكان عند رجوعه إلى ملكه قد ولى نيابة حلب سيف الدين قفجق وجعل مكانه بحماة أيدير الكرجي. وتوفي قفجق فنقل أيدير من حماة إلى حلب مكانه، وولى إسماعيل على حماة كما قلنا ولقبه المؤيد، ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة إثنين وثلاثين. وولى الناصر ابنه الأفضل محمد برغبة أبيه إلى السلطان في ذلك. ثم مات الملك الناصر في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين، وقام بعده بالأمر مولاه قوص، ونصب ابنه أبا بكر محمدا فكان أول شيء أحدثه عزل الأفضل من حماة. وبعث عليها مكانه صقر دمولى النائب، وسار الأفضل إلى دمشق فمات بها سنة إثنين وأربعين، وإنقضت إيالة بني أيوب من حماة، والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه.

غزو العرب بالصعيد وفتح ملطية وآمد:

ثم خرج السلطان سنة ثلاث عشرة فعسكر بالأهرام مورياً بالنزهة، وقد بلغه ما نزل بالصعيد من عيث العرب وفسادهم في نواحيه وأضرارهم بالسابلة، فسرح العساكر في كل ناحية منه، وأخذ الهلاك منهم مأخذه إلى أن تغلب عليهم واستباحهم من كل ناحية وشرد بهم من خلفهم. ثم سرح العساكر سنة أربع عشرة بعدها إلى ملطية وهي للأرمن وملكها عنوة. وسار لذلك تنكر نائب دمشق بعساكر الشام وستة من أمراء مصر ونازلوها في محرم سنة خمس عشرة، وبها جموع من نصارى الأرمن والعربان وقليل من المسلمين تحت الجزية فقاتلوهم حتى ألقوا باليد، واقتحموها عنوة واستباحوها وجاءوا بملكها مع الأسرى فأبقاه السلطان وأنعم عليه. ثم نمى عنه أنه يكاتب ملوك العراق فحبسه. ثم بعث السلطان العساكر من حلب سنة خمس عشرة إلى عرقية من أعمال آمد ففتحوها، وجاءت العساكر سنة سبع عشرة ثانية إلى آمد ففتحوها واستباحوها وغنموا منها أموالاً جمة. والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

الولايات

وفي سنة خمس عشرة سخط السلطان سيف الدين نمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقوش إلى الأفرم وأمده به، وسيق معتقلاً إلى

مصر، وولى مكانه سيف الدين كستاي. ثم هلك فولى مكانه شهاب الدين قرطاي نقله إليها من نيابة حمص، وولى نيابة حمص سيف الدين أقطاي، ثم قبض سنة ثمان عشرة على طغاي الحسامي من الجاشنكيرية، وصرف نائباً إلى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فأحضره معتقلاً وحبسه بالإسكندرية. وبعث على صفد سيف

الدين أقطاي، نقله إليها من حمص، وبعث على حمص بدر الدين بكتوت القرماني والله تعالى أعلم.

العمائر

ابتدأ السلطان سنة إحدى عشرة وسبعمائة ببناء الجامع الجديد بمصر وأكمّله، ووقف عليه الأوقاف المغلة. ثم أمر سنة أربع عشرة ببناء القصر الأبلق من قصور الملك ف جاء من أ فخر المصانع الملوكية. وفي سنة ثمان عشرة أمر بتوسعة جامع القلعة فهدم ما حوله من المساكن، وزيد فيه إلى الحد الذي هو عليه بهذا العهد. ثم أمر في سنة ثلاث وعشرين بعمارة القصور لمنازله بسرباقوس، وبنى بإزائها الخانقاه الكبيرة المنسوبة إليه. وفي سنة ثلاث وثلاثين أمر بعمارة الإيوان الضخم بالقلعة، وجعله مجلس ملكه وبيت كرسيه ودعاه دار العدل. والله تعالى أعلم.

حجّات السلطان:

وحجّ الملك الناصر محمد بن قلاوون في أيام دولته ثلاث حجّات أولاً: سنة ثلاث عشرة عند ما إنقرض قراسنفر نائب حلب، وأقوش الأفرم نائب طرابلس، ومهنا بن عيسى أمير العرب. وجاء خربندا إلى الشام ورجع من الرحبة فسار السلطان من مصر إلى الشام، وبلغه رجوع خربندا فسار من هناك حاجاً، وقضى فرضه سنة ثلاث عشرة ورجع إلى الشام. ثم حجّ الثانية سنة تسع عشرة، ركب إليها من مصر في أواخر ذي القعدة، ومعه المؤيد صاحب حماة، والأمير محمد ابن أخت علاء الدين ملك الهند صاحب دلى ولما قضى حجه إنطلق الأمير محمد ابن أخت علاء الدين من هناك إلى اليمن، ورجع إلى مصر فأفرج عن رميثة أمير مكة من بني حسن، وعن المعتقلين بمحبسه، ووصله و وصلهم. ثم حجّ الثالثة سنة إثنين وثلاثين، ومعه الأفضل بن المؤيد صاحب حماة على عادة أبيه في مراكبة السلطان، وقفل من حجه سنة ثلاث وثلاثين فأمر بعمل باب الكعبة مصفحاً بالفضة، أنفق فيه خمسة وثلاثين ألف درهم. وفي منصرفه من هذه الحجة مات بكتمر الساقى من أعظم أمرائه وخواصه، ويقال أنه سمه، وهو من ممالك بيبرس الجاشنكير. وانتقل إلى الناصر فجعله أمير السقاة، وعظمت منزلته

عنده ولطفت خلته حتى كانا لا يفترقان، إما في بيت السلطان وإما في بيته. وكان حسن السياسة في الغاية وخلف بعد وفاته من الأموال والجواهر والذخائر ما يفوت الحصر، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

أخبار النوبة وإسلامهم:

قد تقدم لنا غزو الترك إلى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاون، لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم وقررها الملوك بعد ذلك. وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من أدائها فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا. وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاون إليها سنة ثمانين وستمائة، واسمه سامون. ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آي، لا أدري أكان معاقباً لسامون أو توسط بينهما متوسط. وتوفي آي سنة ست عشرة وسبعمائة، وملك بعده في دنقلة أخوه كرييس. ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إلى مصر اسمه نشلي، وأسلم فحسن إسلامه، وأجرى له رزقاً وأقام عنده. فلما كانت سنة ست عشرة أمتنع كرييس من أداء الجزية فجهز السلطان إليه العساكر، وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم، فخام كرييس عن لقاءهم وفر إلى بلد الأبواب. ورجعت العساكر إلى مصر، واستقر نشلي في ملك النوبة على حاله من الإسلام. وبعث السلطان إلى ملك الأبواب في كرييس فبعث به إليه وأقام بباب السلطان. ثم أن أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بممالة جماعة من العرب سنة تسع، وبعثوا عن كرييس ببلد الأبواب فألفوه بمصر. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها وإنقطعت الجزية بإسلامهم. ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملأوها عيثاً وفساداً. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا. ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم، وثار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تملك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم، واستولى أعراب جهينة على بلادهم، وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض، فصاروا شيعاً لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وإنما هم الآن رجالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب. ولم يبق في بلادهم رسم للملك لما أحلته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والإلتحام، والله غالب على أمره، والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

بقية أخبار الأرمن إلى فتح أياس ثم فتح
سيس وإنقراض أمرهم:

قد كنا قدمنا أخبار الأرمن إلى قتل ملكهم هيثوم على يد أيدغدي شحنة

التربلاد

الروم

سنة سبع، واستقرار الملك بسيس لأخيه أوسير بن ليون. وكان بينه وبين قزمان ملك التركمان مصاف سنة تسع عشرة فهزمه قزمان، ولم يزل أوسير بن ليون ملكاً عليهم إلى سنة إثنيتين وسبعين فهلك ونصبوا للملك بعده ابنه ليون صغيراً ابن إثنتي عشرة سنة. وكان الناصر قد طلب أوسير أن ينزل له عن القلاع التي تلي الشام فاتسع وجهاز إليه عساكر الشام فاكتسحوا بلاده وخربوها، وهلك أوسير على أثر ذلك. ثم أمر الناصر كييفا نائب حلب بغزو سيس فدخل إليها بالعساكر سنة ست وثلاثين، واكتسح جهاتها وحصر قلعة النكير وافتتحها. وأسر من الأرمن عدة يقال بلغوا ثلثمائة، وبلغ خبرهم إلى النصارى بإياس فثاروا بمن عندهم من المسلمين وأحرقوهم غضبا للأرمن لمشاركتهم في دين النصرانية. ولم يثبت أن بعث إلى السلطان دمرداش بن جوبان شحنة المغل ببلاد الروم يعرفه بدخوله في الإسلام، ويستنفر عساكره لجهاد نصارى الأرمن فأسعفه بذلك، وجهاز إليه عساكر الشام من دمشق وحلب وحماة سنة سبع وثلاثين ونازلوا مدينة أياص ففتحوها وخربوها، ونجا فلهم إلى الجبال فاتبعتهم عساكر حلب وعادوا إلى بلادهم. ثم سار سنة إحدى وستين بدمر الخوارزمي نائب حلب لغزو سيس ففتح أذنة وطرطوس والمصيصة، ثم قلعتي كلال والجريدة وسنباط كلا وتمرور. وولى نائبين في أذنة وطرطوس، وعاد إلى حلب، وولى بعده على حلب عشقيم النصارى فسار سنة ست وسبعين، وحصر سيس وقلعتها شهرين إلى أن نفذت أقواتهم. وجهدهم الحصار فاستأمنوا ونزلوا على حكمه فخرج ملكهم النكفور وأمراؤه وعساكره إلى عشقيم فبعث بهم إلى مصر، واستولى المسلمون على سيس وسائر قلاعها، وانقرضت منها دولة الأرمن، والبقاء لله وحده إنتهى.

الصلاح مع ملوك التتر وصهر الناصر مع ملوك

الشمال منهم:

كان للتتر دولتان مستفحلتان إحداهما دولة بني هلاكو آخذ بغداد والمستولي على كرسي الإسلام بالعراق، وأصارها هو وبنوه كرسياً لهم. ولهم مع ذلك عراق العجم وفارس وخراسان وما وراء النهر، ودولة بني

دوشي خان بن جنكز خان بالشمال متصلة إلى خوارزم بالمشرق إلى القرم و حدود القسطنطينية بالجنوب، وإلى أرض بلغار بالمغرب. وكان بين الدولتين فتن وحروب كما تحدث بين الدول المجاورة، وكانت دولة الترك بمصر والشام مجاورة لدولة بني هلاكو، وكانوا يطمعون في ملك الشام ويرددون الغزو إليه مرة بعد أخرى، ويستميلون أولياءهم وأشياعهم من العرب والترکمان فيستظهرون بهم عليهم كما رأيت ذلك في أخبارهم. وكانت

بين ملوكهم من الجانبين وقائع متعددة، وحروبهم فيها سجال، وربما غلبوا من الفتنة بين دولة دوشي وبين بني هلاكو. ولبعدهم عن فتنة بني دوشي خان لتوسط الممالك بين مملكتهم ومملكة مصر والشام فتقع لهم الصاغية إليهم، وتتجدد بينهم المراسلة والمهاداة في كل وقت، ويستحث ملك الترك ملك صراي من بني دوشي خان لفتنة بني هلاكو والأجلاب عليهم في خراسان وما إليها من حدود مملكتهم ليشغلوهم عن الشام، ويأخذوا بحجزتهم عن النهوض اليه. وما زال دأبهم من أول دولة الترك. وكانت رغبة بني دوشي خان في ذلك أعظم، يفتخرون به على بني هلاكو. ولما ولي صراي أنبك من بني دوشي خان ثلاث عشرة، وكان نائباً ببلاد الروم قطلغمير، وفدت عليه الرسل من مصر على العادة فعرض لهم قطلغمير بالصهر مع السلطان الناصر ببعض نساء ذلك البيت، على شرطية الرغبة من السلطان في ظاهر الأمر، والتمهل منهم في إمضاء ذلك. وزعموا أن هذه عادة الملوك منهم ففعل السلطان ذلك، وردد الرسل والهدايا أعواماً ستة إلى أن استحكم ذلك بينهم، وبعثوا إليه بمخطوبته طلبناش بنت طغاجي بن هند وابن بكر بن دوشي سنة عشرين، مع كبير المغل وكان مقلداً يحمل على الأعناق، ومعهم جماعة من أمرائهم، وبرهان الدين أمام أزيك ومروا بالقسطنطينية فبالغ لشكري في كرامتهم. يقال أنه أنفق عليهم ستين ألف دينار، وركبوا البحر من هناك إلى الإسكندرية. ثم ساروا بها إلى مصر محمولة على عجلة وراء ستور من الذهب والحريير يجرها كديش يقوده إثنان من مواليها في مظهر عظيم من الوقار والتجلة. ولما قاربوا مصر ركب للقائهم النائبان أرغون وبكتمر الساقي في العساكر وكريم الدين وكيل السلطان، وأدخلت الخاتون إلى القصر، واستدعى ثالث وصولها القضاء والفقهاء وسائر الناس على طبقاتهم إلى الجامع بالقلعة، وحضر الرسل الوافدون عندهم بعد أن خلع عليهم. وإنعقد النكاح بين وكيل السلطان ووكيل أزيك، وإنفض ذلك المجمع وكان يوماً مشهوداً. ووصلت رسل أبي سعيد صاحب بغداد والعراق سنة اثنتين وعشرين وفيهم قاضي توريز يسألون الصلح، وانتظام الكلمة واجتماع اليد على إقامة معالم الإسلام من الحج وإصلاح السابلة وجهاد العدو، فأجاب السلطان إلى ذلك، وبعث سيف

الدين أيتمش المحمدي لأحكام العقد معهم وامتضاء إيمانهم فوجهه لذلك
بهدية سنوية، وعاد سنة ثلاث وعشرين ومعه رسل أبي سعيد، ومعه جوبان
لمثل ذلك فتم ذلك وانعقد بينهم. وقد كانت قبل ذلك تجددت الفتنة بين أبي
سعيد وصاحب سراي نفرة من أربك صاحب سراي من تغلب جوبان على
أبي سعيد وفتكه في المغل. وكانت بين جوبان وبين سبول صاحب خوارزم
وما وراء النهر فتنة ظهر فيها أربك

وأمدّه بالعساكر، فاستولى أزيك على أكثر بلاد خراسان، وطلب من الناصر بعد الإلتحام بالصهر المظاهرة على أبي سعيد وجوبان فأجابهُ إلى ذلك. ثم بعث إليه أبو سعيد في الصلح كما قلناه فأثر وعقد له. وبلغ الخبر إلى أزيك ورسَل الناصر عنده فأغلظ في القول، وبعث بالعتاب. واعتذر له الناصر بأنهم إنما دعوهُ لإقامة شعائر الإسلام، ولا يسع التخلّف عن ذلك فقبل. ثم وقعت بينه وبين أبي سعيد مراوضة في الصلح بعد أن استرد جوبان ما ملكه أزيك من خراسان، فتوادع كل هؤلاء الملوك واصطلحوا ووضعوا أوزار الحرب حيناً من الدهر، إلى أن تقلبت الأحوال وتبدلت الأمور، والله مقلب الليل والنهار.

مقتل أولاد بني نمى أمراء مكة من بني حسن:

قد تقدم لنا استيلاء قتادة على مكة والحجاز من يد الهواشم واستقرارها لبنيه إلى أن استولى منهم أبو نمى، وهو محمد بن أبي سعيد علي بن قتادة. ثم توفي سنة إثنين وسبعمئة وولي مكانه ابنه رميثة وخميصة، واعتقلا أخويهما عطيفة وأبا الغيث ولما حج الأميران كافلا المملكة ببيرس وسلار هربا إليهما من مكان إعتقالهما وشكيا ما نالهما من رميثة وخميصة فأشكاهما الأميران واعتقلا رميثة وخميصة وأوصلاههما إلى مصر، ووليا عطيفة وأبا الغيث، وبعثا بهما إلى السلطان صحبة الأمير أيذر الكوكبي الذي جاء بالعساكر معهما. ثم رضي السلطان عنهما وولاهما مكان رميثة وخميصة وبعث معهما العساكر ثانياً سنة ثلاث عشرة، وفر رميثة وخميصة عن البلاد، ورجع العسكر. وأقام أبو الغيث وعطيفة فرجع إليهما رميثة وخميصة، وتلاقوا فانهزم أبو الغيث وعطيفة فسارا إلى المدينة في جوار منصور بن حماد فأمدهما ببني عقبة وبني مهدي، ورجع إلى حرب رميثة وخميصة فاقتلوا ثانياً ببطن مرو فانهزم أبو الغيث وقتل. واستمر رميثة وخميصة، ولحق أخوهما عطيفة وسار معهما. ثم تشاجروا سنة خمس عشرة، ولحق رميثة بالسلطان مستعدياً على أخويه فبعث معه العساكر، ففر خميصة بعد أن استصفى أهل مكة وهرب إلى السبعة مدن، ولحقته العساكر فاستلحق أهل تلك المدن ولقيهم فانهزموا ونجا خميصة بنفسه. ثم رجعت العساكر فرجع وبعث رميته يستنجد السلطان فبعث إليه العساكر

ففر خميصة. ثم رجع واتفق مع أخويه رميثة وعطيفة، ثم لحق عطيفة بالسلطان سنة ثمان عشرة، وبعث معه العساكر فقبضوا على رميثة وأوصلوه معتقلا فسجن بالقلعة. واستقر عطيفة بمكة، وبقي خميصة مشرداً. ثم لحق بملك التتر ملك العراق خربندا واستنجده على ملك الحجاز فأنجده بالعساكر وشاع بين الناس أنه داخل الروافض الذين عند خربندا في

إخراج الشيخين من قبriهما، وعظم ذلك على الناس. ولقيه محمد بن عيسى أخو مهنا حسبة وامتعاضا للدين. وكان عند خربندا فأتبعه واعترضه وهزمه. ويقال أنه أخذ منه المعاول والفؤس التي أعدوها لذلك. وكان سبباً لرضا السلطان عنه. وجاء خميسة إلى مكة سنة ثمانى عشرة، وبعث الناصر العساكر إليه فهرب وتركها. ثم أطلق رميثة سنة تسع عشرة فهرب إلى الحجاز ومعه وزيره علي بن هنجس فرد من طريقه واعتقل، وأفرج عنه السلطان بعد مرجعه من الحج سنة عشرين. ثم أن خميسة استأمن السلطان سنة عشرين، وكان معه جماعة من المماليك هربوا إليه فخاموا أن يحضروا معه إلى السلطان فاغتالوه وحضروا. وكان السلطان قد أطلق رميثة من الإعتقال فأمكنه منهم فثأر من المباشر قتل أخيه، وعفا عن الباقيين. ثم صرف السلطان رميثة إلى مكة، وولاه مع أخيه عطيفة واستمرت حالهما. ووفد عطيفة سنة إحدى وعشرين على الأبواب، ومعه قتادة صاحب الينيع يطلب الصريخ على ابن عمه عقيل قاتل ولده فأجابه السلطان وجهاز العساكر لصريخه، وقوبل كل منهما بالأكراد وانصرفوا. وفي سنة إحدى وثلاثين وقعت الفتنة بمكة وقتل العبيد جماعة من الأمراء والترك فبعث السلطان أيدغمش ومعه العساكر فهرب الشرفاء والعبيد وحضر رميثة وبذل الطاعة وحلف متبرئاً مما وقع فقبل منه السلطان وعفا له عنها، واستمرت حاله على ذلك إلى أن هلك سنة... وتداولت الإمارة بين إبنيه عجلان وبقيهة. ثم استبد عجلان كما نذكره في أخبارهم وورثتها بنوه لهذا العهد كما نذكره مرتباً في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

حج ملك التكرور:

كان ملك السودان بصحراء المغرب في الإقليم الأول والثاني منقسماً بين أمم من السودان. أولهم مما يلي البحر المحيط أمة صوصو، وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الإسلام أيام الفتح وذكر صاحب كتاب رجاز في الجغرافيا أن بني صالح من بني عبد الله بن حسن بن الحسن كانت لهم بها دولة وملك عظيم، ولم يقع لنا في تحقيق هذا أكثر من هذا. وصالح من بني حسن مجهول، وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو. ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرس ملكهم بمدينة بني

ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة كوكو. ثم التكرور بعدهم، وفيما بينهم وبين
النوبة أمة كانم وغيرها. وتحولت الأحوال باستمرار العصور

فاستولى أهل مالي على ما وراءهم وبين أيديهم من بلاد صوصو وكوكو، وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور. واستفحل ملكهم إلى الغاية، وأصبحت مدينتهم بني حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين. وحج جماعة من ملوكهم. وأول من حج منهم برمندار، وسمعت في ضبطه من

بعض فضلائهم برمند أنه، وسبيله في الحج هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده. ثم حج منهم منساولي بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس. وحج بعده منهم مولاهم صاكوره، وكان تغلب على ملكهم وهو الذي افتتح مدينة كوكو. ثم حج أيام الناصر وحج من بعده منهم منسا موسى حسبما ذلك مذكور في أخبارهم عند دول البربر، عند ذكر صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم. ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج سلك على طريق الصحراء، وخرج عند الأهرام بمصر، وأهدى إلى الناصر هدية حافلة يقال أن فيها خمسين ألف دينار، وأنزله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه إياها ولقيه السلطان بمجلسه، وحدثه ووصله وزوده وقرب إليه الخيل والهجن، وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته إلى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله. وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وإنفرد بقومه عن العرب وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد، وساروا على السميت إلى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان إذا وجدوها والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا. ثم جدد السلطان له الكرامة ووسع له في الجباء، وكان أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير فنفدت كلها، وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار، وكان في صحبته منهم بنو الكويك فأقرضوه خمسين ألف دينار وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك. وبعث سراج الدين الكويك معه وزيره يرد له منه ما أقرضه من المال فهلك هنالك. وأتبعه سراج الدين آخرًا بابنه فمات هنالك. وجاء ابنه فخر الدين أبو جعفر بالبعض، وهلك منسا موسى قبل وفاته فلم يظفروا منه بشيء إنتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أنجاد المجاهد ملك اليمن:

قد تقدم لنا استبداد علي بن رسول، فملك بعد مهلك سيده يوسف أتسز بن الكامل بن العادل بن أيوب ويلقب المسعود، وكان علي بن رسول أستاذ داره ومستولياً على دولته. فلما هلك سنة ست وعشرين وستمائة نصب ابن رسول ابنه موسى الأشرف لملكه وكفله قريباً.

واستولى ابن رسول وأورث ملكه باليمن لئيبه لهذا العهد، وانتقل الأمر للمجاهر منهم علي بن داود والمؤيد بن يوسف المظفر بن عمر بن المنصور بن علي بن رسول سنة إحدى وعشرين. وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه الأشرف فظهر عليه المجاهد واعتقله. ثم انتقض عليه عمه المنصور سنة ثلاث وعشرين وحبسه، وأطلق من حبسه واعتقل عمه المنصور. وكان عبد الله الظاهر بن المنصور قائماً بأمر أبيه ومنازلة المجاهد سنة أربع وعشرين فبعث بالصريح إلى الناصر سليمان الترك بمصر، وكان هو وقومه يعطونهم الطاعة ويبعثون إليهم الأتاوة من الأموال والهدايا وطرف اليمن وما عونه، فجهزهم الناصر صحبة بيبرس الحاجب؛ وطبنال من أعظم أمرائه فساروا إلى اليمن، ولقيهم المجاهد بعدن فأصلحوا بين الفريقين على أن تكون... ويستقر المجاهد في سلطانه باليمن ومالوا على كل من كان سبباً في الفتنة فقتلوهم ودوخوا اليمن وحملوا أهله على طاعة المجاهد، ورجعوا إلى محلهم من الأبواب السلطانية، والله تعالى ولي التوفيق.

ولاية أحمد ابن الملك الناصر على الكرك:

ولما استفحل ملك السلطان الناصر واستمر وكثر ولده طمحت نفسه إلى ترشيح

ولده لتقر عينه بملكهم فبعث كبيرهم أحمد إلى قلعة الكرك سنة ست وعشرين، ورتب الأمراء المقيمين بوظائف السلطان فسار إلى الكرك وأقام بها أربع سنين ممتعاً بالملك والدولة، وأبوه قرير العين بإمارته في حياته. ثم استقدمه سنة ثلاثين وأقام فيه سنة الختان واحتفل في الصنيع له، وختن معه من أبناء الأمراء والخواص جماعة إنتقاهم ووقع إختياره عليهم. ثم صرفه إلى مكان إمارته بالكرك فأقام بها إلى أن توفي الملك الناصر وكان ما نذكره والله تعالى أعلم.

وفاة دمرداش بن جوبان شحنة بلاد الروم ومقتله:

كان جوبان نائب مملكة التتر مستولياً على سلطانه أبي سعيد بن خربندا لصغره، وكانت حاله مع أبيه خربندا قريباً من الإستيلاء فولى على

مملكة بلاد الروم دمرdash. ثم وقعت الفتنة بينهم وبين ملك الشمال أربك
من بني دوشي خان على خراسان وسار جوبان من بغداد سنة تسع
وعشرين لمدافته كما يأتي في أخبارهم. وترك عند السلطان أبي سعيد
ببغداد ابنه خواجا

دمشق فسعى به أعداؤه وأنهوا عنه قبائح من الأفعال لم يحتملها له فسطا به وقتله. وبلغ الخبر إلى أبيه جوبان فانتقض وعاجله أبو سعيد بالمشير إلى خراسان فتفرقت عنه أصحابه، وفر فأدرك بهراة وقتل. وأذن السلطان أبو سعيد لأهله أن ينقلوه إلى التربة التي إختطها بالمدينة النبوية لدفنه فاحتملوه، ولم يتوقفوا على إذن صاحب مصر فمنعهم صاحب المدينة ودفنوه بالقيع. ولما بلغ الخبر بمقتله إلى ابنه دمرداش في إمارته ببلاد الروم خشي على نفيه فهرب إلى مصر، وترك مولاه أرتق مقيماً لأمر البلد وأنزله بسيواس. ولما وصل إلى دمشق وركب النائب لتلقيه وسار معه إلى مصر فأقبل عليه السلطان وأحله محل الكرامة، وكان معه سبعة من الأمراء ومن العسكر نحو ألف فارس فأكرمهم السلطان وأجرى عليهم الأرزاق، وأقاموا عنده. وجاءت على أثره رسل السلطان أبي سعيد وطلبه بذفة الصلح الذي عقده مع الملك الناصر، وأوضحوا لعلم السلطان من فساد طويته وطوية أبيه جوبان، وسعيهم في الأرض بالفساد ما أوجب إعطائه باليد، وشرط السلطان عليهم إمضاء حكم الله تعالى في قراسنقر نائب حلب الذي كان فر سنة إثنتي عشرة مع أقوش الأفرم إلى خريندا وأغروه بملك الشام، ولم يتم ذلك. وأقاموا عند خريندا، وولى أقوش الأفرم على همذان فمات بها سنة ست عشرة فولى صاحبه قراسنقر مكانه بهمذان. فلما شرط عليهم السلطان قتله كما قتل دمرداش أمضوا فيه حكم الله تعالى وقتلوه جزاء بما كان عليه من الفساد في الأرض، والله متولي جزاءهم. ثم وصل على أثر ذلك ابن السلطان أبي سعيد، ومعه جماعة من قومه في تأكيد الصلح والإصهار من السلطان فقبلوا بالكرامة التي تليق بهم، واتصلت المراسلة والمهاداة بين هذين السلطانيين إلى أن توفيا، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفاة مهنا بن عيسى أمير العرب بالشام وأخبار

قومه:

هذا الحي من العرب يعرفون بآل فضل رحالة ما بين الشام والجزيرة،

وتربة نجد

من أرض الحجاز يتقلبون بينها في الرحلتين، وينتسبون في طيء،
ومعهم أحياء من زييد وکلب وهذيل ومذحج أحلاف لهم. وبناهضهم في
الغلب والعدد آل مراد يزعمون أن فضلاً ومراد أبناء ربيعة، ويزعمون أيضاً
أن فضلاً ينقسم ولده بين آل مهنا وآل علي، وأن آل فضل كلهم بأرض
حوران فغلبهم عليها آل مراد وأخرجوهم منها فنزلوا حمص ونواحيها.
وأقامت زييد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها. قالوا: ثم
إتصل آل فضل بالدولة السلطانية، وولوهم على أحياء العرب، وأقطعوهم
على إصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظهروا

برياستهم على آل مراد وغلبوهم على المشاتي فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريباً من التلول والقرى لا ينجعون إلى البرية إلا في الأقل. وكانت معهم أحياء من أفريق العرب مندرجون في ليفهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد، كما كان آل فضل إلا أن أكثر من كان مع آل مراد من أولئك الأحياء وأوفرهم عدة بنو حارثة بن سنبس إحدى شعوب طيء. هكذا ذكر لي الثقة عندي من رجالتهم. وبنو حارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى العمران، ورياسة آل فضل لهذا العهد لبني مهنا، وينسبونه هكذا: مهنا بن مانع بن جديلة بن فضل بن بدرين ربيعة بن علي بن مفرج بن بدرين سالم بن جصة بن بدر بن سميع، ويقفون عند سميع. ويقول رعاؤهم أن سميعاً هذا هو الذي ولدته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكي، وحاشى لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفي إنتساب كبراء العرب من طيء إلى موالي العجم من بني برمك وأنسابهم، ثم إن الوجدان يحيل رياسة هؤلاء على هذا الحي إن لم يكونوا من نسبتهم وقد تقدم مثل ذلك في مقدمة الكتاب: وكان مبدأ برياستهم من أول دولة بني أيوب. قال العماد الأصبهاني في كتاب البرق السامي: نزل العادل بمرج دمشق، ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الأعراب في جموع كثيرة إنتهى. وكانت الرياسة قبلهم لعهد الفاطميين لبني جراح من طيء، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح، وكان من إقطاعه الرملة، وهو الذي قبض على أفتكين مولى بني بويه لما إنهزم مع مولاه بختيار بالعراق، وجاء به إلى المعز فأكرمه ورقاه في دولته. ولم يزل شأن مفرج هكذا وتوفي سنة أربع وأربعمائة وكان من ولده حسان ومحمود وعلي وجران، وولي حسان بعده وعظم صيته. وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين نفرة واستجاشة وهو الذي هدم الرملة وهزم قائدهم هاروق التركي وقتله وسبى نساءه وهو الذي مدحه التهامي. وقد ذكر المسيحي وغيره من مؤرخي دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج فضل بن ربيعة بن حازم بن جراح وأخاه بدرين ربيعة. ولعل فضلا هذا جد آل فضل. وقال ابن الأثير وفضل بن ربيعة بن حازم كان آباؤه أصحاب البلقاء والبيت المقدس، وكان فضل تارة مع الإفرنج وتارة مع خلفاء مصر. ونكره لذلك طغركين أتاك

دمشق وكافل بني تتش، وطرده من الشام فنزل على صدقة بن مزيد وحالفه ووصله حين قدم من دمشق بتسعة آلاف دينار. فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملك شاه سنة خمسمائة وما بعدها، ووقعت بينهما الفتنة اجتمع فضل هذا وقرواش بن شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل، وبعض أمراء التركمان كانوا أولياء صدقة فساروا في الطلائع بين يدي الحرب وهربوا إلى السلطان

فأكرمهم وخلع عليهم: وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة ابن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة استأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجرة صدقة فأذن له، وعبر إلى الأنبار. ولم يرجع للسلطان بعدها، إنتهى كلام ابن الأثير. ويظهر من كلامه وكلام المسيحي أن فضلا هذا وبدرا من آل جراح من غير شك، ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلا هذا هو جدهم لأنهم ينسبون فضل بن علي بن مفرج، وهو عند الآخرين فضل بن علي بن جراح، فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح لطول العهد، وقلة المحافظة على مثل هذا من البادية الغفل. وأما نسبة هذا الحي في طيء فبعضهم يقول: أن الرياسة في طيء كانت لأياس بن قبيصة من بني سنبس بن عمرو بن الغوث بن طيء، وأياس هو الذي ملكه كسرى على الحيرة بعد آل المنذر عندما قتل النعمان بن المنذر، وهو الذي صالح خالد بن الوليد على الحيرة، ولم تزل الرياسة على طيء في بني قبيصة هؤلاء صدرا من دولة الإسلام. فلعل آل فضل هؤلاء وآل الجراح من أعقابهم، وإن كان إنقرض أعقابهم فهم من أقرب الحي إليه لأن الرياسة في الأحياء والشعوب، إنما تتصل في أهل العصبية والنسب كما مر أول الكتاب. وقال ابن حزم عند ما ذكر أنساب طيء أنهم لما خرجوا من اليمن نزلوا أجا وسلمى وأوطنوهما وما بينهما. ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق، وفضل كثير منهم وهم بنو خارجة بن سعد بن عبادة من طيء، ويقال لهم جديلة نسبة إلى أمهم بنت تيم الله وحبيش والأسعد إخوتهم، رحلوا عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب وحاضر طيء، وأوطنوا تلك البلاد، الأبنى رمان بن جندب بن خارجة بن سعد فإنهم أقاموا بالمجبلين. فكان يقال لأهل الجبلين الجبليون، ولأهل حلب وحاضر طيء من بني خارجة السهليون إنتهى. فلعل هذه أحياء الذين بالشام من بني الجراح، وآل فضل من بني خارجة هؤلاء الذين ذكرهم ابن حزم أنهم إنتقلوا إلى حلب، وحاضر طيء لأن هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بني الجراح بفلسطين من جبل أجا وسلمى اللذين هما موطن الآخرين. والله أعلم أي ذلك يصح من أنسابهم. ولنرجع الان إلى سرد الخبر عن رياسة آل فضل أهل هذا البيت منذ دولة بني أيوب أقول: كان الأمير منهم لعهد بني

أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما قلناه، ونقلناه عن العماد الأصبهاني الكاتب. ثم كان بعده حسام الدين مانع بن خدينة بن غصينة بن فضل، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة، وولي عليهم بعده ابنه مهنا. ولما إرتجع قطز ثالث ملوك الترك بمصر، وملك الشام من يد التتر وهزم عسكرهم بعين جالوت أقطع سلمية لمهنا بن مانع، وانتزعها من عمل المنصور بن شاهنشاه صاحب حماة، ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا. ثم ولي

الظاهر على أحياء العرب بالشام عندما استفحل أمر الترك، وسار إلى دمشق لتشجيع الخليفة الحاكم عم المستعصم لبغداد، فولى على العرب عيسى بن مهنا بن مانع ووفر له الإقطاعات على حفظ السابلة، وحبس ابن عمه زامل بن علي بن ربيعة من آل علي لإعناته وأعراضه. ولم يزل أميراً على أحياء العرب، وصلحوا في أيامه لأنه خالف أباه في الشدة عليهم. وهرب إليه سنقر الأشقر سنة تسع وتسعين، وكاتبوا أبغا واستحثوه لملك الشام. وتوفي عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاون بعده ابنه مهنا. ثم سار الأشرف بن قلاون إلى الشام ونزل حمص، ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليه وعلى ابنه موسى وأخوية محمد وفضل ابني عيسى بن مهنا، وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كييفا عندما جلس على التخت سنة أربع وتسعين، ورجع إلى إمارته. ثم كان له في أيام الناصر نفرة واستجاشة وميل إلى ملوك التتر بالعراق، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان. ولما انتقض سنقر واقوش الأفرم وأصحابهما سنة إثنى عشرة وسبعمائة لحقوا به، وساروا من عنده إلى خربندا. واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضاً عن الوفاة. ووفد أخوه فضل سنة إثنى عشرة فرعى له حق وفادته، وولاه على العرب مكان أخيه مهنا، وبقي مهنا مشرداً. ثم لحق سنة ست عشرة بخربندا ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق. وهلك خربندا في تلك السنة فرجع إلى أحيائه، وأوفد إبنه أحمد وموسى وأخاه محمد بن عيسى مستعتبين للناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم، وأنزلهم بالقصر الأبلق وشملهم بالإحسان. وأعتب مهنا ورده على إمارته وإقطاعه، وذلك سنة سبع عشرة. وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل إثنا عشر ألف راحلة. ثم رجع مهنا إلى ديدنه فلي ممالأة التتر والإجلاب على الشام وإتصل ذلك منه فنقم السلطان عليه، وسخطه قومه أجمع. وكتب إلى نواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم آل علي عديدة نسبهم. وولى منهم على أحياء العرب محمد بن أبي بكر، وصرف إقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فأقام مهنا على ذلك مدة. ثم وفد سنة إحدى وثلاثين مع الأفضل بن المؤيد صاحب حماة متوسلاً به

ومتطارحاً على السلطان فأقبل عليه ورد عليه إقطاعه وإمارته. وذكر لي بعض أكابر الأمراء بمصر ممن أدرك وفادته أو حدث عنها أنه تجافى في هذه الوفادة عن قبول شيء من السلطان، حتى أنه ساق من النياق المحلوبة واستقاها، وأنه لم يغش باب أحد من أرباب الدولة ولا سألهم شيئاً من حاجته. ثم رجع إلى أحيائه وتوفي سنة أربع وثلاثين، فولى ابنه مظفر الدين موسى. وتوفي سنة إثنين وأربعين عقب مهلك الناصر وولي مكانه أخوه سليمان. ثم هلك سليمان

سنة ثلاث وأربعين فولى مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى. ثم توفي سنة أربع وأربعين بالقدس ودفن عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، وولى مكانه أخوه سيف بن فضل. ثم عزله السلطان بمصر الكامل بن الناصر سنة ست وأربعين، وولى مكانه مهنا بن عيسى. ثم جمع سيف بن مهنا ولقيه فياض بن مهنا فانهزم سيف. ثم ولى السلطان حسين بن الناصر في دولته الأولى وهو في كفالة بيقاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم. ثم توفي سنة تسع وأربعين فولى مكانه أخوه فياض. وهلك سنة إثنين وستين فولى مكانه أخوه خيار بن مهنا ولاه حسين بن الناصر في دولته الثانية. ثم انتقض سنة خمس وستين وأقام سنين بالقفر ضاحياً إلى أن شفع فيه نائب حماة فأعيد إلى إمارته، ثم انتقض سنة سبعين فولى السلطان الأشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى، وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد، وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري فبرز إليهم وإنتهى إلى مخيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستماتوا دونها، وهزموا عساكره وقتل قشتمر وابنه في المعركة، وتولى ذلك زامل بيده، وذهب إلى القفر منتقضاً فولى مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى. ثم بعث معيقيل صاحبه سنة إحدى وسبعين يستأمن لخيار فأمنه. ثم وفد خيار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضي عنه السلطان فأعادته إلى إمارته. ثم توفي سنة سبع وسبعين فولى أخوه قارة إلى أن توفي سنة إحدى وثمانين فولى مكانه معيقيل بن فضل بن عيسى، وزامل بن موسى بن مهنا شريكين في إمارتهما. ثم عزلا لسنة من ولايتهما، وولى بصير بن جبار بن مهنا واسمه محمد، وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيء، والله تعالى أعلم.

وفاة أبي سعيد ملك العراق وانقراض أمر بني

هلاكو:

ثم توفي أبو سعيد ملك العراق من التتر ابن خربندا بن ابغو بن ابغا بن

هلاكو بن

طولي خان بن جنكز خان سنة ست وثلاثين وسبعمائة لعشرين سنة من ملكه ولم يعقب، فانقرض بموته ملك بني هلاكو. وصار الأمر بالعراق لسواهم، وافترق ملك التتر في سائر ممالكهم كما نذكر في أخبارهم. ولما استبد ببغداد الشيخ حسن من أسباطهم كثر عليه المنازعون فبعث رسله إلى الناصر قبل وفاته يستنجده، على أن يسلم له بغداد ويعطي الرهن في العساكر حتى يقضي بها في أعدائه فأجابه الناصر إلى ذلك، ثم توفي قريباً فلم يتم والأمر لله وحده.

وصول هدية ملك المغرب الأقصى مع رسله وكريمته صحبة الحاج

كان ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد استحفل لهذه العصور، وصار
للسلطان

أبي الحسن علي بن السلطان أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق جد ملوكهم، وأسف إلى ملك جيرانهم من الدول فزحف إلى المغرب الأوسط وهو في ملكة بني عبد الواد أعداء قومه من زناتة، وملكهم أبو تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن أبي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان جد ملوكهم أيضاً، وكرسيه تلمسان سبعة وعشرين شهراً. ونصب عليها المجانيق وأدار بالأسوار سياجاً لمنع وصول الميرة والأقوات إليها. وتقرى أعمالها بلداً بلداً فملك جميعها. ثم افتتحها عنوة آخر رمضان سنة سبع وثلاثين، ففض جموعها وقتل سلطانها عند باب قصره كما نذكره في أخبارهم. ثم كتب للملك الناصر صاحب مصر يخبره بفتحها وزوال العائق عن وفادة الحاج، وإنه ناظر في ذلك بما يسهل سبيلهم ويزيل علقهم. وكانت كريمة من كرائم أبيه السلطان أبي سعيد ومن أهل فراشه قد اقتضت منه الوعد بالحج عندما ملك تلمسان. فلما فتحها وأذهب عدوه منها جهاز تلك المرأة للحج بما يناسب قرابتها منه، وجهاز معها للملك الناصر صاحب مصر هدية فخمة مشتملة على خمسمائة من الجياد المغربية بعدتها وعدة فرسانها من السروج واللجم والسيوف وطرف المغرب وماعونه من شتى أصنافه، ومن ثياب الحرير والصوف والكتان وصنائع الجلد حتى ليزعموا أنه كان فيها من أواني الخزف وأصناف الدر والياقوت وما يشبههما في سبيل التودد. وعرض أحوال المغرب على سلطان المشرق. ولعظم قدر هذه الوافدة عند الناصر أوفد معها من عظماء قومه ووزرائه وأهل مجلسه فوفدوا على الناصر سنة ثمان وثلاثين، وأحلهم بأشرف محل من التكرمة، وبعث من إصطبلاته ثلاثين خطلاً من البغال يحملون الهدية من بحر النيل سوى ما تبعها من البخاتي والجمال. وجلس لهم في يوم مشهود ودخلوا عليه وعرضوا الهدية فعم بها أهل دولته

إحسانا في ذلك المجلس. واستأثر منها على ما زعموا بالدر والياقوت فقط. ثم قُرقهم في منازلهم وأنزلهم دار كرامته وقد هيئت بالفرش والمعون، ووفر لهم الجرايات واستكثر لهم من الأزودة. وبعث أمراء في خدمتهم إلى الحجاز حتى قضوا فرضهم في تلك السنة وإنقلبوا إلى سلطانهم، فجهز الناصر معهم هدية إلى ملك المغرب تشتمل على ثياب الحرير المصنوعة بالإسكندرية، وعين منها الحمل المتعارف في كل سنة لخزانة السلطان، وقيمته لذلك

العهد خمسون ألف دينار. وعلى خيمة من خيم السلطان المصنوعة بالشام فيها أمثال البيوت والقباب والكفات مرساة أطرافها في الأرض بأوتاد الحديد والخشب كأنها قباب مائلة، وعلى خيمة مؤزر باطنها من ثياب الحرير العراقية وظاهرها من ثياب القطن الصرافية مستجادة الصنعة بين الحدل والأوتاد أحسن ما يراه من البيوت وعلى صوان من الحرير مربع الشكل يقام بالحدل الحافظ ظله من الشمس. وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية بسروج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة مرصعة باللاكي والفصوص. وبعث مع تلك الجياد خدم يقومون بنبائها المتعارف فيها. ووصلت الهدية إلى سلطان المغرب فوقعت منه أحسن المواقع، وأعاد الكتب والرسل بالشكر واستحكمت المودة بين هذين السلطانين، وإتصلت المهادة إلى أن مضيا لسبيلهما، والله تعالى ولي التوفيق.

وفاة الخليفة أبي الربيع وولاية ابنه

قد ذكرنا أيام الظاهر وأنه أقام خليفة بمصر من ولد الراشد، وصل يومئذ من بغداد وإسمه أحمد بن محمد، وذكرنا نسبه هنالك إلى الراشد وأنه بويع له بالخلافة سنة ستين وستمئة، ولقبه الحاكم فلم يزل في خلافته إلى أن توفي سنة إحدى وسبعمائة وقد عهد لابنه سليمان فبايع له أهل دولة الناصر الكافلون لها. ولقبوه المستكفي فبقي خليفة سائر أيام الناصر. ثم تنكر له السلطان سنة ست وثلاثين لشيء نمي له عن بنيه فأسكنه بالقلعة، ومنعه من لقاء الناس فبقي حولا كذلك. ثم ترك سبيله ونزل إلى بيته. ثم كثرت السعاية في بنيه فغربه سنة ثمان وثلاثين إلى قوص هو وبنيه وسائر أقاربه. وأقام هنالك إلى أن هلك سنة أربعين قبل مهلك الناصر، وقد عهد بالخلافة لابنه أحمد ولقبه الحاكم فلم يمض الناصر عهده في ذلك، لأن أكثر السعاية المشار إليها كانت فيه فنصب للخلافة بعد المستكفي ابن عمه إبراهيم بن محمد ولقبه الواثق وهلك لأشهر قريبة فاتفق الأمراء بعده على إمضاء عهد المستكفي في ابنه أحمد فبايعوه سنة إحدى وأربعين. وأقام في الخلافة إلى سنة ثلاث وخمسين فتوفي وولي أخوه أبو بكر ولقب المعتضد. ثم هلك سنة ثلاث وستين لعشرة أشهر من خلافته، ونصب بعده ابنه محمد

ولقبه المتوكل ونورد من أخباره في أماكنها ما يحضرنا ذكره والله سبحانه
وتعالى أعلم بغيبه.

نكبة تنكز ومقتله

كان تنكز مولى من موالي لاشين إصطفاه الناصر وقربه، وشهد معه
وقائع التتر، وسار معه إلى

الكرك وأقام في خدمته مدّة خلعه. ولما رجع إلى كرسيه ومهد أمور ملكه ورتب الولاية لمن يرضاه من أمرائه بعث تنكز إلى الشام وجعله نائباً بدمشق ومشارفاً لسائر بلاد الروم، ففتح ملطية ودوخ بلاد الأرمن. وكان يتردد بالوفادة على السلطان يشاوره وربما استدعاه للمفاوضة في المهمات، واستفحل في دفاع التتر وكيادهم. ولما توفي أبو سعيد وانقرض ملك بني هلاكو، وافترق أمر بغداد وتورين وكانا معاً يجاورانه ويستنجدانه، وسخطه بعضهم فراسل السلطان بغشه وأدهانه في طاعته، وممالة أعدائه. وشرع السلطان في استكشاف حاله، وكان قد عقد له على بنته فبعث دواذره بإجار يستقدمه للأعراس بها، وكان عدواً له للمنافسة والغيرة فأشار على تنكز بالمقام وتخليه عن السلطان وغشه في النصيحة. وحذر السلطان منه فبعث الملك الناصر إلى طشتمر نائب صفد أن يتوجه إلى كمشق، ويقبض عليه فقبض عليه سنة أربعين لثمان وعشرين سنة لولايته بدمشق. وبعث الملك الناصر مولاه لشمك إلى دمشق في العساكر فأحاط على موجوده، وكان شيئاً لا يعبر عنه من أصناف الممتلكات، وجاء به مقيداً فاعتقل بالإسكندرية، ثم قتل في محبسه والله تعالى أعلم.

وفاة الملك الناصر وابنه أنوك قبله وولاية ابنه أبي

بكر ثم كجك

ثم توفي الملك الناصر محمد بن المنصور قلاون أمجد ما كان ملكاً وأعظم استبداداً توفي على فراشه في ذي الحجة آخر إحدى وأربعين وسبعمائة بعد أن توفي قبله بقليل ابنه أنوك فاحتسبه. وكانت وفاته لثمان وأربعين سنة من ولايته الأولى في كفالة طنبغا ولاثنين وثلاثين من حين استبداده بأمره بعد بيبرس. وصفا الملك له، وولى النيابة في هذه ثلاثة من أمرائه بيبرس الدواذار المؤرخ، ثم بكتمر الجوكندار ثم أرغون الدواذار، ولم يود أحدا النيابة بعده. وبقيت الوظيفة عطلا آخر أيامه. واما دواذارته فأيدمر ثم سلار ثم الحلبي، ثم يوسف بن الأسعد ثم بغا ثم طاجار وكتب عنه شرف الدين بن فضل الله، ثم علاء الدين بن الأمير، ثم محي الدين بن فضل الله، ثم ابنه شهاب الدين، ثم ابنه الآخر علاء الدين. وولى القضاء في دولته

تقي الدين بن دقيق العيد، ثم بدر الدين بن جماعة. وإنما ذكرت هذه الوظائف وإن كان ذلك ليس من شرط الكتاب لعظم دولة الناصر وطول أمدها، واستفحال دولة. الترك عندها، وقدمت الكتاب على القضاة وإن كانوا أحق بالتقديم، لأن الكتاب أمس بالدولة فإنهم من أعوان الملك. ولما اشتدّ المرض بالسلطان، وكان قوصون أحظى عظيم من أمرائه فبادر القصر في مماليكه

متسلحين، وكان بشتك يضايه فارتاب وسلح أصحابه، وبدا بينهما التنافس، ودس بشتك الشكوى إلى السلطان فاستدعاهما وأصلح بينهما. وأراد أن يعهد بالملك إلى قوصون فامتنع فعهد لابنه أبي بكر ومات، فمال من عماله بشتك إلى ولاية أحمد صاحب الكرك، وأبى قوصون إلا الوفاء بعهد السلطان. ثم رجع إليه بشتك بعد مراوضة فبوع أبو بكر ولقب المنصور، وقام بأمر الدولة قرصون وردفه قطلو بغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقرمرد وبعثوا على حلب طشتمر، وعلى حمص أخضر عوضاً عن طغراي، وأقروا كييغا الصالحي على دمشق. ثم استوحش بشتك من استبداد قوصون وقطلو بغا دونه فطلب نيابة دمشق، وكان يعجب بها من يوم دخلها للحوطة على. تنكر فاستعفوه. فلما جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري، وبعث به إلى الإسكندرية فاعتقل به ثم أقبل السلطان أبو بكر على لذاته ونزع عن الملك، وصار يمشي في سكك المدينة في الليل متنكراً مخالطاً للسوقة، فنكر ذلك الأمراء وخلعه قوصون وقطلو بغا لسبعة وخمسين يوماً من بيعته، وبعثوا به إلى قوص فحبس بها وولوا أخاه كجك ولقبوه الأشرف، وعزلوا طقرمرد عن النيابة. وقام بها قوصون، وبعثوا طقرمرد نائباً على حماة وأدالوا به من الأفضل بن المؤيد فكان آخر من وليها من بني المظفر، وقبضوا على طاجا الدويدار وبعثوا به إلى الإسكندرية فغرق في البحر، وبعثوا بقتل بشتك في محبسه بالإسكندرية والله تعالى ينصر من يشاء من عباده.

مقتل قوصون ودولة أحمد بن الملك الناصر

لما بلغ الخبر إلى الأمراء بالشام باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه، واعتزموا على البيعة لأحمد بن الملك الناصر، وكان يومئذ بالكرك مقيماً منذ ولاه أبوه إمارتها كما قدمناه فكاتبه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب. واستدعاه إلى الملك وبلغ الخبر إلى مصر فخرج قطلو بغا في العساكر لحصار الكرك، وبعثوا إلى طنبغا الصالحي نائب دمشق، فسار في العساكر إلى حلب للقبض على طشتمر نائب حمص، أخضر. وكان قطلو بغا الفخري قد استوحش من صاحبه قوصون، وغص باستبداده علمه فلما فصل بالجند من مصر بعث ببيعته إلى أحمد بن الملك الناصر بالكرك، وسار

إلى الشام فأقام دعوته في دمشق ودعا إليها طقمر مرد نائب حماة فأجابه
وقدم عليه، وانتهى الخبر إلى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب فأفرج
عنها، ودعاه قطلو بغا إلى بيعة أحمد فانتقض عليه أصحابه وسار إلى مصر،
واستولى قطلو بغا الفخري على الشام أجمع بدعوة أحمد. وبعث إلى
الأمراء بمصر فأجابوا إليها.

واجتمع أيدغمش وأقسنقر السلاري وغازي ومن تبعهم من الأمراء على البيعة لأحمد، واستراب بهم قوصون كافل المملكة. وهم بالقبض عليهم، وشاور طنبغا اليحياوي من عنده من أصحابه في ذلك فغضوه وخذلوه، وركب القوم ليلاً وكان أيدغمش عنده بالإصطبل وهو أمير الماصورية، وهم قوصون بالركوب فخذله وثنى عزمه. ثم ركب معهم وإتصلت الهيعة ونادى في الغوغاء بنهب بيوت قوصون فنهبها وخربوها، وخربوا الحمامات التي بناها بالقرافة تحت القلعة. ونهب شيخها شمس الدين الأصفهاني فسلبوه ثيابه، وانطلقت أيدي الغوغاء في البلد، ولحقت الناس منهم مضرات في بيوتهم. واقتحموا بيت حسام الدين الغوري قاضي الحنفية فنهبوه وسبوا عياله. وقادهم إليه بعض من كان يحنق عليه من الخصوم فجرت عليه معرة من ذلك. ثم اقتحم أيدغمش وأصحابه القلعة، وتقبضوا على قوصون وبعثوا به إلى الإسكندرية فمات في محبسه، وكان قوصون قد أخرج جماعة من الأمراء للقاء طنبغا الصاحي فسار قراسنقر السلاري في أثرهم، وتقبض عليهم وعلى الصالحي، وبعث بهم جميعاً إلى الإسكندرية فيما بعد سنة خمس وأربعين. وبعث لأحمد بن الملك الناصر وطير إليه بالخبر، وتقبض على جماعة من الأمراء واعتقلهم. ثم قدم السلطان أحمد من الكرك في رمضان سنة إثنين وأربعين ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلت وقطلو بغا الفخري، فولى طشتمر نائباً بمصر وقطلو بغا الفخري بعثه إلى دمشق نائباً. ثم قبض على أخضر لشهر أو نحوه. وقبض على أيدغمش وأقسنقر السلاري. ثم ولى أيدغمش على حلب، وبلغ الخبر إلى قطلو بغا الفخري قبل وصوله إلى دمشق فعدل إلى حلب، وأتبعته العساكر فلم يدركوه. وتقبض على أيدغمش بحلب وبعث به إلى مصر فاعتقل مع طشتمر، وإرتاب الأمراء بأنفسهم. واستوحش السلطان منهم إنتهى والله أعلم.

مسير السلطان أحمد إلى الكرك وإتفاق الأمراء علي خلعه والبيعة لأخيه الصالح

ولما استوحش الأمراء من السلطان وإرتاب بهم إرتحل إلى الكرك
لثلاثة أشهر من بيعته واحتمل معه طشتمر وأيدغمش معتقلين، واستصحب
الخليفة الحاكم واستوحش نائب صفد بيبرس الأحمدي. وسار إلى دمشق
وهي يومئذ فوضى فتلقيه العسكر وأنزلوه، وبعث السلطان في القبض عليه
فأبى من أعطاه يده. وقال إنما الطاعة لسلطان مصر، وأما صاحب الكرك
فلا. وطالت غيبة السلطان أحمد بالكرك، وإضطرب الشام فبعث إليه
الأمراء بمصر في

الرجوع إلى دار ملكه فامتنع، وقال هذه مملكتي أنزل من بلادها حيث شئت. وعمد إلى طشتمر وأيدغمش الفخري فقتلها فاجتمع الأمراء بمصر وكبيرهم بيبرس العلاني وأرغون الكامل وخلعوه، وبايعوا لأخيه إسماعيل في محرم سنة ثلاث وأربعين ولقبوه الصالح. فولى أقسنقر السلاري، ونقل أيدغمش الناصري من نيابة حلب إلى نيابة دمشق. وولى مكانه بحلب طقرمرد. ثم عزل أيدغمش من دمشق ونقل إليها طقرمرد، وولى بحلب طنبغا المارداني، ثم هلك المارداني فولى مكانه طنبغا اليحياوي واستقامت أموره، والله تعالى ولي التوفيق.

ثورة رمضان بن الناصر ومقتله وحصار الكرك ومقتل السلطان أحمد:

ثم أن بعض المماليك داخل رمضان بن الملك الناصر في الثورة بأخيه وواعده قبة النصر فركب إليهم، وأخلفوه فوقف في مماليكه ساعة يهتفون بدعوته. ثم استمر هارباً إلى الكرك وأتبعه العسكر مجدين السير في الطريق، وجاءوا به فقتل بمصر. وإرتاب السلطان بالكثير من الأمراء وتقبض على نائبه أقسنقر السلاري وبعث به إلى الإسكندرية فقتل هنالك، وولى مكانه إنجاح الملك. ثم سرح العساكر سنة أربع وأربعين لحصار الكرك مترادفة ونزع بعض العساكر عن السلطان أحمد من الكرك فلاحقوا بمصر، وكان آخر من سار من الأمراء لحصار الكرك قماري ومساري سنة خمس وأربعين فأخذوا بمخنقة. ثم اقتحموا عليه وملكوه وقتلوه فكان لبث بالملك في مصر ثلاثة أشهر وأياماً، وانتقل إلى الكرك في محرم سنة ثلاث وأربعين إلى أن حوصر ومثل به وتوفي في أيامه طنبغا المارداني نائب حلب، فولى مكانه طنبغا اليحياوي وسف الدين طراي الجاشنكير نائب طرابلس فولى مكانه أقسنقر الناصري، والله تعالى أعلم.

وفاة الصالح بن الناصر وولاية أخيه الكامل

ثم توفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر حتف أنفه سنة ست وأربعين لثلاث سنين وثلاثة أشهر من ولايته، وبويع بعده أخوه زين الدين شعبان ولقب الكامل وقام بأمره أرغون العلوي وولى نيابة مصر. وعرض

إنجاح الملك إلى صغد، ثم رده من طريقه معتقلا إلى دمشق، وبعث إلى القماري الكبير فبعثه إلى حبس الإسكندرية، واستدعى طقرمرد نائب دمشق وكجك الأشرف المخلوع بن الناصر الذي ولاه قوصون، وهلك إنجاح الملك الجوكندار في محبسه بدمشق إنتهى والله أعلم

مقتل الكامل وبيعة أخيه المظفر حاجي

كان السلطان الكامل قد أرهف حده في الإستبداد على أهل دولته فراراً مما يتوهم

فيهم من الحجر عليه، فتراسل الأمراء بمصر والشام، وأجمعوا الإدالة منهم. وانتقض طنبغا اليحياوي ومن معه بدمشق سنة سبع وأربعين، وبرز في العساكر يريد مصر. وبعث الكامل منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه اليحياوي. واتصل الخبر بالكامل فجرد العساكر إلى الشام واعتقل حاجي وأمير حسين بالقلعة، واجتمع الأمراء بمصر للثورة، وركبوا إلى قبة النصر مع أيدير الحجازي وأقسنقر الناصري وأرغون شاه فركب إليهم الكامل في مواليه، ومعه أرغون العلاوي نائبه فكانت بينهما جولة هلك فيها أرغون العلاوي ورجع الكامل إلى القلعة منهزماً، ودخل من باب السر مختفياً، وقصد محبس أخويه ليقتلها فحال الخدام دونهما وغلقوا الأبواب، وجمع الذخيرة ليحملها فعاجلوه عنها ودخلوا القلعة وقصدوا حاجي بن الناصر فأخرجوه من معتقله، وجاؤا به فبايعوه ولقبوه المظفر. وافتقدوا الكامل وتهددوا جواربه بالقتل فدلوا عليه، واعتقل مكان حاجي بالدهشة، وقتل في اليوم الثاني وأطلق حسين وقام بأمر المظفر حاجي أرغون شاه الحجازي، وولوا طقتمر الأحمدى نائباً بحلب والصلاحى نائباً بحمص، وحبس جميع موالي الكامل، وأخرج صندوق من بيت الكامل قيل إن فيه السحر فأحرق بمحضرة الأمراء، ونزع المظفر حاجي إلى الإستبداد كما نزع أخوه فقبض على الحجازي والناصرى وقتلها لأربعين يوماً من ولايته، وعلى أرغون شاه وبعثه نائباً إلى صغد. وجعل مكان طقتمر الأحمدى في حلب تدمير البدرى، وولى على نيابته الحاج أرطاي، وأرهف حده في الاستبداد. وأرتاب الأمراء بمصر والشام، وانتقض اليحياوي بدمشق سنة ثمان وأربعين وداخله نواب الشام في الخلاف. ووصل الخبر إلى مصر فاجتمع الأمراء وتواعدوا للوثوب. ونمي الخبر إلى المظفر فأركب مواليه من جوف الليل وطافوا بالقلعة، وتداعى الأمراء إلى الركوب واستدعاهم من الغد إلى القصر، وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف، وهرب بعضهم فأدرك

بساحة البلد واعتقلوا جميعاً وقتلوا من تلك الليلة. وبعث بعضهم إلى الشام فقتلوا بالطريق وولى من الغد مكانهم خمسة عشرة أميراً ووصل الخبر إلى دمشق فلاذ اليحياوي بالمغالطة يخادع بها وقبض على جماعة من الأمراء. وكان السلطان المظفر قد بعث الأمير الجبقا من خاصته إلى الشام عندما بلغه إنتقاض طنبغا اليحياوي يستطلع أخباره، فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم باليحيوي حتى قتلوه، وبعثوا برأسه إلى مصر وسكنت الفتنة واستوسق الملك للمظفر والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل المظفر حاجي بن الناصر وبيعة أخيه

حسن الناصر ودولته الأولى

قد كنا قدمنا أن السلطان بعث جبقا إلى الشام حتى مهده ومما أثر الخلاف منه،

ورجع إلى السلطان سنة ثمان وأربعين وقد استوسق أمره فوجد الأمراء مستوحشين من السلطان ومنكرين عليه اللعب بالحمام فتنصح له بذلك يريد إقلاعه عنه، فسخط ذلك منه وأمر بالحمام فذبحت كلها. وقبال لجبقا أنا أذبح خياركم كما ذبحت هذه فاستوحش جبقا وغدا على الأمراء والنائب بيقاروس وثاروا بالسلطان وخرجوا إلى قبة النصر وركب المظفر في مواليه والأمراء الذين معه قد داخلوا الآخرين في الثورة، ورأيهم واحد في خلعه فبعث إليهم الأمير شيخو يتلطف لهم فأبوا إلا خلعه فجاءهم بالخبر. ثم رجع إليهم وزحف معهم ولحق بهم الأمراء الذين مع المظفر عندما تورط في اللقاء وحمل عليه بيقاروس فأسلمه أصحابه وأمسكه باليد فذبحه في تربة أمه خارج القلعة. ودفن هناك ودخلوا القلعة في رمضان من السنة وأقاموا عامة يومهم يتشاورون فيمن يولونه حتى هم أكثر الموالى بالثورة والركوب إلى قبة النصر، فحينئذ بايعوا حسن بن الملك الناصر ولقبوه الناصر بلقب أبيه فوكل بأخيه حسين ومواليه لنفسه، ونقل المال الذي بالحوش فوضعه بالخزانة.

وقام بالدولة ستة من الأمراء وهم: شيخوا وطاز والجبقا وأحمد شادي والشرنخانا وأرغون الإسماعيلي، والمستبد عليهم جميعاً بيقاروس، ويعرف بالقاسمي فقتل الحجازي وأقسنقر القائمين بدولة المظفر بمحبسها بالقلعة. وولى بيقاروس نائباً بمصر، فكان أرقطاي وأرغون شاه نائباً بحلب مكان تدمر البدري. ثم نقله إلى دمشق منذ مقتل اليحياوي وولى مكانه بحلب أياس الناصر. ثم تقبض بيقاروس على رفيقه أحمد شادي الشرنخانا وغربه إلى صفد وأبعد الجبقا من رفقة وبعثه نائباً على طرابلس. وبعث أرغون الإسماعيلي منهم نائباً على حلب. وفي هذه السنة وقعت الفتنة بينه وبين مهنا بن عيسى، ولقيه فهزمه ووفد أحمد أخوه على

السلطان فولاه إمارة العرب وهدأت الفتنة بينهم، ثم هلك سنة تسع وأربعين بعدها وولى أخوه فياض كما مر في أخبارهم والله تعالى أعلم.

مقتل أرغون شاه نائب دمشق

كان خبر هذه الواقعة الغربية أن الجبقا بعثوه نائباً على طرابلس، وسار صحبة أياس الحاجب نائباً على حلب سنة خمسين، وانتهوا إلى دمشق. ونما إلى الجبقا عن أرغون شاه أنه تعرض لبعض حرمه بصنيع جمع فيه نسوان أهل الدولة بدمشق فكتب إليه ليلا وطرقه في بيته. فلما خرج إليه قبض عليه وذبحه في ربيع، وصنع مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والأمراء، واستصفى أمواله ولحق بطرابلس. وجاء الأمر من مصر باتباعه وإنكار المرسوم الذي أظهره فزحفت العساكر من دمشق، وقبضوا على الجبقا وأياس الحاجب بطرابلس وجاؤا بهما إلى مصر فقتلا. وولي الشمس الناصري نيابة دمشق مع أرغون شاه، وصلب أرغون الكافلي، وذلك في جمادى سنة خمسين. واصل أرغون شاه من بلاد الصين جلب إلى السلطان ابي سعيد ملك التتر ببغداد فأعطاه للأمير خوجا نائب جوبان، وأهداه خوجا للملك الناصر فحظي عنده وقدمه رأس نوبة، وزوجه بنت عبد الواحد. ثم ولاه الكامل أستاذ دار ثم عظمت مرتبته أيام المظفر وجعل نائباً في صفد، ثم في حلب. ولما حبس طنبغا اليحياوي على دمشق بسعاية الجبقا كما مر ولى أرغون شاه بدمشق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

المجلد الخامس

القسم الخامس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

نكبة بيقاروس:

ثم إن السلطان حسن شرع في الإستبداد، وقبض على منجك اليوسفي أستاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه. وكان لمنجك إختصاص بيقاروس وأخوه معه فارتاب، واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما، ودس إلى طاز بالقبض على بيقاروس وسارا لشأنهما، فلما نزلا بالينع قبض طاز على بيقاروس فخرج ورغب إليه أن يتركه يحج مقيداً فتركه. فلما قضى نسكه ورجعوا حبسه طاز بالكرك بأمر

السلطان، وأفرج عنه بعد ذلك، وولي نيابة حلب وانتقض بها كما نذكر بعد إن شاء الله تعالى. وبلغ خبر اعتقاله إلى أحمد شادي الشرنخانة بصفد فانتقض وجهز السلطان إليه العساكر فقبض عليه، وجيء به إلى مصر فأعتقل بالإسكندرية، وقام بالدولة مغلطي من أمرائها، والله تعالى أعلم.

واقعة الظاهر ملك اليمن بمكة و اعتقاله ثم اطلاقه

كان ملك اليمن وهو المجاهد علي بن داود المؤيد قد جاء إلى مكة حاجا

سنة إحدى وخمسين

وهي السنة التي حج فيها طاز وشاع في الناس عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر وفد المصريين لوفد اليمنيين، ووقعت في بعض الأيام هبة في ركب الحاج فتحاربوا وإنهزم المجاهد وكان بيقاروس مقيداً فأطلقه وأركبه ليستعين به فجلا في تلك الهبة، وأعيد إلى اعتقاله ونهب حاج اليمن. وقيد المجاهد إلى مصر فاعتقل بها حتى أطلق في دولة الصالح سنة إثنين وخمسين، وتوجه معه قشتمر المنصوري ليعيده إلى بلاده. فلما انتهى إلى الينبع أشيع عنه أنه هم بالهرب فقبض عليه قشتمر المنصوري وحبسه بالكرك. ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه والله أعلم.

خلع حسن الناصر وولاية أخيه الصالح

لما قبض السلطان حسن على بيقاروس وحبسه وتنكر لأهل دولته ورفع عليهم مغلطاي وإختصه، واستوحشوا لذلك وتفاوضوا وداخل طاز وهو كبيرهم جماعة من الأمراء في الثورة. وأجابه إلى ذلك بيقو الشمسي في آخرين واجتمعوا لخلعه. وركبوا في جمادي سنة إثنين وخمسين فلم يمانعهم أحد، وملكوا أمرهم ودخلوا القلعة وقبض طاز على حسن الناصر واعتقله، وأخرج أخاه حسيناً من اعتقاله فبايعه ولقبه الصالح وقام بحمل الدولة. وأخرج بيقو الشمسي إلى دمشق وبيقر إلى حلب أسيرين، وإنفرد بالأمر. ثم نافسه أهل الدولة واجتمعوا على الثورة، وتولى كبر ذلك مغلطاي ومنكلي وبيقا القمري، وركبوا فيمن اجتمع إليهم إلى قبة النصر للحرب، فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه وحمل عليهم ففض جمعهم وأثنى فيهم. وقبض على مغلطاي ومنكلي فحبسهما بالإسكندرية، وأفرج عن منجك وعن شيخو وجعله أتاكه على العساكر وأشركه في سلطانه، وولى سيف الدين ملاي نيابته، وإختص سرغتمش ورقاه في الدولة، وقبض على الشمسي المحمدي نائب دمشق ونقل إليها لمكانة أرغون الكامل من حلب، وأفرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه إلى حلب ثم تغير منجك واختفى بالقاهرة، والله تعالى أعلم.

انتقاض بيقاروس واستيلاؤه علي الشام ومسير السلطان إليه ومقتله

قد تقدم لنا ذكر بيقاروس وقيامه بدولة حسن الأولى ونكبته في طريقه إلى الحج بالكرك، ولما أطلقه طاز وولاه على حلب أدركته المنافسة والغيرة من طاز واستبداده بالدولة فحدثته نفسه

بالخلاف، وداخل نواب الشام. ووافق في ذلك بلكمش نائب طرابلس وأحمد شادي الشرنخانة نائب صفد، وخالفه أرغون الكامل نائب دمشق وتمسك بالطاعة، وتعاقده هؤلاء على الخلاف مع شيخو وسرغتمش في رجب سنة ثلاث وخمسين. ثم دعا بيقاروس العرب والتركمان إلى الموافقة فأجابه خبار بن مهنا من العرب، وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما. وبرز من حلب يقصد دمشق فأجفل عنها أرغون النائب إلى غزة، واستخلف عليها الجيكا العادلي، ووصل بيقاروس فملكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى. وسار السلطان الصالح وأمراء الدولة من مصر العساكر في شعبان من السنة، وأخرج معه الخليفة المعتضد أبا الفتح أبا بكر بن المستكفي، وعثر بين يدي خروجه على منجك ببعض البيوت لسنة من اختفائه، فبعث به سرغتمش إلى الإسكندرية وبلغ بيقاروس خروج السلطان من مصر فأجفل عن دمشق، وثار العوام بالتركمان فأثخنوا فيهم. ووصل السلطان إلى دمشق ونزل بالقلعة وجهز العساكر في إتباع بيقاروس فجاؤا بجماعة من الأمراء الذين كانوا معه، فقتل السلطان بعضهم ثالث الفطر وحبس الباقين. وولى على دمشق الأمير عليا المارداني، ونقل منها أرغون الكامل إلى حلب، وسرح العساكر في طلب بيقاروس من مغلطاي الدوادر. وعاد إلى مصر فدخلها في ذي القعدة من السنة وسار مغلطاي في طلب بيقاروس وأصحابه فأوقع بهم وتقبض على بيقاروس وأحمد وقطلمش وقتلهم، وبعث برؤسهم إلى مصر أوائل سنة أربع وخمسين. وأوعز السلطان إلى أرغون الكامل نائب حلب بأن يخرج في العساكر لطلب قراجا بن العادل مقدم التركمان، فسار إلى بلده البلسين فوجدها مقفرة، وقد أجفل عنها فهدمها أرغون وأتبعه إلى بلاد الروم. فلما أحس بهم أجفل ولحق بابن أرشا قائد المغل في سيواس، ونهب العساكر أحياءه واستاقوا مواشيه. ثم قبض عليه ابن أرشا قائد المغل وبعث به إلى مصر فقتل بها وسكنت الفتنة، وأطلق المعتقلون بالإسكندرية، وتأخر منهم مغلطاي ومنجك أياماً. ثم أطلقا وغربا إلى الشام والله تعالى أعلم.

واقعة العرب بالصعيد

وفي أثناء هذه الفتن كثر فساد العرب بالصعيد وغيثهم، وإنتهبوا الزروع والأموال

وتولى كبر ذلك الأحذب، وكثرت جموعه فخرج السلطان في العسكر سنة أربع وخمسين ومعه طاز. وسار شيخو في العساكر بغنائمهم. وخلص السلطان من الظهر والسلاح ما لا يعبر عنه. وأسر جماعة منهم فقتلوا وهرب الأحذب

حتى استأمن بعد رجوع السلطان، فأمنه على أن يمتنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح ويقبلوا على الفلاحة، والله تعالى أعلم.

خلع الصالح وولاية حسن الناصر الثانية

كان شيخو أتابك العساكر قد إرتاب بصاحبه طاز فداخل الأمراء بالثورة بالدولة، وترىص بها إلى أن خرج طاز سنة خمس وخمسين إلى البحيرة متصيداً، وركب إلى القلعة فخلع الصالح ابن بنت تنكر وقبض عليه وألزمه بيته لثلاث سنين كوامل من دولته. وباع لحسن الناصر أخيه، وأعادته إلى كرسيه وقبض على طاز فاستدعاه من البحيرة فبعثه إلى حلب نائباً. وعزل أرغون الكامل فلقق بدمشق حتى تقبض عليه سنة ست وخمسين، وسبق إلى الإسكندرية فحبس بها وبلغ الخبر بوفاة الشمسي الأحمدى نائب طرابلس، وولى مكانه منجك. واستبد شيخو بالدولة وتصرف بالأمر والنهي. وولى على مكة عجلان بن رميثة وأفرده بإمارتها، وكانت له الولاية والعزل والحل والعقد سائر أيامه، واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات. وكان رديفه في حمل الدولة سرغتمش من موالي السلطان، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده بمنه.

مهلك شيخو ثم سرغتمش بعده واستبداد السلطان

بأمره:

لم يزل شيخو مستبداً بالدولة وكافلاً للسلطان حتى وثب عليه يوماً بعض الموالي بمجلس السلطان في دار العدل في شعبان سنة ثمان وخمسين، واعتمده في دخوله من باب الإيوان وضربه بالسيف ثلاثاً أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فخر للدين، ودخل السلطان بيته وانفض المجلس. واتصلت الهيعة بالعسكر خارج القلعة فاضطربوا، واقتحم موالي شيخو القلعة إلى الإيوان يقدمهم خليل بن قوصون، وكان ربيبه، لأن شيخو تزوج بأمه فاحتمل شيخو إلى منزله. وأمر الناصر بقتل المملوك الذي ضربه فقتل ليومه، وعاده الناصر من الغد وتوجل من الوثبة أن تكون بأمره. وأقام شيخو عليلاً إلى أن هلك في ذي القعدة من السنة، وهو أول من سمي الأمير الكبير بمصر. واستقل سرغتمش رديفه بحمل الدولة. وبعث على طاز

فأمسكه بحلب وحبسه بالإسكندرية، وولى مكانه الأمير عليا المارداني، نقله إليها من دمشق، وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي. ثم تقبض السلطان على سرغتمش في رمضان سنة تسع وخمسين، وعلى جماعة من الأمراء معه مثل: مغلطاي الدوادر، وطشتمر القامسي الحاجب، وطنبغا الماجاري، و خليل

بن قوصون، ومحا السلحدار وغيرهم، وركب مواليه وقتلوا مماليك السلطان في ساحة القلعة صدر نهار، ثم انهزموا وقتلوا واعتقل سرغتمش وجماعته المنكوبون بالإسكندرية، وقتل بمحبسه لسبعين يوماً من اعتقاله. وتخطت النكبة إلى شيعمه وأصحابه من الأمراء والقضاة والعمال. وكان الذي تولى نكبة هؤلاء كلهم بأمر السلطان منكلي بيبقا الشمسي. ثم استبد السلطان يملكه واستولى على أمره، وقدم مملوكه بيبقا القمري وجعله أمير ألف. وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي. ثم بعثه إلى دمشق نائباً، واستقدم منجك نائب دمشق. فلما وصل إلى غزة استتر واختفى فولى الناصر مكانه بدمشق الأمير عليا المارداني، نقله من حلب، وولى على حلب سيف الدين بكتمر المؤمني، ثم أдал من علي المارديني في دمشق باستدمر، ومن المؤمني في حلب بمندمر الحوراني، وأمره السلطان سنة إحدى وستين بغزو سيسى وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة في حصون أخرى، وولى عليها ورجع فولاه السلطان نيابة دمشق مكان استدمر، وولى على حلب أحمد بن القتمري. ثم عثر بدمشق سنة إحدى وستين على منجك بعد أن نال العقاب بسببه جماعة من الناس. فلما حضر عفا عنه السلطان وأمه وخيره في النزول حيث شاء من بلاد الشام. وأقام السلطان بقية دولته مستبداً على رجال دولته وكان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في بيته متبذلاً، ويفاوضهم في مسائل العلم، ويصلهم ويحسن إليهم ويخالطهم أكثر ممن سواهم إلى أن انقرضت دولته، والبقاء لله وحده.

ثورة بيبقا ومقتل السلطان حسن وولاية منصور

بن المعظم حاجي في كفالة بيبقا:

كان بيبقا هذا من موالى السلطان حسن وأعلاهم منزلة عنده، وكان يعرف بالخاصكي نسبة إلى خواص السلطان. وكان الناصر قد رماه في مراتب الدولة وولاه الإمارة، ثم رفعه إلى الاتابكية وكان لجنوحه إلى الإستبداد كثيراً ما يبوح بشكاية مثل ذلك. فأحضره بعض الليالي بين حرمة وصرفه في جملة من الخدعة لبعض عواليه، وقادها فأسرها بيبقا في نفسه واستوحش. وخرج السلطان سنة إثنين وستين إلى كوم برى وضرب بها

خيامه، وأذن للخاصكي في مخيمه قريباً منه. ثم نمي عنه خبر الإنتقاض فأجمع القبض عليه، واستدعاه فامتنع من الوصول، وربما أشعره داعيه بالإستراية فركب إليه الناصر بنفسه فيمن حضره من مماليكه وخواص أمرائه تاسع جمادى من السنة. وبرز إليه بيبقا وقد أنذر به واعتد له فصدقه القتال في ساحة مخيمه.

وانهزم أصحاب السلطان عنه ومضى إلى القلعة وبيبا في اتباعه فامتنع الحراس بالقلعة من إخافة طارقة جوف الليل فتسرب في المدينة واختفى في بيت الأمير ابن الأزكشي بالحسينية، وركب الأمراء من القاهرة مثل ناصر الدين الحسيني وقشتمر المنصوري وغيرهما لمدافعة بيبا فلقبهم ببولاق وهزمهم، واجتمع ثانية وثالثة وهزمهم. وتنكر الناصر مع أيدير الدوادر يحاولان النجاة إلى الشام واطلع عليهما بعض المماليك فوشى بهما إلى بيبا فبعث من أحضره فكان آخر العهد به. ويقال إنه امتحنه قبل القتل فدلّه على أموال السلطان وذخائره، وذلك لست سنين ونصف من تملكه. ثم نصب بيبا للملك محمد بن المظفر حاجي ولقبه المنصور، وقام بكفالاته وتدبير دولته، وجعل طنبغا الطويل رديفه. وولى قشتمر المنصوري نائباً، وغشتمر أمير مجلس، وموسى الأزكشي أستاذ دار. وأفرج عن القاسمي وبعثه نائباً بالكرك، وأفرج عن طاز وقد كان عمي فبعثه إلى القدس بسؤاله ثم إلى دمشق. ومات بها في السنة بعدها وأقر عجلان في ولاية مكة وولى على عرب الشام جبار بن مهنا، وأمسك جماعة من الأمراء فحبسهم، والله تعالى أعلم.

انتقاض استد مر بدمشق:

ولما اتصل بالشام ما فعله بيبا، وأنه استبد بالدولة. وكان استدمر نائباً بدمشق كما قدمناه امتعض لذلك، وأجمع الانتقاض وداخله في ذلك مندمر وألبري ومنجك اليوسفي، واستولى على قلعة دمشق. وسار في العساكر ومعه السلطان المنصور، ووصل إلى دمشق واعتصم القوم بالقلعة. وترددت بينهما القضاة بالشام حتى نزلوا على الأمان بعد أن حلف بيبا. فلما نزلوا إليه بعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها، وولى الأمير المارداني نائباً بدمشق وقطلو بغا الأحمدى نائباً بحلب مكان أحمد بن القتمري بصفد، وعاد السلطان المنصور وبيبا إلى مصر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة الخليفة المعتضد بن المستكفي وولاية ابنه

المتوكل:

قد تقدم لنا أن الخليفة المستكفي لما توفي قبل وفاة الملك الناصر عهد لابنه أحمد

ولقبه الحاكم، وأن الناصر عدل عنه إلى إبراهيم بن محمد عم المستكفي ولقبه الواثق. فلما توفي الناصر آخر سنة إحدى وأربعين، وأغار الأمراء القائمون بالدولة والأمير أحمد الحاكم بن المستكفي ولي عهده، فلم يزل في خلافته إلى أن هلك سنة ثلاث وخمسين لأول دولة الصالح سبط

تنكز. وولى بعده أخوه أبو بكر بن المستكفي ولقب المعتضد. ثم توفي سنة ثلاث وستين لعشرة أعوام من خلافته، وعهد إلى ابنه أحمد فولى مكانه ولقب المستكفي، والله تعالى أعلم.

خلع المنصور وولاية الأشرف:

ثم بدا البيقا الخاصكي في أمر المنصور محمد بن حاجي فخلعه استرابة به في شعبان سنة أربع وستين لسبعة وعشرين شهرا من ولايته، ونصب مكانه شعبان بن الناصر حسن بن الملك الناصر، وكان أبوه قد توفي في ربيع الآخر من تلك السنة. وكان آخر بني الملك الناصر فمات فولى ابنه شعبان ابن عشر سنين ولقبه الأشرف، وتولى كفاله. وفي سنة خمس وستين عزل المارداني من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب، وولى مكانه قطلو بغا الأحمدي. وتوفي قطلو بغا فولى مكانه غشقتمر المارداني. ثم عزل غشقتمر سنة ست وستين فولى مكانه سيف الدين فرجي، وأوعز إليه سنة سبع وستين أن يسير في العساكر لطلب خليل بن قراجا بن العادل أمير التركمان فيحضره معتقلا، فسار إليه وامتنع في خرت برت فحاصره أربعة أشهر، واستأمن خليل بعدها وجاء إلى مصر فأمنه السلطان وخلع عليه، وولاه ورجع إلى بلده وقومه، والله تعالى أعلم.

واقعة الإسكندرية:

كان أهل جزيرة قبرص من أمم النصرانية وهم من بقايا الروم، وإنما ينتسبون لهذا

العهد إلى الإفرنج لظهور الإفرنج على سائر أمم النصرانية. وإلا فقد نسبهم هروشيوش إلى كيتم وهم الروم عندهم، ونسب أهل رودس إلى دوداتم وجعلهم إخوة كيتم ونسبهما معاً إلى رومان. وكانت على أهل قبرص جزية معلومة يؤدونها لصاحب مصر، وما زالت مقررة عليهم من لدن فتحها على يد معاوية أمير الشام أيام عمر. وكانوا إذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية. وتقدم لنا آنفاً في دولة الترك أن الظاهر بيبرس

بعث إليها سنة تسع وستين وستمئة اسطولا من الشواني، وطرقت مرساها لئلا فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها في كل ناحية.

ثم غلب لهذه العصور أهل جنوة من الإفرنج على جزيرة رودس، حازتها من يد لشكري صاحب القسطنطينية سنة ثمان وسبعمئة وأخذوا بمخنقتها. وأقام أهل قبرص معهم بين فتنة وصلاح، وسلم وحرب، آخر أيامهم. وجزيرة قبرص هذه على مسافة يوم وليلة في البحر قبالة طرابلس منصوبة على سواحل الشام

ومصر. واطلعوا بعض الأيام على غرة في الإسكندرية وأخبروا حاجبهم، وعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض في أساطيله واستنفر من سائر الإفرنج، ووافى مرساها سابع عشر من المحرم سنة سبع وستين في أسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدة وبالعدد، ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم. فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعبى صفوفه، وزحف وقد غمق الساحل بالنظارة برزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالاً لما هو فيه، ولا ينظرون مغبة أمره لبعدهم بالحرب، وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون خالية. ونائبها القائم بمصالحها في الحرب والسلام، وهو يومئذ خليل بن عوام غائب في قضاء فرضه، فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا العوام بالنبل فأجفلوا متسابقين إلى المدينة، وأغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون ووصل القرم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة، واضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض. ثم أجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم، وما اقتدروا عليه من أموالهم، وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين في غير وجه حيرة ودهشة. وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فتخطفوا الكثير منهم، وتوسط الإفرنج المدينة ونهبوا ما مروا عليه من الدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومودعات التجار، وملؤا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت، واحتملوا ما استولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء. ثم تسائل إليهم الصريح من العرب وغيرهم فانكفأ الإفرنج إلى أساطيلهم وانكمشوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد. وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيبقا فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره، ومعه ابن عوام نائب الإسكندرية منصرفه من الحج، وفي مقدمته خليل بن قوصون وقطلو بغا الفخري من أمرائه وعزائمهم مرهفة ونياتهم في الجهاد صادقة، حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو فلم يثنه ذلك، واستمر إلى الإسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد، فأمر بهدم ذلك وإصلاحه، ورجع أدراجه إلى دار الملك، وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقا على أهل قبرص فأمر بإنشاء مائة أسطول من الأساطيل التي يسمونها القربان معتزماً على غزو

قبرص فيها بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية، واحتفل في الأستعداد لذلك، واستكثر من السلاح وآلات الحصار، وكمل غرضه من ذلك كله في رمضان من السنة لثمانية أشهر من الشروع فيه فلم يقدر على تمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما نقصه، والله تعالى ولي التوفيق

ثورة الطويل ونكبته:

كان طنبغا الطويل من موالى السلطان حسن، وكانت وظيفته في الدولة أمير سلاح

وهو مع ذلك رديف بيبقا في أمره، وكان يؤمّل الإستبداد ثم حدثت له المنافسة والغيرة من بيبقا كما حدثت لسائر أهل الدولة عندما استكمل أمره واستفحل سلطانه، وداخلوا الطويل في الثورة وكان دوادار السلطان أرغون الأشقري وأستاذ دار المحمدي. وبيناهم في ذلك خرج الطويل للسرحة بالعباسية في جمادى سنة سبع وستين، وفشا الأمر بين أهل الدولة فمني إلى بيبقا واعتزم على إخراج الطويل إلى الشام، وأصدر له المرسوم السلطاني بناية دمشق وبعث به إليه وبالخلعة على العادة مع أرغون الأشقري الدوادار وروس المحمدي أستاذ دار من المداخلين له، ومعه أرغون الأرقى وطنبغا العلاني من أصحاب بيبقا، فردهم الطويل وأساء إليهم. وواعد بيبقا قبة النصر فهزمهم وقبض على الطويل والأشقري والمحمدي وحبسوا بالإسكندرية. ثم شفع للسلطان في الطويل في شهر شعبان من السنة وبعثه إلى القدس، ثم أطلق الأشقري والمحمدي وبعث بهما إلى الشام وولى مكان الطويل طيدمر الباسلي ومكان الأشقري في الدويدارية طنبغا الأبى بكري. ثم عزله بيبقا العلاني وولى مكانه روس العادل المحمدي. وكان جماعة من الأمراء أهل وظائف في الدولة قد خرجوا مع الطويل وحبسوا فولى في وظائفهم أمراء آخرين ممن لم تكن له وظيفة، واستدعى منكلي بيبقا الشمسي نائب دمشق إلى مصر يطلبه فقدم نائباً بحلب مكان سيف الدين برجى، وأذن له في الإستكثار من العساكر، وجعلت رتبته فوق نائب دمشق، وولى مكانه بدمشق اقطمر عبد العزيز انتهى، والله تعالى أعلم.

المماليك

ثورة المماليك ببليقا ومقتله واستبداد اد ستمر:

كان طنبغا قد طال استبداده على السلطان وثقلت وطأته على الأمراء وأهل الدولة وخصوصا على مماليكه، وكان قد استكثر من المماليك وأرهف حده لهم في التأديب وتجاوز الضرب فيهم بالعصا إلى جدد الأنوف واصطلام الآذان فكتموا الأمر في نفوسهم وضمائهم لذلك وطووا على الغش: وكان كبير خواصه استممر واقتفان الأحمدى، ووقع في بعض الأيام بمثل هذه العقوبة في أخي استممر فستوحش له وارتاب، وداخل سائر الأمراء في الثورة يرون فيها نجاتهم منهم. وخلصوا النجوى مع السلطان فيه واقتضوا منه الإذن. وسرح السلطان ببليقا

إلى البحيرة في عام ثمان وسبعين، وانعقد هؤلاء المماليك المتفاوضون في الثورة بمنزل الطرانة وبيتوا له فيها ونمي إليه خبرهم، ورأى العلامات التي قد أعطيتها من أمرهم فركب مكرًا في بعض خواصه وخاض النيل إلى القاهرة وتقدم إلى نواتية البحر أن يرسوا سفنهم عند العدو الشرقية، ويمنعوا العبور كل من يرومه العدو الغربية. وخالفه استدمر واقتفان إلى السلطان في ليلتهم وبايعوه على مقاطعة بيبقا ونكبته. ولما وصل بيبقا إلى القاهرة جمع من كان بها من الأمراء والحجاب من مماليكه وغيرهم، وكان بها أيبك البدري أمير ماخورية فاجتمعوا عليه. وكان يقتدر النظامي وأرغون ططن بالعباسية سارحين فاجتمعوا إليه فخلع الأشرف، ونصب أخاه أتوك ولقبه المنصور. وأحضر الخليفة فولاه واستعد للحرب وضرب مخيمه بالجزيرة الوسطى على عدوة البحر. ولحق به من كانت له معه صاغية من الأمراء الذين مع السلطان بصحابة أو أمر أو ولاية مثل: بيبقا العلاني الدوادار، ويونس الرمام وكمشيقا الحموي و خليل بن قوصون وبعقوب شاه وقرايقا البدري وابتغا الجوهرى. ووصل السلطان الأشرف من الطرانة صبيحة ذلك اليوم على التعبئة قاصدا دار ملكه، وانتهى إلى عدوة البحر فوجدها مقفرة من السفن فخيم هنالك، وأقام ثلاثاً وبيبقا وأصحابه قبالتهم بالجزيرة الوسطى ينفحونهم بالنيل، ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق وصواعق الأنفاط، وعوالم النظارة في السفن إلى أن تتوسط فيركبونها وبحركونها بالمجازيف إلى ناحية السلطان، حتى كملت منها عدة وأكثرها من القربان التي أنشأها بيبقا، وأجاز فيها السلطان وأصحابه إلى جزيرة الفيل. وسار على التعبئة، وقد ملأت عساكره وتابعه بسيط الأرض، وتركم القتام بالجو وغشيت سحابة موكب بيبقا وأصحابه فتقدموا للدفاع وصدقتهم عساكر السلطان القتال فانفضوا عن بيبقا وتركوه أوحش من وتد في قلاع فولى منهزماً ومر بالميدان فصلى ركعتين عند بابه، واستمر إلى بيته والعوام ترجمه في بطريقه. وسار السلطان في تعييته إلى القلعة ودخل قصره، وبعث عن بيبقا فجيء به واعتقل بحبس القلعة سائر يومه. فلما غشي الليل ارتاب المماليك بحياته وجاءوا إلى السلطان يطلبونه، وقد أضمرروا الفتك به وأحضره السلطان. وبينما هو

مقبل على التضرع للسلطان ضربه بعضهم فأبان رأسه، وارتاب من كان منهم خارج القصر في قتله فطلبوا معاينته ولم يزالوا يناولون رأسه من واحد إلى واحد حتى رماه آخرهم في مشعل كان بإزائه. ثم دفن وفرغ من أمره، وقام بأمر الدولة استدمر الناصري ورفيفه ببيقا الأحمدى ومعهما بحماس الطازى وقرابقا السرغتمشى وتغرى بردى، المتولون كبر هذه الفعلة. وتقبضوا على الأمراء الذين عدلوا عنهم إلى ببيقا فحبسوهم بالإسكندرية. وقد مر ذكرهم وعزل خليل بن قوصون وألزم بيته وولوا أمراء مكان المحبوسين

وأهل وظائف من كانت له. واستقر أمر الدولة على ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

واقعة الاجلاب ثم نكبتهم ومهلك استدمر وذهاب

دولته:

ثم تنافس هؤلاء القائمون بالدولة وحبسوا قرابقا السرغتمشي صاحبهم، وامتعض له

تغري بدمشق، وداخل بعض الأمراء في الثورة ووافقه أيبك البدري وجماعة معه، وركب منتصف رجب سنة ثمان وستين للحرب فركب له استدمر وأصحابه فتقبضوا عليهم وحبسوهم بالإسكندرية، وعظم ظغيان هؤلاء الأجلاب وكثر عيهم في البلد وتجاوزهم حدود الشريعة والملك. وفاوض السلطان أمراءه في شأنهم فأشاروا بمعاجلتهم وحسم دائهم فنبذ السلطان إليهم العهد، وجلس على كرسيه بالأساطيل، وتقدم إلى الأمراء بالركوب فركب الجائي اليوسفي وطغتمر النظاير وسائر أمراء السلطان، ومن استخدموه من مماليك بيبقا، وتحيز إليهم أيبقا الجلب وبحماس الطازي عن صاحبهما استدمر. وركب لقتالهم استدمر وأصحابه وسائر الأجلاب، وحاصروا القلعة إلى أن خرج عند الطلحساه السلطانية فاختل مركز الأمراء، وفارقهم المستخدمون عندهم من مماليك بيبقا فانفض جمعهم وانهزموا.

وثبت الجائي اليوسفي وأرغون التتر في سبعين من مماليكهم فوقفوا قليلا، ثم انهزموا إلى قبة النصر، وقتل دروط ابن أخي الحاج الملك وقبض على أيبقا الجلب جريحا، وعلى طغتمر النظامي وعلى بحماس الطازي والجائي اليوسفي وأرغون التتر وكثير من أمراء الألوف ومن دونهم. واستولى استدمر وأصحابه الأجلاب على السلطان كما كانوا، وولى مكان المحبوسين من الأمراء وأهل الوظائف، وعاد خليل بن قوصون على إمرته. وعزل قشتمر عن طرابلس وحبس بالإسكندرية، واستبدل بكثير من أمراء الشام واستمر الحال على ذلك بقية السنة والاجلاب على حالهم في الإستهتار بالسلطان والرعية. فلما كان محرم سنة تسع وستين عادوا إلى

الاجلاب على الدولة، فركب أمراء السلطان إلى استدمر يشكونهم ويعاتبونهم في شأنهم فقبض على جماعة منهم، كسر بهم الفتنة، وذلك يوم الأربعاء سادس صفر، فلما كان يوم السبت وعاودوا الركوب ونادوا بخلع السلطان فركب السلطان في مماليكه ونحو المائتين. والتف عليهم العوام وقد حنقوا على الاجلاب بشرائهم فيهم. وركب استدمر في الاجلاب على التعبية وهم ألف وخمسمائة وجاءوا من وراء القلعة على عادتهم حتى شارفوا القوم فأحجموا ووقفوا وأدلفتهم الحجارة من أيدي العوام بالمقاليع، وحملت عليهم العساكر فانهمزوا وقبض على أبقا السرغتمشي وجماعة معه فحبسوا بالخرانة.

ثم جيء باستدمر أسيرا وشفع فيه الأمراء فشفعهم السلطان وأطلقه باقيا على أتابكته، ونزل إلى بيته بقبض الكيس. وكان خليل بن قوصون تولى أتابكا في تلك الفترة فأمره السلطان أن يباكر به لحبسه من الغد، فركب خليل إلى بيته وحمله على الأنتقاض على أن يكون الكرسي لخليل بعلاقة نسبه إلى الملك الناصر من أمه. فاجتمع منهم جماعة من الاجلاب وركبوا بالرميلة فركب إليهم السلطان والأمراء في العساكر فانهمزوا وقتل كثير منهم. وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وقتل كثير ممن أسر في تلك الواقعة منهم، وطيف بهم على الجمال في أقطار المدينة. ثم تتبع بقية الاجلاب بالقتل والحبس بالثغور القاصية، وكان ممن حبس منهم بالكرك برقوق العثماني الذي ولي الملك بعد ذلك بمصر، وبركه الجولاني، وطنبغا الجولاني، وجركس الخليلي، ونعنع، وأقاموا كلهم متلفين بين السجن والنفي إلى أن اجتمع شملهم بعد ذلك كما نذكره. واستبد السلطان بأمره بعض الشيء وأفرج عن الجاني اليوسفي وطغتمر النظامي وجماعة من المسجونين من أمرائه، وولى الجاني أمير سلاح وولى بيقا المنصوري وبكتمر المحمدي من أمراء الاجلاب في الأتابكية شريكين. ثم نمي عنهما أنهما يرومان الثورة وإطلاق المسجونين من الاجلاب والاستبداد على السلطان فقبض عليهما. وبعث عن منكلي بغا الشمسي من حلب، وأقامه في الأتابكية. واستدعى أمير علي المارداني من دمشق وولاه النيابة، وولى في جميع الوظائف استبدالا وإنشاء بنظره واختياره. وكان منهم مولاه أرغون الأشرفي. وما زال يرقيه في الوظائف إلى أن جعله أتابك دولته وكان خالصته كما سنذكر. وولى على حلب مكان منكلي بغا طنبغا الطويل وعلى دمشق مكان المارداني بدمر الخوارزمي. ثم اعتقله وصادره على مائة ألف دينار ونفاه إلى طرطوس، وولى مكانه منجك اليوسفي نقله إليها من طرابلس وأعاد إليها غشقتمر المارداني كما كان قبله. ثم توفي طنبغا الطويل بحلب آخر سنة تسع وستين بعد أن كان يروم الأنتقاض، فولى مكانه استبغا أبو بكري. ثم عزله سنة سبعين وولى مكانه قشتمر المنصوري، والله تعالى ولي التوفيق بمنه وفضله.

مقتل قشتمر المنصوري بحلب في واقعة العرب:

كان جماز بن مهنا أمير العرب من آل فضل قد انتقض وولى السلطان

مكانه ابن

عمه نزال بن موسى بن عيسى، واستمر جماز على خلافه ووطىء بلاد

حلب أيام المصيف، واجتمع إليه بنو كلاب وامتدت أيديهم على السابلة

فخرج إليهم نائب حلب قشتمر المنصوري في عساكره، فأغار على أحيائه

واستاق نعمهم ومواشيهم وشره إلى اصطلامهم فتذامروا دون

أحيائهم، وكانت بينه وبينهم جولة أجلت عن قشتمر المنصوري وابنه محمد قتيلين، ويقال قتلها يعبر بن جماز، ورجعت عساكر الترك منهزمين إلى حلب، وذهب جماز إلى القفر ناجياً به، وولى السلطان على العرب معيقيل بن فضل. ثم استأمن له جماز بن مهنا وعاود الطاعة فأعاده السلطان إلى إمارته، والله تعالى أعلم.

استبداد الجائي اليوسفي ثم انتقاضه ومقتله:

لما أذهب السلطان الأشرف أثر الاجلاب من دولته، وقام بعض الشيء بأمره فاستدعى منكلي بغا من حلب، وجعله أتابكا وأمير علي المارداني من دمشق وجعله نائبا. وولى الجائي اليوسفي أمير سلاح، وولى أصبغا عبد الله دوادار بعد أن كان الاجلاب ولوا في الدوادارية منهم واحدا بعد واحد. ثم سخطه وولى مكانه أقطمر الصباحي، وعمر سائر الخطط السلطانية بمن وقع عليه اختياره، ورقى مولاه أرغون شاه في المراتب من واحدة إلى أخرى، إلى أن أربى به على الأتابكية كما يأتي. وولى بهادر الجمالي أستاذ دار ثم أميرالماخورية تردد بينهما. ثم استقر آخرا في الماخورية وولى محمد بن اسقلاص أستاذ دار، وولى بيغا الناصري بالحجابة بعد وظائف أخرى نقله منها. وزوج أمه الجائي اليوسفي فعلت رتبته بذلك في الدولة، واستغلظ أمره وأغلظ له الدوادار يوماً في القول فنفي، وولى مكانه منكوتمر عبد الغني. ثم عزل سنة إثنتين وسبعين لسنة من ولايته، وولى السلطان مكانه طشتمر العلاني الذي كان دوادار البيقا، واستقرت الدولة على هذا النمط والجائي اليوسفي مستبد فيها ووصل وفود منجك من الشام سنة أربع وسبعين بما لا يعبر عنه. اشتمل على الخيل والبخاتي المجللة والجمال والهجن والقماش والحلاوات والحلي والطرف والمواعين، حتى كان فيها من الكلاب الصائدة والسباع والإبل ما لم ير مثله في أصنافه. ثم وصل وفود قشتمر المارداني من حلب على نسبة ذلك، والله تعالى أعلم.

انتقاض الجائي اليوسفي ومهلكه واستيداد الاشرف بملكه من بعده:

لم تزل الدولة مستقرة على ما وصفناه إلى أن هلك الأمير منكلي بغا بالأتاك منتصف سنة أربع وسبعين، واستضاف الجائي اليوسفي الأتابكية إلى ما كان بيده ورتبته أشد من ذلك كله، وهو القائم المستبد بها. ثم توفيت أم السلطان وهي في عصمته فاستحق منها ميراثاً دعاه لؤم

الأخلاق فيه إلى المماحكة في المخلف وتجافى السلطان له عن ذلك إلا أنه كان ضيق الصدر شرس الأخلاق فكان يغلظ القول بما يخشن الصدور، فأظلم الجو بينه وبين السلطان، وتمكنت فيه السعاية. وذكرت بهذه انتقاضه الأول، وذلك أنه كان سخط في بعض النزعات على بعض العوام من البلد فأمر بالركوب إلى العامة وقتلهم فقتل منهم كثير ونمي الخبر إلى السلطان على ألسنة أهل البصائر من دولته، وعذلوه عنده فاستشاط السلطان وزجره وأغلظ له فغضب، وركب إلى قبة النصر منتقضا. وذهب السلطان في مداراة أمره إلى الملاطفة واللين. وكان الأتابك منكلي بغا يوم ذاك حيا فأوعز السلطان إليه فرجع وخلع عليه وأعادته إلى أحسن ما كان. فلما بدرت هذه الثانية حذر السلطان بطانته من شأنه، وخرج هو منتقضا وركب في ممالিকে بساحة القلعة. وجلس السلطان وترددت الرسل بينهما بالملاطفة فأصر واستكبر، ثم أذن السلطان لممالিকে في قتاله وكان أكثرهم من الاجلاب مماليك بيقا، وقد جمعهم السلطان واستخدمهم في جملة ابنه أمير علي ولي عهده، فقاتلوه في محرم سنة خمس وتسعين وكان موقفه في ذلك المعترك إلى حائط الميدان المتصل بالأساطيل فنفذت له المقاتلة من داخل الأساطيل ونضحوه بالسهام، فتنحى عن الحائط حتى إذا حل مركزه ركبوا خيولهم وخرجوا من باب الأساطيل. وصدقوا عليه الحملة فانهزم إلى بركة الحبش ورجع من وراء الجبل إلى قبة النصر، فأقام بها ثلاثا والسلطان يراوضه وهو يشتط وشيعه يتسللون عنه. ثم بعث إليه بالسلطان لمة من العسكر ففر أمامهم إلى قليب، واتبعوه فخاض البحر وكان آخر العهد به. ثم أخرج شلوه ودفن وأسف السلطان لمهلكه، ونقل أولاده إلى قصره ورتب لهم ولحاشيته الأرزاق في ديوانه. وقبض على من اتهمه بمداخلته وأرباب وظائفه فصودروا كلهم وعزلوا وغربوا إلى الشام. واستبد السلطان بأمره، واستدعى القرى الدوادر، وكان نائبا بطرابلس فولاه أتابكا مكان الجائي ورفع رتبته. وولى أرغون شاه وجعله أمير مجلس، وولى سرغتمش من مواليه أمير سلاح، واختص بالسلطان طشتمر الدوادر وناصر الدين محمد

بن اسقلاص أستاذ دار، فكانت أمور الدولة منقسمة بينهما، وتصاريفها تجري بسياستهما إلى أن كان ما نذكره، والله تعالى ولي التوفيق.

استقدام منجك للنيابة:

كان أمير علي المارداني قد توفي سنة إثنين وسبعين، وبقيت وظيفته خلوا المكان الجائي اليوسفي وأحكامه. ولما هلك سنة خمس وسبعين ولى السلطان أقطمر عبد الغني نائبا. ثم بدا له أن يولي في النيابة منجك اليوسفي لما رآه فيه من الأهلية لذلك والقيام به، ولتقلبه في الإمارة منذ عهد

الناصر حسن، وأنه كان من مواليه أبا لبيبا روس وطاز وسرغتمش فهو بقية المناجب. فلما وقع نظره عليه بعث في استقدامه بيبقا الناصري من أمراء دولته، وولى مكانه بندمر الخوارزمي، وأعاد عشقتمر إلى حلب مكانه. ووصل منجك إلى مصر آخر سنة خمس وسبعين ومعه مماليكه وحاشيته، وصهر إلى روس المحمدي فاحتفل السلطان في تكرمته، وأمر أهل الدولة بالركوب لتلقيه، فتلقيه الأمراء والعساكر وأرباب الوظائف من القضاء والدواوين وأذن له في الدخول من باب السراكبا وخاصة السلطان مشاة بين يديه حتى نزل عند مقاعد الطواشية بباب القصر حيث يجلس مقدم المماليك استدعي إلى السلطان فدخل، وأقبل عليه السلطان وشافه بالنيابة المطلقة، وفوض إليه الولاية والعزل في سائر المراتب السلطانية من الوزراء والخواص والقضاة والأوقاف وغيرها، وخلع عليه وخرج. ثم قرر تقليده بذلك في الإيوان ثاني يوم وصوله فكان يوماً عهداً. وولى الأشرف في ذلك اليوم بيبقا الناصري الذي قدم به حاجبا. ثم سافر عشقتمر نائب حلب آخر سنة ست وسبعين بعدها بالعساكر إلى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها، واستولى على ملكها النكفور بالأمان فوصل بأهله وولده إلى الأبواب السلطانية ورتب لهم الأرزاق، وولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن. وتوفي منجك آخر هذه السنة فولى السلطان اقتمر الصاجي المعروف بالحلي. ثم عزله ورفع مجلسه وولى مكانه اقمير الألقني. ثم توفي جبار بن، هنا أمير العرب بالشام فولى السلطان ابنه يعبرا مكانه. ثم توفي أمير مكة من بني حسن فولى الأشرف مكانه، واستقرت الأمور على ذلك، والله أعلم.

الخبر عن مماليك بيبقا وترشيحهم في الدولة:

كان السلطان الأشرف بعد أن سطا بمماليك بيبقا تلك السطوة وقسمهم بين القتل والنفي وأسكنهم السجون، وأذهب أثرهم من الدولة بالجملة أرجع جملة منهم بعد ذلك. وعاتبه منكلي أبغا في شأنهم، وأن في اتلافهم قص جناح الدولة، وإنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم فندم على من قتل منهم، وأطلق من بقي من المحبوسين بعد خمس من السنين، وسرحهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء، وكان فيمن أطلق الجماعة

الذين بحبس الكرك وهم: برقون العثماني وبركة الجوباني وطنبقا الجوباني وجرکس الخليلي ونعنغ، فأطلقوا إلى الشام. ودعا منجك صاحب الشام كبراءهم إلى تعليم الممالیک ثقافة الرمح، وكانوا بصراء بها فأقاموا عنده مدة، أخبرني بذلك الطنبقا الجوباني أيام اتصالی به قال وأقمنا عند منجك إلى أن استدعاه السلطان الأشرف وكتب إليه الجائي اليوسفي بمثل ذلك فاضطرب في أيهما يجيبه فيها. ثم أراد أن يخرج من العهدة فرد الأمر إلینا فأینا إلا امتثال أمره فتحیر. ثم اهتدى إلى أن یبعث إلى

الجائي اليوسفي، ودس إلى قرطاي كافل الأمير علي ابن السلطان وكان صديقه بطلبنا من الجائي بخدمة ولي العهد، وصانع الجهتين بذلك قال: وصرنا إلى ولي العهد فعرضنا على السلطان أبيه واختصنا عنده بتعليم الثقافة لمماليكه إلى أن دعانا السلطان يوم واقعة الجائي وهو جالس بالإسطنبول فندبنا لحره وذكرنا حقوقه وأزاح عللنا بالجياد والأسلحة، فجلينا في قتله إلى أن انهزم، وما زال السلطان بعدها يرعى لنا ذلك ويقدمنا. انتهى خبر الجوباني. وكان طشتمر الدوادار قد لطف محله عند الأشرف وخلا له وجهه وكان هواه في اجتماع ممالك بييقا في الدولة يستكثر بهم فيما يومله من الاستبداد على السلطان. فكان يشير في كل وقت على الأشرف باستقدامهم من كل ناحية واجتماعهم عصابة للدولة يخادع بذلك عن قصده؛ وكان محمد بن اسقلاص أستاذ دار يساميه في الدولة ويزاحمه في مخالصة بالأشرف ولطف المحل عنده، ينهى السلطان عن ذلك ويحذره مغبة اجتماعهم فغص طشتمر بذلك. وكان عند السلطان ممالك دونه من ممالكه الخاصية شبابا قد اصطفاهم وهذبهم وخالصهم بالمحبة والصهر ورشحهم للمراتب وولى بعضهم. وكان الأكابر من أهل الدولة يفضون إليهم بحاجاتهم ويتوسلون بمساعيهم فصرف طشتمر إليهم وجه السعاية، وغشي مجالسهم وأغراهم بابتغاء اسقلاص، وإنه يصد السلطان أكثر الأوقات عن أغراضهم منه، ويبعد أبواب الانعام والصلوات منه. وصدق ذلك عندهم كثرة حاجاتهم في وظيفته، وتقرر الكثير منها عليهم عنده فوغرت صدورهم منه، وأغروا به السلطان بأطباق اغراء طشتمر طاهراً حتى تمت عليهم نكبته، وجمعت الكلمة وقبض عليه منتصف جمادي سنة سبع وثمانين، ونفاه إلى القدس فخلا لطشتمر وجه السلطان وانفرد بالتدبير، واجتمع المماليك البيقاوية من كل ناحية حتى كثروا أهل الدولة وعمروا مراتبها ووظائفها، واحتاروها من جوانبها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

حج السلطان الاشرف وانتفاض المماليك عليه بالعقبة

وما كان مع ذلك من ثورة قرطاي بالقاهرة وبيعة
الامير علي ولي العهد ومقتل السلطان اثر ذلك:
لما استقر السلطان في دولته على أكمل حالات الاستبداد والظهور،
وأذعان الناس. لطاعته في كل ناحية، وأكمل الله له الامتاع بملكه ودنياه،
سمت نفسه إلى قضاء فرضه، فأجمع الحج سنة

ثمان وسبعين، وتجهز لذلك واستكثر من الرواحل المستجادة والزودة المثقلة من سائر الأصناف. واستعد للسفر واحتفل في الأبهة بما لم يعهد مثله، واستخلف ابنه ولي العهد في ملكه، وأوصى النائب اكنمر عبد النبي بمباكرة بابه والانتهاء إلى مراسمه. وأخرج بني الملك الناصر المحجوبين بالقلعة مع سرد الشيخوني إلى الكرك يقيمون به إلى منصرفه. ولجهز الخليفة العباسي محمد المتوكل بن المعتضد والقضاة للحج معه، وجهر جماعة إلى الأمراء أهل دولته وأزاح عنهم وملأ بمعروفه حقائبهم. وخرج ثاني عشر شوال في المراكب والقطارات يروق الناظرين كثرة ومخافة وزينة، والخليفة والقضاة والأمراء حفا فيه. وبرز النظارة حتى العواتق من خدورهن، وتجلت بمركبهم البسيطة وماجت الأرض بهم موجا، وخيم بالبركة منزل الحاج وأقام بها أياماً حتى فرغ الناس من حاجاتهم. وارتحل، فما زال ينتقل في المنازل إلى القعبة. ثم أقام فيها على عادة الحاج، وكان في نفوس المماليك وخصوصا البيقاوية وهم الأكثر شجى يتشوقون به إلى الاستبداد من الدولة، فتنكروا واشتطوا في اقتضاء أرزاقهم والمباشرون يعللونهم وانتهى أمرهم إلى الفساد. ثم طلبوا العلوقة المستقبلية إلى دار الأزم، فاعتذر المباشرون بأن الأقوات حملت إلى الأمام فلم يقبلوا، وكشفوا القناع في الأنقاض وباتوا ليلتهم على تعبية. واستدعى الأشرف طشتمر الدوادار، وكان كبيرهم، ففاوضه في الأمر ليفل من عزمهم، فأجمل العذر عنهم، وخرج إليهم. فخرجوا، ثم ركبوا من الغد واصطفوا وأركبوا طشتمر معهم، ومنعوه من معاودة السلطان. وتولى كبر ذلك منهم مبارك الطازي وسراي تمر المحمدي وبطلقمر العلائي، وركب السلطان في خاصته يظن أنهم يرعوون أو يجنح إليه بعضهم فأبوا إلا الاحفاف على قتاله. ونضحوا موكبه بالنبل لما عاينوه فرجع إلى خيامه منهزما. ثم ركب البحر في لفيف من خواصه ومعه أرغون شاه الأتابك وبيبا الناصري، ومحمد بن عيسى صاحب الدرك من لفائف الأعراب أهل الضاحية، وفي ركابه جماعة الشباب الذين أنشأهم في مخالسته ورشحهم للوظائف في دولته كما مر. وخام الفل إلى القاهرة، وقد كان السلطان عندما سافر عن القاهرة ترك بها جماعة من الأمراء والمماليك مقيمين في وظائفهم، كان منهم: قرطاي

الطازي كافل أمير علي ولي العهد، واقتمر الخليلي، وقشتمر
واستدمرالسرغتمشي وأيبك البدري. وكان شيطان من المتمرده قد أوحى
إلى قرطاي بأنه يكون صاحب الدولة بمصر، فكان يتشوف لذلك وبترصده له.
وربما وقع بينه وبين وزير الدولة منازعة في جراية مماليك مكفوله ولي

العهد وعلوفاتهم، وأغلظ له فيها الوزير فوجم وأخذ في أسباب الأنتقاض. وداخل في ذلك بعض أصحابه وواعدهم ثالث ذي القعدة، وتقدم إلى داية ولي العهد ليلة ذلك اليوم بأن يصلح من شأنه ويفرغ عليه ملابس السلطان، ويهيئه لجلوس التخت. وركب هو صبيحة ذلك اليوم ووقف بالرميلة عند مصلى العيد. وتناول قطعة من ثوب فنصبها لواء، وكان صبيان المدينة قد شرعوا في اتخاذ الدبابدب والطبيلات للعيد فأمر بتناول بعضها منهم. وهرعت بين يديه وتسائل الناس إليه من كل أوب، ونزل من كان بطباق القصر وغرفه وبالقاهرة من المماليك، واجتمعوا إليه حتى كظ ذلك الفضاء. وجاءوا تعادي بهم الخيل فاستغلظ لفيهم، ثم اقتحم القلعة في جمعه من باب الاصطبل إلى بيت مكفوله ولي العهد أمير علي عند باب السماترة يطلبونه، وقضوا على زمام الذود وكانوا عدة حتى أحضروا ولي العهد وجاءوا به على الأكتاف إلى الإيوان فأجلسوه على التخت، وأحضروا أيدير نائب القلعة فبايع له. ثم أنزلوه إلى باب الاصطبل وأجلسوه هناك على الكرسي. واستدعى الأمراء القائمين بالقاهرة فبايعوه، وحبس بعضهم بالقلعة. وبعث أكرمر الحلي إلى الصعيد يستكشف أحواله، واختص منهم أيبك فجعله رديفاً في دولته. وباتوا كذلك وأصبحوا يسائلون الركبان ويستكشفون خبر السلطان. وكان السلطان لما انهزم من العقبة سار ليلتين وجاء إلى البركة آخر الثانية، وجاء الخبر بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي، وتشاوروا فأشار محمد بن عيسى بقصد الشام، وأشار آخرون بالوصول إلى القاهرة. وسار السلطان إليها واستمروا إلى قبة النصر، وتهافتوا عن رواحهم باطلاق وقد أنهكهم التعب وأضناهم السير، فما هو إلا أن وقعوا لمناكبهم وجنوبهم وغشيم النعاس. وجاء الناصري إلى السلطان الأشرف من بينهم فتنصح له بأن يتسلل من أصحابه، ويتسرب في بعض البيوت بالقاهرة حتى يتبين له وجه مذهبه، وانطلق بين يديه فقصد بعض النساء ممن كان ينتاب قصده، واختفى فظن النجاة في ذلك وفارقه الناصري يطلب نفقا في الأرض، وقد كانوا بعثوا من قبة النصر بعض المماليك عنهم روائد يستوضحون الخبر فأصبحوا بالرميلة أمام القلعة وتعرف الناس أنه من الحاج فرفعوه إلى صاحب الدولة، وعرض عليه

العذاب حتى أخبره عن السلطان، وأنه وأصحابه بقبة النصر مصرعين من غشي النوم فطار إليهم شراد العسكر مع استدمر السرغتمشي، والجمهور في ساقته حتى وقفوا عليهم في مضاجعهم. وافتقدوا السلطان من بينهم وقتلوهم جميعاً وجاءوا برؤسهم ووجموا لافتقاد السلطان ونادوا بطلبه، وعرضوا العذاب والقتل على محمد بن عيسى صاحب الدرك، فتبرأ وحبس رهينة من ثقاته. ثم جاءت امرأة إلى أبيك فدلته عليه في بيت جارتها فاستخرجوه من

ذلك البيت، ودفعوه إلى أيبك فامتحنه حتى دلهم على الذخيرة والأموال. ثم قتلوه خنقا وجددوا البيعة لابنه الأمير علي ولقبوه المنصور. واستقل بدولته كافله من قبل الأميرة قرطاي ورديفه أيبك البدري، واستقر الأمر على ذلك.

مجيء طشتمر من العقبة وانهزامه ثم مسيره إلى

الشام

وتجديد البيعة للمنصور بأذن الخليفة وتقديمه:

لما انهزم السلطان من العقبة ومضى إلى القاهرة اجتمع أهل الثورة على قشتمر،

وألقوا إليه القيادة ودعوا الخليفة إلى البيعة له فتفادى من ذلك. ومضى الحاج من مكة مع أمير المحمل بهادر الجمالي على العادة. ورجع القضاة والفقهاء إلى القدس، وتوجه طشتمر والأمراء إلى مصر لتلافي السلطان أو تلفه فلقبهم خبر مهلكه بعجروود، وما كان من بيعة ابنه واستقلال قرطاي بالملك فثاب لهم رأي آخر في حرب أهل الدولة، وساروا على التعبية وبعثوا في مقدمتهم قطلقتمر. ولقي طلائع مصر فهزمهم وسار في اتباعهم إلى ساحة القلعة فلم يشعر إلا وقد تورط في جمهور العسكر فتقبضوا عليه. وكان قرطاي قد بعث عن اقتمر الصاحبى الحنبلى من الصعيد، ويرجع في العساكر لحرب قشتمر وأصحابه فبرز إليهم والتقوا في ساحة القلعة. وانهزم قشتمر إلى الكيمان بناحية مصر؛ ثم استأمن فأمنوه واعتقلوه. ثم جمع الناس ليوم مشهود، وحضر الخليفة والأمراء والقضاة والعلماء وعقد الخليفة للمنصور بن الأشرف وفوض إليه. وقام قرطاي بالدولة وقسم الوظائف فولى قشتمر اللفاف واستأمر السرغتمشي أمير سلاح، وقطلوبغا البدري أمير مجلس، وقرطاي الطازي رأس نوبة وأياس السرغتمشي دوادار، وأيبك البدري أمير الماخورية، وسردون جركس أستاذ دار، واقتمر الحنبلى نائباً وجعل له الإقطاع للأجناد والأمراء والنواب. وأفرج عن طشتمر العلائى الدوادار وأقطعه الإسكندرية وأحضر بنىء الملك الناصر من الكرك مع حافظهم سردون الشيوخونى وولاه حاجبا، وكذلك قلوط السرغتمشي،

وأصاب الناس في آخر السنة طاعون إلى أول سنة تسع وسبعين، فهلك طشتمر اللغاف الأتابك، وولي مكانه قرطاي الطازي في وظيفته. واستدعي بييقا الناصري من الشام فاخصه الأمير الكبير قرطاي بالمخالصة والمشاورة.

نكبة قرطاي واستقلال أيبك بالدولة ثم مهلكه:

كان أيبك الغزي هذا قد ردف قرطاي في حمل الدولة من أول ثورتهم

وقيامهم

على

السلطان، فخالصه وخلطه بنفسه في الإصهار إليه. وكان أيبك يروم الإستبداد بشأن أصحابه، وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته وانقسامه مع ندمائه فعمل قرطاي في صفر سنة تسع وسبعين ضيافة في بيته، وجمع ندماءه مثل سودون جركس ومبارك الطازي وغيرهم. وأهدى له أيبك نبذا أذيب فيه بعض المرققات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم السكر على أنفسهم ولم يفيقوا. فركب أيبك من ليلته، وأركب السلطان المنصور معه واختار الأمر لنفسه، واجتمع إليه الناس وأفاق قرطاي بعد ثلاث وقد انحلت عنه العقدة، واجتمع الناس على أيبك فبعث إليه قرطاي يستأمن فأمنه، ثم قبض عليه فسيره إلى صفد، واستقل أيبك بالملك والدولة. ثم بلغه منتصف صفر من السنة انتقاض طشتمر بالشام وانتقاض الأمراء هنالك في سائر الممالك على الخلاف معه، فنادى في الناس بالمسير إلى الشام فتجهزوا وسرح المقدمة آخر صفر مع ابنه أحمد وأخيه قطلوفجا، وفيها من ممالিকে وممالك السلطان وجماعة من الأمراء كان منهم الأميران برقوق وبركة المستبدان بعد ذلك. ثم خرج أيبك ثاني ربيع في الساقه بالسلطان والأمراء والعساكر وانتهوا إلى بليس. وثار الأمراء الذين كانوا مع أخيه في المقدمة ورجع إليه منهزماً فأجفل راجعاً إلى القلعة بالسلطان والعساكر. وخرج عليه ساعة وصوله يوم الإثنين جماعة من الأمراء، وهم قطلتمر العلاني الطويل والطنبغا السلطاني والنعناع وواعدوه قبة النصر، فسرح إليهم العساكر مع أخيه قطلوفجا فأوقعوا به وقبضوا عليه. وبلغ الخبر إلى أيبك فسرح من حضره من الأمراء للقائهم، وهم أيدمر الشمسي واقطمر عبد الغني وبهادر الجمالي ومبارك الطازي في آخرين. ولما تواروا عنه ركب هو هارباً إلى كيما مصر، واتبعه أيدمر القنائي فلم يقف له على خير. ودخل الأمراء من قبة النصر إلى الاسطبل، وأمضوا الأمراء إلى قطلتمر العلاني وهم يحاذونه، وأشير عليه بخلع المنصور، والبيعة لمن يقوم على هذا الأمر من أبناء السلطان فأبى. ثم وصل صبيحة الثلاثاء الأمراء الذين ثاروا فجاء أخو أيبك في مقدمة العسكر، وفيهم بيقا الناظري ودمرداش اليوسفي، وبلاط من أمراء الألوف وبرقوق وبركة وغيرهما من الطلخامات فنازعوهم الأمر وغلبوهم عليه، وبعثوا بهم إلى الإسكندرية معتقلين. وفوض الأمراء

إلى بيبقا الناظري فقام بأمرهم وهو شعاع وآراؤهم مختلفة. ثم حضر يوم الأحد التاسع مع ربيع أيبك صاحب الدولة، وظهر من الاختفاء، وجاء إلى بلاط منهم وأحضره عند بيبقا الناظري فبعث به إلى الإسكندرية فحبسه بها وكان بيبقا الناظري يختص برقوق وبركة بالمفاوضة استرابة بالآخرين، فاتفق رأيهم على أن يستدعى طشتمر من الشام وينصبوه للإمارة فبعثوا إليه بذلك وانتظروه.

استبداد الاميرين أبي سعيد برقوق وبركة بالدولة من بعد أيبك

ووصول طشتمر من الشام وقيامه بالدولة ثم نكبته:

لما تغلب هؤلاء الأمراء على الدولة ونصبوا بيبقا الناظري، ولم يمضوا له الطاعة

بقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة. وكان برقوق وبركة أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير، وكان الناظري يخالصهما كما مر فتفاوضوا في القبض على هؤلاء المتصدين للمنازعة، وكبح شكائهم وهم دمرداش اليوسفي، وترباي الحسيني، وافتقلاص السلجوقي، واستدمر بن العثماني في آخرين من نظرائهم. وركبوا منتصف صفر، وقبضوا عليهم أجمعين وبعثوا بهم إلى الإسكندرية فحبسوهم بها، واصطفوا بلاطاً منهم وولوه الإمارة وخلطوه بأنفسهم، وأبقوا بيبقا الناظري على أتاكبته كما كان، وانزلوه من القلعة فسكن بيت شيخو قبالتة، وولى برقوق أمير الماخورية ونزل باب الاصطبل، وولى بركة الجوباني أمير مجلس، واستقرت الدولة على ذلك. وكان طشتمر نائب الشام قد انتقض واستبد بأمره وجمع عساكر الشام وأمراءه، واستنفر العرب والتركمان وخيم بظاهر دمشق يريد السير إلى مصر. وبرز أيبك من مصر بالسلطان والعسكر يريد الشام لمحاربتة فكان ما قدمناه من نكبته وخروج الأمراء عليه، ومصيرهم إلى جماعة البيقاوية الظافرين بأيبك، ومقدمهم بيبقا الناظري. ثم تفاوض بيبقا الناظري مع برقوق وبركة في استدعاء طشتمر فوافقاه ونظراه رأياً وفيه طلب الصلح من الذين معه وحسم الداء منه بكونهم في مصر فكتبوا إليه بالوصول إلى مصر للأتابكية وتدبير الدولة، وأنه شيخ البيقاوية وكبيرهم فسكنت نفسه لذلك، ووضع أوزار الفتنة وسار إلى مصر فلما وصلها اختلفوا في أمره وتعظيمه. وأركبوا السلطان إلى الزيدانية لتلقيه ودفعوا الأمراء إليه. وأشاروا له إلى الأتابكية ووضعوا زمام الدولة في يده فصار إليه التولية والعزل والخل والعقد. وولى بيبقا الناظري أمير سلاح مكان سباطا، وبعثوا بلاطاً إلى الكرك لاستقلال طشتمر بمكانه. وولى بندمر الخوارزمي نائباً

بدمشق على سائر وظائف الدولة وممالك الشام كما اقتضاه نظره. ووافق عليه أستاذ دار برقوق وبركة، وولى أيبك اليوسفي فرتب برقوق رأس نوبة مكان الناظري. واستمر الحال على ذلك، وبرقوق وبركة أثناء هذه الأمور يستكثران من الممالك استغلاظاً لشوكتهما، واكتناًفاً لعصبيتهما أن يمتد الأمير إلى مراتبهما، فيبذلان الجاه لتابعهما، ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة إليهما وإلى أبوابهما. وانصرفت الوجوه عن سواهما. وارتاب طشتمر بنفسه في ذلك وأغراه أصحابه بالتوثب بهذين الأميرين

فلما كان ذو الحجة سنة تسع وسبعين استعجل أصحابه على غير روية، وبعثوا إليه فأحجم وقعد عن الركوب. واجتمع برقوق وبركة بالاصطبل فركن إليه، وقاتل مماليك طشتمر بالرميلة ساعة من نهار وانهمزوا وافترقوا واستأمن طشتمر فأمنوه واستدعوه إلى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه منهم : أطلمش الأرغوني ومدلان الناظري وأمير حاج بن مغلطاي ودواداره أرغون. وبعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها. وبعث معهم ببيقا الناصري كذلك. ثم أفرج عنه لأيام وبعثه نائبا عن طرابلس. ثم أفرج عن طشتمر بعد ذلك إلى دمياط، ثم إلى القدس إلى أن مات سنة سبع وثمانين. واستقامت الدولة للأميرين بعد اعتقالهما، وخلت لهما من المنازعين. وولى الأمير برقوق أتابكا وولى الماخورية الجابي الشمسي، وولى قريبه أنيال أمير سلاح مكان ببيقا الناصري، وولى اقمتر العثماني لوادار مكان أطلمش الأرغوني. وولى الطنبا الجوباني رأس نوبة ثانيا ودمرداش أمير مجلس. وتوفي ببيقا النظامي نائب حلب فولى مكانه عشقتمر المارداني. ثم استأذن عشقتمر فأذن له وحبس بالإسكندرية وولى بحلب تمرتاش الحسيني الدمرداشي. ثم أفرج عنه وأقام بالقدس قليلا. ثم استدعاه بركة وأكرم نزله وبعثه نائبا إلى حلب.

ثورة انيال ونكبته:

كان أنيال هذا أمير سلاح وكان له مقام في الدولة وهو قريب الأمير برقوق، وكان

شديد الإنحراف على الأمير بركة، ويحمل قريبه على منافرته ولا يجيبه إلى ذلك فاعتزم على الثورة، وتحين لها سفر الأمير بركة إلى البحيرة يتصيد، فركب الأمير برقوق في بعض تلك الأيام متصيда بساحة البلد، فرأى أن قد خلا له الجو فركب وعمد إلى باب الاصطبل فملكه، ومعه جماعة من مماليكه ومماليك الأمير برقوق. وتقبضوا على أمير الماخورية جركس الخليلي. واستدعوا السلطان المنصور ليظهره للناس فمنعه المقدمون من باب الستارة. وجاء الأمير برقوق من صيده ومعه الأتابك الشمسي فوصلوا إلى منزله خارج القلعة، وافرغوا السلاح على سائر مماليكهم، وركبوا إلى ساحة الاصطبل. ثم قصدوا إلى الباب فأحرقوه وتسلق الأمير

قرطاي المنصوري من جهة باب السر وفتح له فدخلوا منه، ودافعوا أنيال وانتقض عليه المماليك الذين كانوا معه من ممالك الأمير برقوق. ورموه بالسهام فانهزم ونزل إلى بيته جريحاً. وأحضر إلى الأمير برقوق فاعتذر له بأنه لم يقصد بفعلته إلا التغلب على بركة فبعث به إلى الإسكندرية معتقلاً، وأعاد بيبقا الناصري أمير سلاح كما كان، واستدعي لها من نيابة طرابلس

. ووصل الخبر إلى بركة فأسرع الكر من البحيرة وانتظم الحال، ونظروا في الوظائف التي خلت في هذه الفتنة فعمروها بمن يقوم بها. واختصوا بها من حسن غناؤه في هذه الواقعة مثل قدم وقرط وذلك سنة إحدى وثمانين. وأقام أنيال معتقلا بالإسكندرية. ثم أفرج عنه في صفر سنة إثنين وثمانين، وولى على طرابلس. ثم توفي منكلي بقا الأحمدى نائب حلب فولى أنيال مكانه. ثم قبض عليه آخر السنة وحبس بالكرك وولى مكانه ببيقا الأحمدى فولى مكانه بدمر الخوارزمي. ثم توفي سنة إحدى وثمانين جبار بن المهنا أمير العرب بالشام فولى مكانه معقل بن فضل ابن عيسى وزامل بن موسى بن عيسى شريكين، ثم عزلا وولي بعبر بن جبار.

ثورة بركة ونكبته واستقلال الأمير برقوق بالدولة:

كان هذا الأمير بركة يعادل الأمير برقوق في حمل الدولة كما ذكرناه، وكان أصحابه يقوضون إليه الاستبداد في الأموال. وكان الأمير برقوق كثير التثبيت في الأمور والميل إلى المصالح فيعارضهم في الغالب، ويضرب على أيديهم في الكثير من الأحوال فغضوا بمكانه، وأغروا بركة بالوثوب والاستقلال بالأمر وسعوا عنده بأشمس من كبار أصحاب الأمير برقوق، وأنه يحمل برقوق على مقاطعة بركة ويفسد ذات بينهما، وأنه يطلب الأمر لنفسه. وقد اعتزم على الوثوب عليهما فجاء بركة بذلك إلى الأمير برقوق وأراد القبض على أشمس فمنعه الأمير برقوق ودفع عنه، وعظم انحراف بركة على أشمس ثم عن الأمير برقوق. وسعى في الإصلاح بينهما الأكبر حتى كمال الدين شيخ التكية، والخلدي شيخ الصوفية من أهل خراسان. وجاءوا بأشمس إلى بركة مستعتباً فأعتبه وخلع عليه. ثم عاود انحرافه ثانية فمسح أعطافه، وسكن وهو مجمع الثورة والفتك. ثم عاود حاله تلك الثالثة. واتفق أن صنع في بيت الأمير برقوق لسرور وليمة في بعض أيام الجمعة في شهر ربيع سنة إثنين وثمانين، وحضر عنده أصحاب بركة كلهم وأهل شوكته، وقد جاءه النصيح بأن بركة قد أجمع الثورة غداة يومه فقبض الأمير برقوق على من كان عنده من أصحاب بركة ليقص جناحه منهم. وأركب حاشيته للقبض عليه، وأصعد بدلان الناصري على مأذنة مدرسة حسن فنضحه بالنبل في اصطبله، وركب بركة إلى قبة النصر وخيم بها، ونودي في

العامه بنهب بيوته فنهبوها للوقت وخربوها. وتحيز إليه ببيقا الناصري فخرج معه، وجلس الأمير برقوق بباب القلعة من ناحية الاصطبل، وسرح الفرسان للقتال. واقتتلوا عامه يومهم فزحف بركة على تعبيتين إحداهما لبيبقا الناصري. وخرج الأق الشعباني للقاءه وأشمس للقاء ببيقا الناصري فانهزم أصحاب بركة، ورجع إلى قبة النصر، وقد أثخنوا بالجراح،

وتسلل أكثرهم إلى بيته وأقام الليل، ثم دخل إلى جامع البلدة وبات به. ونمي إلى الأمير برقوق خبره فأركب إليه الطنبقا الجوباني وجاء به إلى القلعة. وبعث به الأمير برقوق إلى الإسكندرية فحبس بها إلى أن قتله النائب بها صلاح الدين بن عزام، وقتل به في خبر يأتي شرحه إن شاء الله تعالى. وتقبض على بيبقا الناصري وسائر شيعته من الأمراء، وأودعهم السجون إلى أن استحالت الأحوال، وولى وظائفهم من أوقف عليه نظره من أمراء الدولة. وأفرج عن أنيال الثائر قبله، وبعثه نائبا على طرابلس، واستقل بحمل الدولة، وانتظمت به أحوالها. واستراب سندمر نائب دمشق لصحابته مع بركة فتقبض عليه وعلى أصحابه بدمشق، وولي نيابة دمشق عشتمر، ونيابة حلب أنيال. وولى أشمس الأتابكية مكان بركة والأق الشعباني أمير سلاح والطنبقا الجوباني أمير مجلس، وأبقا العثماني دودار، وجركس الخليلي أمير الماخورية، والله تعالى ولي التوفيق.

انتقاض أهل البحيرة وواقعة العساكر :

كان هؤلاء الطواعن الذين عمروا الدولة من بقايا هوارة ومزاته وزناته يعمرونها عن تحت أيديهم من هذه القبائل وغيرهم، يقومون بخراج بالسلطان كل سنة في إبانه وكانت الرياسة عليهم حتى في أداء الخراج لبدر بن سلام وآبائه من قبله، وهو من زناته إحدى شعوب لواتة. وكان للبادية المنتبذين مثل أبي ذئب شيخ أحياء مهراة وعسرة، ومثل بني التركية أمراء العرب بعقبة الإسكندرية اتصال بهم لاحتياجهم إلى الميرة من البحيرة. ثم استخدوا لأمراء الترك في مقاصدهم وأموالهم واعتزوا بجاههم، وأسفوا على نظائرهم من هوارة وغيرهم. ثم حدثت الزيادة في وظائف الجباية كما هي طبيعة الدولة فاستثقلوها وحدثتهم أنفسهم بالإمتناع منها لما عندهم من الاعتزاز فأرهبوا في الطلب، وحبس سلام بالقاهرة، وأجفل ابنه بدر إلى الصعيد بالقبلية، واعترضته هناك عساكر السلطان فقاتلهم وقتل الكاشف في حربه. وسارت إليه العساكر سنة ثمانين مع الأق الشعباني وأحمد بن بيبقا وأنيال قبل ثورته فهربوا وعاثت العساكر في مخلفهم ورجعوا. وعاد بدر إلى البحيرة، وشغلت الدولة عنهم بما كان من ثورة أنيال وبركة بعده، واتصل فساد بدر وامتناعه فخرجت إليه العساكر مع

الأتابك أشمس والأمير سلام والجوباني أمير مجلس وغيرهم من الأمراء الغربية. ونزلت العساكر البهيرة، واعتزم بدر على قتالهم فجاءهم النذير بذلك، فانتبذوا عن الخيام وتركوها خاوية. ووقفوا على مراكزهم حتى توسط القوم المخيم وشغلوا بنهبه، فكرت عليهم العساكر فكادوا

يستلحمونهم، ولم يفلت منهم إلا الأقل. وبعث بدر بالطاعة، واعتذر بالخوف وقام بالخراج فرجعت العساكر، وولى بكتمر الشريف على البحيرة. ثم استبدل منه بقرط بن عمر. ثم عاد بدر إلى حاله فخرجت العساكر فهرب أمامها، وعات القرط فيهم وقتل الكثير من رجالهم وحبس آخرين، ورجع عن بدر أصحابه مع ابن عمه ومات ابن شادي، وطلب الباقي الأمان فأمنوا وحبس رجال منهم، وضمن الباقيون القيام بالخراج. واستأمن بدر فلم يقبل فلحق بناحية الصعيد، واتبعته العساكر؛ فهرب واستيخ مخلفه وأحياؤه ولحق ببرقة، ونزل على أبي ذئب فأجاره، وأستقام أمر البحيرة. وتمكن قرط من جبايتها، وقتل رحاب وأولاد شادي. وكان قرطاي يستوعب رجالهم بالقتل. وأقام بدر عند أبي ذئب يتردد ما بين أحيائه وبين الواحات، حتى لقيه بعض أهل الثأر عنده فثأروا منه سنة تسع وثمانين، وذهب مثلا في الآخرين، والله تعالى أعلم.

مقتل بركة في محبسه وقتل ابن عزام بثأره:

كان الأمير بركة استعمل أيام إمارته خليل بن عزام أستاذ داره، ثم اتهمه في ماله وسخطه ونكبه، وصادره على مال امتحنه عليه. ثم أطلقه فكان يطوي له على النكت. ثم صار بركة إلى ما صار إليه من الاعتقال بالإسكندرية، وتولى ابن عزام نيابتها فحاول على حاجة نفسه في قتل بركة. ووصل إلى القاهرة متبرئا من أمره متخوفا من مغبته ورجع. وقد طوى من ذلك على الدغل. ثم حمله الحقد الكامن في نفسه على اغتياله في جنح الليل فأدخل عليه جماعة متسلحين فقتلوه، وزعم أنه أذن له في ذلك. وبلغ الخبر إلى كافل الدولة الأمير برقوق، وصرح مماليكه بالشكوى إليه فأنكر ذلك وأغلظ على ابن عزام. وبعث دواداره الأمير يونس يكشف عن سببه وإحضار ابن عزام فجاء به مقيدا، وأوقفه على شنيع مرتكبه في بركة فحلف الأمير ليقادن منه به. وأحضر إلى القلعة في منتصف رجب من سنة إثنين وثمانين، فضرب بباب القلعة أسواطاً. ثم حمل على جمل مشتهرا وأنزل إلى سوق الخيل فتلقيه مماليك بركة فتناولوه بالسيوف، إلى أن تواقعت أشلاؤه بكل ناحية وكان فيه عظة لمن يتعظ، أعادنا الله من درك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء انتهى.

وفاة السلطان المنصور علي بن الاشرف وولاية الصالح امير حاج:

كان هذا السلطان على بن الأشرف قد نصبه الأمير قرطاي في ثورته
على أبيه الأشرف

وهو ابن إثنتي عشرة سنة، فلم يزل منصورا والأمر ينتقل من دولة إلى دولة كما ذكرناه إلى أن هلك لخمس سنين من ولايته في صفر سنة ثلاث وثمانين فحضر الأمير برقوق، واستدعى الأمراء واتفقوا على نصب أخيه أمير حاج، ولقبوه الصالح وأركبوه إلى الإيوان فأجلسوه على التخت. وقلده الخليفة على العادة، وجعل الأمير برقوق كافله في الولاية والنظر للمسلمين لصغره حينئذ عن القيام بهذه العهدة. وأفتى العلماء يومئذ بذلك، وجعلوه من مضمون البيعة، وقرىء كتاب التقليد على الأمراء القضاة والخاصة والعامّة في يوم مشهود، وانفض الجمع وانعقد أمر السلطان وبيعته، وضرب فيها للأمير برقوق بسهم والله تعالى مالك الأمور.

وصول أنس الغساني والد الأمير برقوق وانتظامه

في الامراء

أصل هذا الأمير برقوق من قبيلة جركس الموطنين ببلاد الشمال في الجبال المحيطة بوطء القفجاق والروس واللان من شرقيها المطلة على بسائطهم. ويقال إنهم من غسان الداخلين إلى بلاد الروم مع أميرهم جبلة بن الأيهم، عندما أجفل هرقل إلى الشام، وسار إلى القسطنطينية. وخبر مسيره من أرض الشام، وقصته مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه متناقلة معروفة بين المؤرخين. وأما هذا الرأي فليس على ظاهره، وقبيلة جركس من الترك معروفة بين النساين، ونزلهم بتلك المواطن قبل دخول غسان. وتحقيق هذا الرأي أن غسان لما دخلوا مع جبلة إلى هرقل أقاموا عنده ويئسوا من الرجوع لبلادهم. وهلك هرقل واضطرب ملك الروم، وانتشرت الفتنة هنالك في ممالكهم. واحتاجت غسان إلى الحلف للمدافعة في الفتن، وحالفوا قبائل جركس، ونزلوا في بسيط جبلهم من جانبه الشرقي مما يلي القسطنطينية، وخالطوهم بالنسب والصهر، واندرجوا فيهم حتى تلاشت أحيائهم. وصاروا إلى تلك الأماكن وأووا من البسائط إلى الجبال مع جركس فلا يبعد مع هذا أن تكون أنسابهم، تداخلت معهم ممن انتسب إلى غسان من جركس وهو مصدق في نسبه، ويستأنس له بما ذكرناه فهو نسبة قوية في صحته والله تعالى أعلم. وجلب هذا الأمير برقوق على عهد الأمير بيبقا

عثمان قراجا من التجار المعروفين يومئذ بتلك الجهات، فملكه بيبقا وربي في اطباق بيته، وأوى من قصده وشد فى الرماية والثقافة. وتعلم آداب الملك وانسلخ من جلده الخشونة، وترشح للرياسة والإمارة والسعادة تشير إليه، والعناية الربانية تحوم عليه. ثم كان ما ذكرناه من شأن ممالك بيبقا ومهلك

كبيرهم يومئذ استدمر، وكيف تقسموا بين الجلاء والسجن. وكان الأمير برقوق أعزه الله تعالى ممن أدركه التمحيص؛ فلبث في سجن الكرك خمس سنين بين أصحاب له منهم فكانت تهوينا لما لقي من بوائقه، وشكرا له بالرجوع إلى الله ليتم ما قدر الله فيه من حمل أمانته واسترعاء عباده. ثم خلاص من ذلك المحبس مع أصحابه، وخلا سبيله فانطلقوا إلى الشام، واستخلصهم الأمير منجك نائب الشام يومئذ. وكان بصيرا مجريا فألقى محبته وعنايته على هذا الأمير لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة. ولم يزل هناك في خالسته إلى أن هجس في نفس السلطان الأشرف استدعاه المرشحين من مماليكه. وهذا الأمير يقدمهم وأفاض فيهم الإحسان واستضافهم لولده الأمير علي. ولم يكن إلا أيام وقد انتقض الجاني القائم بالدولة، وركب على السلطان، فأحضرهم السلطان الأشرف وأطلق أيديهم في خيوله المقربة وأسلحته المستجادة فاصطفوا منها ما اختاروه وركبوا في مدافعة الجاني، وصدقوه القتال حتى دافعه على الرمي. ثم اتبعوه حتى ألقى نفسه في البحر فكان آخر العهد به. واحتلوا بمكان من أثره السلطان واختصاصه، فسوغ لهم الإقطاعات وأطلق لهم الجرايات. ولهذا الأمير بين يديه من بينهم مزيد مكانة ورفع محل، إلى أن خرج السلطان الأشرف إلى الحج، وكان ما قدمناه من انتقاض قرطاي واستبداده؛ ثم استبداد أيبك من بعده وقد عظم محل هذا الأمير من الدولة، ونما أعزه وسمت رتبته. ثم فسد أمر أيبك، وتغلب على الأمر جماعة من الأمراء مفترقي الأهواء. وخشي العقلاء انتقاض الأمر وسوء المغبة فبادر هذا الأمير، وتناول الحبل بيده، وجعل طرفه في يد بركة رديفه فأمسك معه برهة من الأيام. ثم اضطرب وانتقض وصار إلى ما صار إليه من الهلاك، واستقل الأمير برقوق بحمل الدولة والعناية الربانية تكفله والسعادة توأخيه وكان من جميل الصنع الرباني له أن كيف الله غريبة في اجتماع شمل أبيه به؛ فقدم وفد التجار بأبيه من قاصية بلادهم بعد أن أعملوا الحيلة في استخلاصه، وتلطفوا في استخراجه، وكان اسمه أنس فاحتفل ابنه الأمير برقوق من مبرته، وأركب العساكر وسائر الناس على طبقاتهم لتلقيه، وأعد الخيام بسرياقوس لنزوله فحضروا هنالك جميعا في ثاني ذي الحجة سنة اثنتين

وثمانين. وجلس الأمير أنس الوافد صدر المجلس، وهم جميعاً حفافيه من القضاة والأمراء، ونصب السماط فطعم الناس وانتشروا. ثم ركبوا إلى البلد وقد زينت الأسواق، وأوقدت الشموع وماجت السكك بالنظارة من عالم لا يحصيهم إلا خالقهم. وكان يوماً مشهوداً. وأنزله بالاصطبل تحت المدينة الناصرية، ونظمه السلطان في أقربائه وبني عمه وبني إخوانه، واجتمع شملهم به وفرض لهم الأرزاق وقررهم في الوظائف. ثم مات هذا الأب الوافد، وهو الأمير

أنس رحمه الله في أواسط ، وثمانين بعد أن أوصى بحجة إسلامه وشرفت مراتب الإمارة بمقامه. ودفنه السلطان بتربة الدوادر يونس. ثم نقله إلى المدفن بجوار المدرسة التي أنشأها بين القصرين سنة ثمان وثمانين، والله يؤتي الملك من يشاء.

خلع الصالح أمير حاج وجلوس برقوق

على التخت واستبداده بالسلطان

كان أهل الدولة من البيقاوية من ولي منهم هذا الأمير برقوق قد طمعوا في الاستبداد، وظفروا بلذة الملك والسلطان، ورتعوا في ظل الدولة والأمان. ثم سمت أحوالهم إلى أن يستقل أميرهم بالدولة، ويستبد بها دون الأصاغر المنتصين بالمملكة. وربما أشار بذلك بعض أهل الفتيا يوم بيعة أمير حاج، وقال لا بد أن يشرك معه في تفويض الخليفة الأمير القائم بالدولة لتشد الناس إلى عقدة محكمة فأمضى الأمر على ذلك، وقام الأمير بالدولة فأنس الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته. واتفق أن جماعة من الأمراء المختصين بهذا الصبي المنصوب غصوا بمكان هذا الأمير وتفاوضوا في الغدر به. وكان متولي ذلك منهم أبقا العثماني دوادر السلطان. ونمي الخبر إليه بذلك فتقبض عليهم، وبعث أبقا إلى دمشق على إمارته، وغرب الآخرين إلى قوص فاعتقلوا هنالك حتى أنفذ الله فيهم حكمه، وأشفق الأمراء من تدبر مثل هؤلاء عليهم وتفاوضوا في محو الأصاغر من الدست وقيامه بأمرهم مستقلا فجمعهم لذلك في تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين. وحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأطبقوا على بيعته، وعزل السلطان أمير حاج فبعث إليه أميرين من الأمراء فأدخلوه إلى بيته، وتناولوا السيف من يده فأحضرها. ثم ركب هذا السلطان من مجلسه بباب الاصطبل وقد لبس شعار السلطة وخلعة الخلافة فدخل إلى القصور السلطانية، وجلس بالقصر الأبلق على التخت، وأتاه الناس ببيعتهم أرسالا. وانعقد أمره يومئذ ولقب الملك الظاهر، وقرعت الطبول وانتشرت البشائر، وخلع على أمراء الدولة مثل أشمس الأتابك والطنبا الجواني أمير مجلس، وجركس الخليلي أمير الماخورية

وسودون الشيخوني نائبا والطبقا المعلم أمير سلاح، ويونس النوروي
دوادار وقردم الحسيني رأس نوبة. وعلى كتابه أوجد الدين بن ياسين كاتب
سره أдал به من بدر الدين بن فضل الله كاتب سر السلطان من قبل،
وعلى جميع أرباب

الوظائف من وزير وكاتب وقاض ومحتسب، وعلى مشاهير العلم والفتيا والصوفية. وانتظمت الدولة أحسن انتظام، وسر الناس بدخولهم في إيالة السلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أو أخيها. وأستأذنه الطنبقا الجوباني أمير مجلس في الحج تلك السنة، وأذن له فانطلق لقضاء فرضه وعاد انتهى، والله تعالى أعلم.

مقتل قرط وخلع الخليفة ونصب ابن عمه الواثق

للخلافة

كان قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة، وكان له إقدام وصرامة رقابهما إلى محل من مرادفة الأمراء في وجوههم ومذاهبهم. ودفع إلى ولاية الصعيد ومحاربة أولاد الكنز من العرب الجائلين في نواحي أسوان فكان له في ذلك غناء وأحسن في تشريدهم عن تلك الناحية. ثم بعث إلى البحيرة واليا عند انتقاض بدر بن سلام وفراره، ومرجع العساكر من تمهيدها فقام بولايتها، وتتبع آثار أولئك المنافقين وحسم عليهم. وحضر في ثورة أنيال فجلا في ذلك اليوم لشهامته وإقدامه. وكان هو المتولي تسور الحائط وإحراق الباب الظهراني الذي ولجوا عليه وأمسكوه فكان يمت بهذه الوسائل أجمع، والسلطان يرعى له إلا أنه كان ظلوما غشوما فكثرت شكايات الرعايا والمتظلمين به فتقبض عليه لأول بيعته وأودعه السجن. ثم عفا عنه وأطلقه، وبقي مابكرا باب السلطان مع الخواص والأولياء، وطوى علالغث وتربص بالدولة. ونمي عنه أنه فاوض الخليفة المتوكل بن المعتضد في الانتقاض والجلاب على الدولة بالعرب المخالفين بنواحي برقة من أهل البحيرة، وأصحاب بدر بن سلام، وأن يفوض الخليفة الأمر إلى سوى هذا السلطان القائم بالدولة. وبأنه داخل في ذلك بعض ضعفاء العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له فأحضرهم من غداته، وعرض عليهم الحديث فوجموا وتناكروا وأقر بعضهم واعتقل الخليفة بالقلعة. وأخرج قرط هذا لوقته فطيف به على الجمل مسمرا ابلاغا في عقابه. ثم سيق إلى مصرعه خارج البلد، وقد بالسيف نصفين. وضم الباقيون إلى السجن، وولى السلطان الخلافة عمر بن إبراهيم الواثق من أقاربه وهو الذي كان الملك الناصر ولى

أباه إبراهيم بعد الخليفة أبي الربيع وعزل عن ابنه أحمد كما مر، وكان هذا كله في ربيع سنة خمس وثمانين، وولي مكانه أخوه زكريا ولقب المعتصم، واستقرت الأحوال إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الناصري واعتقاله

كان هذا الناصري من مماليك ببيقا وأرباب الوظائف في أيامه، وكان له مع السلطان الظاهر ذمة وداد وخلة من لدن المرعى والعشرة، فقد كانوا أترابا بها، وكانت لهم دالة عليه لعلو سنه. وقد ذكرنا كيف استبدوا بعد أبيك ونصبوا الناصري أتابكا ولم يحسن القيام عليها. وجاء طشتمر بعد ذلك فكان معه حتى في النكبة والمحبس. ثم أشخص إلى الشام وولي على طرابلس. ثم كانت ثورة أنيال ونكبته في جمادى سنة إحدى وثمانين فاستقدمهم من طرابلس، وولي أمير سلاح مكان أنيال واستخلصه الأمير بركة وخلطه بنفسه. وكانت نكبته فحبس معه، ثم أشخص إلى الشام. وكان أنيال قد أطلق من اعتقاله وولي على حلب سنة اثنتين وثمانين مكان منكلي بقري الأحمدى فأقام بها سنة أو نحوها. ثم نمي عنه خبر الانتقاض فقبض عليه، وحبس بالكرك. وولى مكانه على حلب ببيقا الناصري في شوال سنة ثلاث وثمانين، وقعد الظاهر على التخت لسنة بعدها، واستبد بملك مصر. وكان الناصري لما عنده من الدالة يتوقف في انفاذ أوامره لما يراه من المصالح بزعمه، والسلطان ينكر ذلك ويحقده عليه. وكان له مع الطنبقا الجواني أمير مجلس أحد أركان الدولة حلف لم يغن عنه، وأمر السلطان بالقبض على سولي بن بلقادر حين وفد عليه بحلب فأبى من ذلك صونا لوفائه بزعمه، ودس بذلك إلى سولي فهرب ونجا من النكبة.

ووفد على السلطان سنة خمس وثمانين وجدد حلفه مع الجواني ومع أشمس الأتابك، ورجع إلى حلب. ثم خرج بالعساكر إلى التركمان آخر سنة خمس وثمانين دون إذن السلطان فانهزم وفسدت العساكر، ونجا بعد ثلاثة جريحا وأحقد عليه السلطان هذه كلها. ثم استقدمه سنة سبع وثمانين فلما انتهى إلى سرياقوس تلقاه بها أستاذ دار فتقبض عليه، وطير به إلى الإسكندرية فحبس بها عامين، وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر، وكان عيبة نصح للسلطان وعينا على الناصري فيما يأتيه وبذره، لأنه من وظائف الحاجب للسلطان في دولة الترك خطة البريد المعروفة في الدول القديمة فهو بطانة السلطان بما يحدث في عمله، ويعترض شجا في صدر

من يروم الانتفاض من ولاته. وكان هذا الحاجب سودون هو الذي ينمي أخباره إلى السلطان ويطلعه على مكامن مكره، فلما حبس الناصري بالإسكندرية ولاه مكانه بحلب وارتاب الجوباني من نكبة الناصري لما كان بينهما من الوصلة والحلف فوجم واضطرب، وتبين السلطان منه النكر فنكبه كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى وأقصاه والله أعلم

اقصاء الجوباني إلى الكرك ثم ولايته على الشام بعد واقعة بندمر

أصل هذا الأمير الجوباني من قبائل الترك وإسمه الطنبقا، وكان من موالي بييقا الخاصكي المستولي على السلطان الأشرف وقد مر ذكره، ربي في قصره وجو عزه ولقن الخلال والآداب في كنفه. وكانت بينه وبين السلطان خلة ومصافاة أكسبتها تلك الكفالة بما كانا رضيعي ثديها، وكوكبي أفقها، وتربي مرقاها. وقد كان متصلاً فيما قبله بينهما من لدن المربي في بلادهم واشتمل بعضهم على بعض، واستحكم الإتحاد حتى ة، لعشرة أيام التمحيض والاغتراب كما مر. فلقد كان معتقلا معه بالكرك أيام المحنة خمساً من السنين أدال الله لهذا السلطان حزنها بالمسرة، والنحوسة بالسعادة والسجن بالملك. وقسمت للجوباني بها شائبة من رحمة الله وعنايته في خدمة السلطان بدار الغربية والمحنة وألقته به في المنزل الخشن لتعظم له الوسائل وتكرم الأذمة والعهود

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يالفهم في المنزل الخشن

ثم كان انطلاقهما إلى الشام ومقامهما جميعاً واستدعاؤهما إلى دار الملك ورقيهما في درج العز والتغريب كذلك، وكان للسلطان أصحاب سراة يمتون إليه بمثل هذه الوسائل وينتظمون في سلكها وكان متميز الرتبة عنهم، سابقا في مرقى درجات العز أمامهم، مجلبا في الحلبة التي فيها طلقهم، إلى أن ظفر بالملك واستولى على الدولة، وهو يستتبعهم في مقاماته ويوطئهم عقبه ويذل لهم الصعاب فيقتحمونها، ويحوز لهم الرتب فيستهمون عليها. ثم اقتعد منبر الملك والسلطان، واستولى على كرسيه، وقسم مراتب الدولة ووظائفها بين هؤلاء الأصحاب. وآثر الجوباني منهم بالصفاء والمرباع فجعله أمير مجلسه ومعناه، صاحب الشورى في الدولة، وهو ثاني الأتابك وتلو رتبته. فكانت له القدم العالية من أمرائه وخلصائه،

والحظ الوافر من رضاه وإيثاره. وأصبح أحد الأركان التي بها عمد دولته بأساطينها، وأرسى ملكه بقواعدها. إلى أن دبت عقارب الحسد إلى مهاده، وحومت شباة السعاية على قرطاسه؟ وارتاب السلطان بمكانه وأعجل الحزم على إمهاله فتقبض عليه يوم الإثنين لسبع بقين من سنة سبع وثمانين، وأودعه بعض حجر القصر عامة يومه.

ثم أقصاه إلى الكرك وعواطف الرحمة تنازعه، وسجايا الكرم والوفاء تقض من سخطه. ثم سمح وهو بالخير أسمح، وجنح وهو إلى الأدنى من الله أمنح، فسرح إليه من الغد بمرسوم النيابة على تلك الأعمال فكانت غريبة لم يسمع بمثلها من حلم

هذا السلطان وأناقته، وحسن نيته وبصيرته، وكرم عهده وجميل وفائه. وانطلقت الألسن بالدعاء له، وامتلت القلوب بالمحبة. وعلم الأولياء والخاصة والشيع والكافة أنهم في كفالة أمن ولطف ومملكة إحسان وعدل. ثم مكث حولا يتعقب أحواله، ويتتبع سيره وأخباره طاوياً شأنه في ذلك عن سائر الأولياء، إلى أن وقف على الصحيح من أمره، وعلم خلوص مصادقته وجميل خلوصه. فأخفق سعي الداعين، وخابت ظنون الكاشحين، وأداله العتبي من العتاب، والرضا من النكري، واعتقد أن يمحو عنه هواجس الاسترابة والاستيحاش، ويرده إلى أرفع الإمارة. وبينما هو يطوي على ذلك ضميرة، ويناجي سره إذ حدثت واقعة بدمر بالشام فكانت ميقاتاً لبدر السعادة وعلماً على فوزه بذلك الحظ كما نذكر إن شاء الله تعالى. وخبر هذه الواقعة أن بدمر الخوارزمي كان نائباً بدمشق، وقد مر ذكره غير مرة وأصله من الخوارزمية أتباع خوارزم شاه صاحب العراق عند استيلاء التتر، وافترقوا عند مهلكه على يد جنكز خان في ممالك الشام، واستخدموا لبني أيوب والترك أول استبدادهم بمصر. وكان هذا الرجل من أعقاب أصلهم، وكان له نجابة جذبت بضبعه، ونصب عند الأمراء من سوقه فاستخدم بها إلى ترشح للولاية في الأعمال، وتداول إمارة دمشق مع منجك اليوسفي وعشقتمر الناصري، وكان له انتقاض بدمشق عند تغلب الخاصكي وحاصره واستنزله بأمانه. ثم أعيد إلى ولايته. ثم تصرمت تلك الدول وتغلب هذا السلطان على الأمر، ورادفه فيه فولوه على دمشق، وكانت صاغيته مع بركة. فلما حدث انتقض بركة كتب إليه وإلى بقري بدمشق أولياؤه هنالك بالاستيلاء على القلعة. وكتب برقوق إلى نائب القلعة بحذرهم فركب جنتمر أخ طاز وابن جرجى ومحمد بيك وقاتلوه ثلاثاً. ثم أمسكوه وقيدوه ومعه بقري بن برقش وجبريل مرتبه، وسيقوا إلى الإسكندرية فحبسوا. فلما قتل بركة أطلق بدمر ومن كان حبس من أصحاب بركة مثل: بيبقا الناصري ودمرداش الأحمدي. ثم استخلصه السلطان برقوق ورده إلى عمله الأول بعد جلوسه على التخت والشام له. وكان جماعاً للأموال شديد الظلامة فيها، متحيراً على استخلاصها من أيدي أهلها بما يطرق لهم من أسبابها العقاب. مصانعا للحاشية بماله من حاميته إلى أن سئم الناس إيالته،

وترحمت القلوب منه. وكان بدمشق جماعة من الموسوسين المسامرين
لطلب العلم بزعمهم، متهمون في عقيدتهم بين مجسم ورافضي وحلولي،
جمعت بينهم أنساب الضلال والحرمان، وقعدوا عن نيل الرتب بما هم فيه.
تلبسوا بإظهار الزهد والنكير على الخلق حتى على الدولة في توسعة بطلان
الأحكام والجباية عن الشرع والسياسة التي تداولها الخلفاء، وأرخص فيها
العلماء وأرباب الفتيا وحملة الشريعة بما تمس إليه الحاجة من

الوازع السلطاني، والمعونة على الدفاع. وقديما نصبت الشرطة الصغرى والكبرى، ووظيفة المظالم ببغداد دار السلام ومقر الخلافة وإيوان الدين والعلم، وتكلم الناس فيها بما هو معروف، وفرضت أرزاق العساكر في أثمان البياعات عند حاجة الدولة الأموية، فليس ذلك من المنكر الذي يعتد بتغييره، فليس هؤلاء الحمقى على الناس بأمثال هذه الكلمات، وداخلوا من في قلبه مرض من الدولة. وأوهموا أن قد توثقوا من الحل والعقد في الإنتقاص فرية انتحلوها، وجمعا أنهوه نهايته. وعدوا على كافل القلعة بدمشق وحاميتها يسألونهم الدخول معهم في ذلك لصحابة كانت بين بعضهم وبينه فاعتقلهم وطاق السلطان بأمرهم. وتحدث الناس أنهم داخلوا في ذلك بدمر النائب بمداخلة بعضهم كابنه محمد شاه. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فارتاب به وعاجله بالقبض والتوثق منه ومن حاشيته. ثم أخرج مستوفي الأموال بالحضرة لاستخلاص ما احتازه من أموال الرعايا، واستأثر به على الدولة وأحضر هؤلاء الحمقى ومن بسوء سيرتهم مقتدون إلى الأبواب العالية فقتلوا في السجون، وكانوا أحق بغير ذلك من أنواع العذاب والنكال. وبعث السلطان لعشقتمر الناصري وكان مقيما بالقدس أن يخرج نائبا على دمشق فتوجه إليها، وأقام رسم الإمارة بها أياما ظهر فيها عجزه، وبين عن تلك الرتبة قعوده بما أصابه من وهن الكبر وطوارئ الزمانة والضعف، حتى زعموا أنه كان يحمل على الفراش في بيته إلى منعقد حكمه، فعندها بعث السلطان عن هذا الأمير الجوباني، وقد خلص من الفتن أبريزه وأينع بنفحات الرضا والقبول عوده، وأفرح بمطالعة الأنس والقرب روعه. فجاء من الكرك على البريد وقد أعدت له أنواع الكرامة، وهيء له المنزل والركاب والفرش والثياب والآنية والخوان والخرثى والصوان، واحتفل السلطان لقدمه وتلقيه بما لم يكن في أمله. وقضى الناس العجب من حلم هذا السلطان وكرم عهده وجميل وفائه، وتحدث به الركبان. ثم ولاه نيابة دمشق وبعثه لكرسيه مطلق اليد ماضي الحكم عزيز الولاية، وعسكر بالزيدانية ظاهر القاهرة ثالث ربيع الأول من سنة سبع وثمانين، وارتحل من الغد وسعادة السلطان تقدمه ورضاه ينقله إلى أن قارب دمشق، والناس يتلقونه أرسالا. ثم دخل المدينة غرة ربيع الثاني وقد احتفل

الناس لقدمه، وغصت السكك بالمتنزهين، وتناول إلى دولته أرباب الحدود. وتحدث الناس بجمال هذا المشهد الحفيل ، وتناقلوا خبره. واستقل بولاية دمشق وكأية السلطان تلاحظه، ومذاهب الطاعة والخلوص تهديه بحسن ذكره. وأفاض الناس الثناء في حسن اختياره وجمال مذهبه، وأقام السلطان بفي وظيفته أحمد ابن الأمير بيبقا فكان أمير مجلس، والله غالب على أمره

هدية صاحب افريقية

كان السلطان لهذا العهد بإفريقية من الموحدين، ومن أعقاب الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، المستبد بإفريقية على بني عبد المؤمن ملوك مراكش أعوام خمس وعشرين وستمائة. وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى ابن إبراهيم أبي زكريا سلسلة ملوك كلهم. ولم تزل ملوك المغرب على القدم ولهذا العهد يعرفون لملوك الترك بمصر حقهم، ويوجبون لهم الفضل والمزية بما خصهم الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين. وكانت المهادة بينهم تتصل بعض الأحيان، ثم تنقطع بما يعرض في الدولتين من الأحوال. وكان لي اختصاص بذلك السلطان ومكان من محبسه، ولما رحلت إلى هذا القطر سنة أربع وثمانين، واتصلت بهذا السلطان بمصر الملك الظاهر سألني عنه لأول لقيه فذكرته له بأوصافه الحميدة، وما عنده من الحب والثناء، ومعرفة حقه على المسلمين أجمع، وعلى الملوك خصوصاً في تسهيل سبيل الحج، وحماية البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، أحسن الله جزاءه ومثوبته ثم بلغني أن السلطان بإفريقية صد أهلي وولدي عن اللحاق بي اغتباطاً بمكان وطلباً لفيئتي إلى بابه، ورجوعي فتطارحت على هذا السلطان في وسيلة شفاعة تسهل منه الأذن فاسعفني بذلك، وخاطبت ذلك السلطان كان الله له، أغبطه بمودة هذا السلطان، والعمل على مواصلته ومهادته كما كان بين سلفهم في الدولتين فقبل مني، وبادر إلى إتخافه بمقربات أفليس عندنا في المغرب تحفة تطرف بها ملوك الشرق إلا الجياد العرب. وأما ما سوى ذلك من أنواع التطرف والتحف بالمغرب فكثير لديهم أمثاله، ويقبح أن يطرف عظماء الملوك بالتأفة المطروح لديهم. واختار لتلك سفينته التي اعدّها لذلك وأنزل بها أهلي وولدي بوسيلة هذا السلطان أيده الله، لسهولة سبيل البحر وقرب مسافته. فلما قاربوا مرسى الإسكندرية عاقتهم عواصف الرياح عن احتلال السفينة، وغرق معظم ما فيها من الحيوان والبضائع، وهلك أهلي وولدي فيمن هلك. ونفقت تلك الجياد وكانت رائعة الحسن صافية النسب، وسلم من ذلك

المهلك رسول جاء من ذلك السلطان لمد العهد. وتقرر المودة فتلقي بالقبول والكرامة، وأوسع النزول والقرى. ثم اعتزم على العودة إلى مرسله فانتقى السلطان ثيابا من الوشي المرقوم في عمل العراق والإسكندرية يفوت القيمة واستكثر منها، واتحف بها السلطان ملك إفريقية على يد هذا الرسول على عادة عظماء الملوك في اتحافهم وهداياهم.

وخاطبت ذلك السلطان معه بحسن الثناء على قصده وجميل موقع هديته من السلطان، واستحكام

مودته له. وأجابني بالعذر من الموقع وأنه مستأنف من الاتحاف للسلطان، واستحكام مودته بما يسره الحال. فلما قدم الحاج من المغرب سنة ثمان وثمانين وصل فيهم من كبار الغرب بدولته، وأبناء الأعظم المستبدين على سلفه عبيد بن القائد أبي عبد الله محمد بن الحكيم بهدية من المقربات، رائقة الحلبي رائعة الأوصاف منتخبة الأجناس والأنساب، غريبة الألوان والأشكال. فاعترضها السلطان وقابلها بالقبول وحسن الموقع. وحضر الرسول بكتابه فقريء وأكرم حامله، وأنعم عليه بالزاد لسفر الحج. وأوصى أمراء المحمل فقضى فرضه على أكمل الأحوال، وكانت أهم أمنياته. ثم انقلب ظافراً بقصده وأعاد السلطان إلى مرسله بهدية نحو من الأولى من أجناس تلك الثياب ومستجادهما مما يجاوز الكثرة ويفوت، واستحكمت عقدة المودة بين هذين السلطانين. وشكرت الله على ما كان فيها من أثر مسعاي ولو قل. وكان وصل في جملة الحاج من المغرب كبير العرب من هلال، وهو يعقوب بن علي بن أحمد أمير رياح الموطنيين بضواحي قسنطينة وبجاية والزاب في وفد من بنيه وأقربائه. ووصل في جملتهم أيضاً عون بن يحيى طالب بن مهلهل من الكعوب أحد شعوب سليم الموطنيين بضواحي تونس والقيروان والجريد وبنو أبيه، فقضوا فرضهم أجمعون، وانقلبوا إلى مواطنهم أواسط شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين، واطردت أحوال هذه الدولة على أحسن ما يكون، والله متولي أمرها بمنه وكرمه انتهى.

حوادث مكة وامرائها

قد تقدم لنا أن ملك مكة سار في هذه الأعصار لبني قتادة من بني مطاعن الهواشم

بني حسن، وذلك منذ دولة الترك. وكان ملكهم بها بدويا، وهم يعطون الطاعة لملك مصر، ويقيمون مع ذلك الدولة العباسية للخليفة الذي ينصبه الترك بمصر إلى أن استقر أمرها آخر الوقت لأحمد بن عجلان من رميثة بن أبي نمي أعوام سنة ستين وسبعمئة بعد أبيه عجلان، فأظهر في سلطان عدلا، وتعففا عن أموال الناس، وقبض أيدي أهل العيث والظلم وحاشيتهم وعبيدهم وخصوصاً عن المجاورين. وأعانه على ذلك ما كان له من الشوكة

بقوة أخواله، ويعرفون بني عمر من اتباع هؤلاء السادة ومواليهم، فاستقام أمره وشاع بالعدل ذكره، وحسنت سيرته. وامتألت مكة بالمجاورين والتجار حتى غصت بيوتها بهم. وكان عنان ابن عمه مقامس بن رميثة ومحمد ابن عمه مقامس بن رميثة ينفسون عليه ما آتاه الله من الخير، ويجدون في أنفسهم إذ ليس يقسم لهم برظاهم في أموال جبايته فتنكروا له. وهموا بالانتقاض فتقبض

عليهم، وكان لهم حلف مع أخيه محمد بن عجلان فراوده على تركهم أو حبسهم فحبسوا ولبثوا في محبسهم ذلك حولا أو فوقه. ثم نقبوا السجن ليلا وفروا فأدركوا من ليلتهم وأعيدوا إلى محبسهم وأفلت منهم عنان بن مقامس، ونجا إلى مصر سنة ثمان وثمانين صريخاً بالسلطان. وعن قليل وصل الخبر بوفاة أحمد بن عجلان على فراشه، وأن أخاه كبيش بن عجلان نصب ابنه محمدا مكانه وقام بأمره، وأنه عمد إلى هؤلاء المعتقلين فسمهم صونا للأمر عنهم لمكان ترشيحهم فنكر السلطان ذلك وسخطه من فعلاتهم وافتياتهم. ونسب إلى كبيش وإنه يفسد بالفساد بين هؤلاء الأقارب. ولما خرج الحاج سنة ثمان وثمانين، أوصى أمير حاج بعزل بالصبي المنصوب، والاستبدال عنه بالجن عنان بن مقامس، والقبض على كبيش. ولما وصل الحاج إلى مكة وخرج الصبي لتلقي المحمل الخلافي، وقد أرصد الرجال حفافيه للبطش بكبيش وأميره المنصوب فقعده كبيش عن الحضور، وجاء الصبي وترجل عن فرسه لتقيل الخف من راحلة المحمل على العادة فوثب به أولئك المرصدون طعنا بالخناجر يظنونهم كبيشا. ثم غابوا فلم يوقف لهم على خبر، وتركوه طريحا بالبطحاء. ودخل الأمير إلى الحرم فطاف وسعى، وخلع على عنان بن مقامس الإمارة على عادة من سلف من قومه. ونجا كبيش إلى جدة من سواحل مكة. ثم لحق بأحياء العرب المنتبذين بيقاع الحجاز صريخا فقعدها عن نصرته وفاء بطاعة السلطان، وافترق أمره وخذله عشيره، وانقلب الأمير بالحاج إلى مصر فعنفه السلطان على قتله الصبي فاعتذر بافتيات أولئك الرجال عليه فعذره. وجاء كبيش بعد منصرف الحاج، وقد انضم إليه أوباش من العرب فقعده بالمرصد يخيف السابلة والركاب والمسافرين. ثم زحف إلى مكة وحاصرها أول سنة تسع وثمانين، وخرج عنان بن مقامس بعض الأيام وبارزه فقتله، واضطرب الأمر بمكة وامتدت أيدي عنان والأشرار معه إلى أموال المجاورين فتسلطوا عليها، ونهبوا زرع الأمراء هنالك، وزرع السلطان للصدقة. وولى السلطان علي بن عجلان، واعتقله حسما لمادة طوارق الفساد عن مكة، واستقر الحال على ذلك إلى أن كانت فتنة الناصر كما نذكر إن شاء الله تعالى انتهى.

انتقاض منطاش بملطية ولحاقه بسيواس ومسير العساكر في طلبه
كان منطاش هذا وتمرتاي الدمرداشي الذي مر ذكره أخوين لتمرارز
الناصرى من موالى الملك

الناصر محمد بن قلاوون، وريبيا في كفالة أمهما. وكان اسم تمرتاي محمدا، وهو الأكبر، واسم منطاش أحمد وهو الأصغر. واتصل تمرتاي بالسلطان الأشرف وترقى في دولته في الوظائف إلى أن ولي بحلب سنة ثمانين، وكانت واقعته مع التركمان. وذلك إنه وفد عليه أمراؤهم فقبض عليهم لما كان من عيئهم في النواحي، واجتمعوا فسار إليهم وأمداه السلطان بعساكر الشام وحماة، وانهزموا أمامهم إلى الدرند. ثم كروا على العساكر فهزموها في المضايق وتوفي تمرتاي سنة إثنين وثمانين، وكان السلطان الظاهر برقوق يرعى لهما هذا الولاء فولى منطاش على ملطية. ولما قعد على الكرسي واستبد بالسلطان بدت من منطاش علامات الخلاف فهم به. ثم راجع ووفد وتصل للسلطان، وكان سودون باق من أمراء الألوف خالصة للسلطان، ومن أهل عصبته. وكان من قبل ذلك في جملة الأمير تمرماي فرعا لمنطاش حق أخيه، وشفع له عند السلطان وكفل حسن الطاعة منه، وأنه يخرج على التركمان المخالفين وبحسم علل فسادهم. وانطلق إلى قاعدة عمله بملطية. ثم لم تزل آثار العصيان بادية عليه، وربما داخل أمراء التركمان في ذلك ونمي الخبر إلى السلطان فطوى له، وشعر هو لذلك فراسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم، وبها قاض مستبد على صبي من أعقاب بني أرشى ملوكها من عهد هلاكو قد اعصوب عليه بقية من أحياء التتر الذين كانوا حامية هنالك مع الشحنة فيها كما نذكره. ولما وصلت رسل منطاش، وكتبه إلى هذا القاضي بادر بإجابته، وبعث رسلا وفداً من أصحابه في إتمام الحديث معه فخرج منطاش إلى لقائهم، واستخلف على ملطية دواداره، وكان مغفلاً فخشي مغبة ما يرومه صاحبه من الانتقاض فلاذ بالطاعة، وتبرأ من منطاش، وأقام دعوة السلطان في البلد. وبلغ الخبر إلى منطاش فاضطرب. ثم استمر وسار مع وفد القاضي إلى سيواس؛ فلما قدم عليه وقد انقطع الحبل في يده أعرض عنه، وصار إلى مغالطة السلطان عما أتاه من مداخلة منطاش، وقبض عليه وحبسه. وسرح السلطان سنة تسع وثلاثين عساكره مع يونس الدوادار وقردم رأس نوبة، والطنبقا الرماح أمير سلاح، وسودون باق من أمراء الألوف. وأوعز الناصري فأتى وطلب أن يخرج معهم بعساكره، وإلى أنيال

اليوسفي من أمراء الألو ف بدمشق وساروا جميعاً . وكان يومئذ ملك التتر بما وراء النهر وخراسان تمر من نسب جفطاي قد زحف إلى العراقيين وأذربيجان، وملك توريز عنوة واستباحها، وهو يحاول ملك بغداد. فسارت هذه العساكر توري بغزوه ودفاعه، حتى إذا بلغوا حلب أتى إليهم الخبر بأن تمر رجع بعساكره لخارج خرج عليه بقاصية ما وراء النهر، فرجعت عساكر السلطان إلى جهة سيواس، واقتحموا تخومها على حين غفلة من أهلها. فبادر القاضي إلى إطلاق منطاش لوقته.

وقد كان أيام حبسه يوسوس إليه بالرجوع عن موالة السلطان وممالاته. ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب حتى جنح إلى قوله فبعث لإحياء التتر الذين كانوا ببلاد الروم فيئة بن أريثا بن أول، فسار إليهم واستجاشهم على عسكر السلطان، وحذرهم استئصال شأفتهم باستئصال ملك ابن أريثا وبلده. ووصلت العساكر خلال ذلك إلى سيواس فحاصروها أياماً وضيقوا عليها، وكادت أن تلقي باليد. ووصل منطاش إثر ذلك بإحياء التتر فقاتلهم العساكر ودافعوهم، ونالوا منهم. وجفى الناصري في هذه الوقائع، وأدرك العساكر الملل والضجر من طول المقام، وبطاء الظفر، وانقطاع الميرة بتوغلهم في البلاد وبعد الشقة، فتداعوا للرجوع ودعوا الأمراء إليه فجنح لذلك بعضهم فانكفئوا على تعبيتهم. وسار بعض التتر في اتباعهم فكروا عليهم واستلحموهم وخلصوا إلى بلاد الشام على أحسن حالات الظهور ونية العود ليحسموا علل العدو، ويمحو أثر الفتنة، والله تعالى أعلم.

نكبة الجوباني واعتقاله بالإسكندرية

كان الأمراء الذين حاصروا سيواس قد لحقهم الضجر والسامة من طول المقام،

وفزع قدم والطبقا المعلم منهم إلى الناصري مقدم العساكر بالشكوى من السلطان فيما دعاهم إليه من هذا المرتكب، وتفاوضوا في ذلك ملياً ، وتداعوا إلى الإفراج عن البلد بعد أن بعثوا إلى القاضي بها واتخذوا عنده يدا بذلك. وأوصوه بمنطاش والإبقاء عليه ليكون لهم وقوفا للفتنة. وعلم يونس الدوادار أنهم في الطاعة فلم يسعه خلافهم ففوض لهم. ولما انتهى إلى حلب غدا عليه دمرداش من أمرائها فنصح له بأن الجوباني نائب بدمشق مداخل للناصر في تمريره في الطاعة، وأنهما مصران على الخلاف. وقفل يونس إلى مصر فقص على السلطان نصيحته، واستدعى دمرداش فشافه السلطان بذلك واطلع منه على جلي الخبر في شأنهما. وكان للجوباني ممالك أوغاد قد أبطرتهم النعمة، واستهواهم الجاه، وشرهوا إلى التوثب وهو يزجرهم فصاروا إلى إغرائه بالحاجب يومئذ طرنطاي، فقعده في بيته عن المجلس السلطاني، وطير بالخبر إلى مصر

فاستراب الجوباني وسابقه بالحضور عند السلطان لينضح عنه ما علق به من الأوهام، وأذن له في ذلك فنهض من دمشق على البريد في ربيع سنة تسعين. ولما انتهى إلى سرياقوس أزعج إليه أستاذ داره بهادر المنجكي فقبض عليه، وطير به السفن إلى الإسكندرية. وأصبح السلطان من الغد فقبض على قردم والطنبقا المعلم، وألحقهما به فحبسوا هنالك جميعاً

. وانحسم ما كان يتوقع من انتقاضهم. وولى السلطان مكان الجوباني بدمشق طرنطاي الحاجب، ومكان قردم بمصر ابن عمه مجماس ومكان المعلم دمرداش، واستمر الحال على ذلك.

فتنة الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان بالكرك:

لما بلغ الناصري بحلب اعتقال هؤلاء الأمراء استتراب واضطرب، وشرع في أسباب الانتقاض، ودعا إليه من يشيع الشر وسماسرة الفتن من الأمراء وغيرهم فأطاعوه، وافتتح أمره بالنكير للأمير سودون المظفري والانحراف عنه لما كان منه في نكبته وإغراء السلطان به ثم ولايته مكانه. ومن وظائف الحاجب في دولة الترك: خطة البريد المعروفة في الدول القديمة، فهو يطالع السلطان بما يحدث في عمله، ويعترض شجى في صدر من يريد الانتقاض من ولاته. فأظلم الجو بين هؤلاء الرهط وبين المظفري، وتفاقم الأمر وطير بالخبر إلى السلطان فأخرج للوقت دواذره الأصغر تلتكتمر ليصلح بينهما، وشمكن الثائرة. وحينما سمعوا بمقدمه ارتابوا وارتبكوا في أمرهم، وقدم تلتكتمر فتلقاه الناصري وألقى إليه كتاب السلطان بالندب إلى الصلح مع الحاجب، والإغضاء له فأجاب بعد أن التمس من حقائق تلتكتمر مخاطبة السلطان وملاطفته للأمراء حتى وقف عليه. ثم غلب عليه أولئك الرهط من أصحابه بالفتك بالحاجب فأطاعهم، وباكرهم تلتكتمر بدار السعادة ليتم الصلح بينهم وتذهب الهواجس والنفرة فدعاه الناصر إلى بعض خلواته. وبينما هو يحدثه وإذا بالقوم قد وثبوا على الحاجب وفتكوا به. وتولى كبر ذلك أنبعا الجوهرى، واتصلت الهيعة فوجم تلتكتمر، ونهض إلى محل نزوله. واجتمع الأمراء إلى الناصري واعصوبوا عليه. ودعاهم إلى الخلعان فأجابوا، وذلك في محرم سنة إحدى وتسعين. واتصل الخبر بطرابلس، وبها جماعة من الأمراء يرومون الانتقاض منهم بدلار الناصري عميد الفتن فتولى كبرها، وجمع الذين تمالؤا عليها وعمدوا إلى الإيوان السلطاني المسمى بدار السعادة، وقبضوا على النائب وحبسوه، ولحق بدلار الناصري في عساكر طرابلس وأمرائها. وفعل مثل ذلك أهل حلب وحمص وسائر ممالك

الشام. وسرح السلطان العساكر لقتالهم. فساروا يتمش الأتابك، ويونس
الدوادار، والخليلي جركس أمير الماخورية وأحمد بن بيبقا أمير مجلس،
وايدكاز صاحب الحجاب فيمن إليهم من العساكر. وانتخب من أبطال
مماليكهم وشجعانهم خمسمائة مقاتل، واستضافهم إلى الخليلي وعقد لهم
لواءه المسمى

بالشاليش، وأزاح عليهم وعلل سائر العساكر. وساروا على التعبية منتصف ربيع السنة. وكان الناصري لما فعل فعلته بعث عن منطاش وكان مقيما بين أحياء التتر منذ رجوع العساكر عن سيواس، فدعاه ليمسك معه جبل الفتنة والخلاف فجاء وملاه مبرة وإحساناً، واستنفر طوائف التركمان والعرب، ونهض في جموعه يريد دمشق، وطرنطاي نائبها يواصل تعريف السلطان بالأخبار، ويستحث العساكر من مصر على نائبها الأمير الصفوي وبينه وبين الناصر علاقة وصحية؛ فاسترابوا به وتقبضوا عليه، ونهبوا بيته وبعثوا به حبيسا إلى الكرك وولوا مكانه محمد باكيش بن جند التركماني، كان مستخدما عند بندمر هو وأبوه، وولى لهذا العهد على نابلس وما يجاورها فنقلوه إلى غزة. ثم تقدموا إلى دمشق واختاروا من القضاة وفدا أوفدوه على الناصري وأصحابه للإصلاح فلم يجيبوا، وأمسكو الوفد عندهم وساروا للقاء. ولما تراءى الجمعان بالمرج نزع أحمد بن بيبقا وايدكاز الحاجب ومن معهما إلى القوم فساروا معهم، واتبعهم مماليك الأمراء، وصدق القوم الحملة على من بقى فانفضوا ولجأ أيتمش إلى قلعة دمشق فدخلها، وكان معه مكتوب السلطان بذلك متى احتاج إليه. وذهب يونس حيران وقد أفرد مماليكه فلقية عنقا أمير الأمراء وكان عقد له بعض النزعات أيام سلطانه فتقبض عليه، وأحيط بجركس الخليلي ومماليك السلطان حوله، وقد أبلوا في ذلك الموقف، واستلحم عامتهم فخلص بعض العدو إليه وطعنه فأكبه، ثم احتز رأسه. وذهب ذلك الجمع شعاعا وافترقت العساكر في كل وجه، وجيء بهم أسرى من كل ناحية. ودخل الناصري وأصحابه دمشق لوقتهم واستولوا عليها، وعاشت عساكرهم من العرب والتركمان في نواحيها. وبعث إليهم عنقا يستأذنهم في أمر يونس فأمر بقتله فقتله وبعث إليهم برأسه. وأوعزوا إلى نائب القلعة بحبس أيتمش عنده، وفرقوا المحبوسين من أهل الواقعة على السجون بقلعة دمشق وصفد وحلب وغيرها. وأظهر ابن باكيس دعوته بغزة وأخذ بطاعتهم، ومر به انبال اليوسفي من أمراء الألوفا بدمشق ناجيا من الوقعة إلى مصر فقبض عليه وحبسه بالكرك. واستعد السلطان للمدافعة وولى دمرداش أتابكا مكان

ايتمش وقرماش الجندار دوادار مكان يونس، وعمر سائر المراتب عن
فقد منها، وأطلق

ال خليفة المعتقل المتوكل بن المعتضد، وأعاده إلى خلافته وعزل
مكانه. وأقام الناصري وأصحابه بدمشق أياما ثم أجمعوا المسير إلى مصر
ونهبوا إليها بجموعهم، وعميت أنباؤهم حتى أطلت مقدمتهم على بليس.
ثم تقدموا إلى بركة الحاج وخيموا بها لسبع من جمادى الأخيرة من السنة.
وبرز السلطان في ممالیکه ووقف

أمام القلعة بقية يومه والناس يتسائلون إلى الناصري من العساكر ومن العامة حتى غصت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الأمراء مع السلطان إلى الناصري فأمنهم وأطلع السلطان على شأنهم، وسارت طائفة من العسكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين إلى السلطان. وارتاب السلطان بأمره وعاین انحلال عقده فدس إلى الناصري بالصلح، وبعث إليه بالملاطفة وأن يستمر على ملكه ويقوم بدولته خدمه وأعوانه. وأشار بأن يتوارى بشخصه أن يصيبه أحد من غير البيقافية بسوء. فلما غشيه الليل أذن لمن بقى معه من مماليكه في الانطلاق ودخل إلى بيته. ثم خرج متنكرا وسرى في غيابات المدينة. وباكرهم الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها، ودعوا أمير حاج ابن الأشرف فأدوه إلى التخت كما كان ونصبوه للملك ولقبه المنصور، وبادروا باستدعاء الجوباني والأمراء المعتقلين بالإسكندرية فأغذوا السير ووصلوا ثاني يومهم. وركب الناصري وأصحابه للقائم وأنزل الجوباني عنده بالاصطبل وأشركه في أمره وأصبحوا ينادون بطلب السلطان الظاهر بقية يومهم ذلك ومن الغد حتى دل عليه بعض مماليك الجوباني وحين رآه قبل الأرض وبالغ في الأدب معه، وحلف له على الأمان، وجاء به إلى القلعة فأنزله بقاعة الغصبة، واشتوروا في أمره. وكان حرص منطاش وزلار على قتله أكثر من سواهما. وأبى الناصري والجوباني إلا الوفاء بما اعتقد معهم واستقر الجوباني أتاك، والناصرى رأس النوبة الكبرى، ودمرداش الأحمدى أمير سلاح، وأحمد بن بيقا أمير مجلس، والأبقا العثماني دوادار، وانبقا الجوهرى أستاذ دار. وعمرت الوظائف والمراتب.

ثم بعثوا زلار نائبا على دمشق وأخرجوه إليها وبعثوا كتبغا البيقافى على حلب، وكان السلطان قد عزله عن طرابلس واعتقله بدمشق، فلما جاء في جملة الناصري بعثه على حلب مكانه. وقبضوا على جماعة من الأمراء فيهم النائب سودون باق وسودون الطرنطاي فحبسوا بعضهم بالإسكندرية، وبعثوا آخرين إلى الشام فحبسوا هنالك وتبعوا مماليك السلطان فحبسوا أكثرهم، وأشخصوا بقيتهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء. وقبضوا على أستاذ دار محمود قهرمان الدولة وقارون القصرى فصادروه على ألف ألف درهم. ثم أودعوه السجن. وهم مع ذلك يتشاورون

في مستقر السلطان بين الكرك وقوص والإسكندرية حتى أجمعوا على الكرك ووروا بالإسكندرية حذرا عليه من منطاش. فلما أزم مسيره قعد له منطاش عند البحر رصدًا وبات عامة ليله، وركب الجواني مع السلطان من القلعة وأركب معه صاحب الكرك موسى بن عيسى في لمة من قومه يوصلونه إلى الكرك. وسار معه برهة من الليل مشيعا. ثم رجع وشعر منطاش من أمره وطوى على الغش وأخذ ثياب الثورة كما يذكر، ونجا السلطان إلى الكرك في

فل من غلمانة ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خواصه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه ممن يرومه بسوء، فتقدمه إلى الكرك وأنزله القلعة وهياً له النزول بما يحتاج إليه، وأقام هنالك حتى وقع من لطائف الله في أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى. وجاء الخبر أن جماعة من مماليك الظاهر كانوا مختلفين منذ الوقعة فاعتزموا على الثورة بدمشق، وأنهم ظفروا بهم وحبسوا جميعاً ومنهم أيقا الصغير، والله تعالى أعلم.

ثورة منطاش واستيلاؤه علي الامر ونكبة الجوباني

وحبس الناصري والامراء البيبقاوية بالاسكندرية:

كان منطاش منذ دخل مع الناصري إلى مصر متربصاً بالدولة طاوياً جوانحه على

الغدر لأنهم لم يوفروا حظه من الاقطاع، ولم يجعلوا له اسماً في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى له الناصري حق خدمته ومقارعتة الأعداء. وكان ينقم عليه مع ذلك إيثاره الجوباني واختصاصه فاستوحش وأجمع الثورة، وثان مماليك الجوباني لما حبس أميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وجاؤوا به في جملته، واشتملوا على منطاش فكان له بهم في ذلك السفر أنس وله إليهم صفو، فداخل جماعة منهم في الثورة وحملهم على صاحبهم، وتطفل على الجوباني في المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته. وكان البيبقاوية جميعاً ينقسمون على الناصري ويرون أنه مقصر في الرواتب والاقطاع، وطووا من ذلك على النكت ودعاهم منطاش إلى التوثب فكانوا إليه أسرع وزينوه له وقعدوا عنه عند الحاجة. ونمي الخبر إلى الناصري والجوباني فعزموا على إشخاص منطاش إلى الشام فتمارض وتخلف في بيته أياماً يطاولمهم ليحكم التدبير عليهم. ثم صدا عليه الجوباني يوم الاثنين وقد أكن في بيته رجالاً للثورة فقبضوا على الجوباني وقتلوه لحينه. وركب منطاش إلى الرميلة فنهب مراكب الأمراء بباب الاصطبل، ووقف عند مأذنة المدرسة الناصرية وقد شحنتها ناشبة ومقاتلة مع أمير من أصحابه، ووقف في حمايتهم، واجتمع إليه

من داخله في الثورة من الأشركية وغيرهم واجتمع إليه من كان بقي من مماليك الظاهر، واتصلت الهيعة فركب الأمراء البيبقاوية من بيوتهم. ولما أفضوا إلى الرميلة وقفوا ينظرون مآل الحال، وبرز الناصري من الاصطبل فيمن حضر، وأمر الأمراء بالحملة عليهم فوقفوا فأحجم هو عن الحملة وتخاذل أصحابه وأصحاب منطاش. ومال إلى الناصري بمماليك الجوباني لنكبة صاحبهم فهددهم منطاش بقتله فافترقوا، وتحاجز الفريقان آخر النهار وباكروا شأنهم من الغد. وحمل الناصري فانهزم. وأقاموا على ذلك ثلاثا

وجموع منطاش في تزايد. ثم انفض الناس عن الناصري عشية الأربعاء لسبعين يوماً من دخول القلعة . واقتحمها عليه منطاش ونهب بيوته.. وخزائنه، وذهب الظاهري حيران وأصحابه يرجعون عمه. وباكراً البيقاوية مجلس منطاش من الغد فقبض عليهم وسيق من تخلف منهم عن الناصري أفاذا، وبعث بهم جميعاً إلى الإسكندرية. وبعث جماعة ممن حبسهم الناصري إلى قوص ودمياط. ثم جدد البيعة لأمير حاج المنصور. ثم نادى في ممالك السلطان بالعرض، وقبض على جماعة منهم وفر الباقون. وبعث بالمحبوسين منهم إلى قوص، وصادر جماعة من أهل الأموال، وأفرج عن محمود أستاذ دار وخلع عليه - ليوليه في وظيفته. ثم بدا له في أمره وعاود مصادرتة وامتحانه واستصفى منه أموالاً عظيمة. يقال ستن قنطاراً من الذهب. ولما استقل بتدبير الدولة عمر الوظائف والمراتب وولى فيها بنظره، وبعث عن الأشقتمري من الشام، وكان أخوه تمرتاي قد آخى بينهما فولاه النيابة الكبرى، وعن استدمر بن يعقوب شاه فجعله أمير سلاح، وعن أتبكا الصفوي فولاه صاحب الحجاب. واختص الثلاثة بالمشورة وأقامهم أركاناً للدولة. وكان إبراهيم بن بطلقتمر أمير جندار قد داخله في الثورة فرعى له ذلك وقدمه في أمراء الألوفا. ثم بلغه أنه تفاوض مع الأمراء في الثورة به واستبداد السلطان فقبض عليه، ثم اشخصه إلى حلب على إمارته هناك، وكان قد اختص أرغون السمندار وألقى عليه محبته وعنايته فغشيه الناس وباكروا بابه وعظم في الدولة صيته. ثم نمي عنه أنه من المداخلين لإبراهيم أمير جندار فسطا به وامتحنه أن له على هؤلاء المداخلين لإبراهيم فلاذ بالإنكار وأقام في محبسه، وأفرج عن سودون النائب فجاى إلى مصر فألزمه بيته واستمر الحال على ذلك انتهى.

ثورة بذلار بدمشق

ولما بلغ الخبر إلى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من في لك وارتاب وداخلته الغيرة، أجمع الانتقاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم إلى الوفاق فأعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم، كان الأمير الكبير بدمشق جنتمر أخو طاز يداخل الأمراء هناك في التوثب به وتوثق منهم للدولة وبلغ الخبر إلى بذلار فركب في ممالিকে وشيعته يروم

القبض عليه فلم يتمكن من ذلك، واجتمعوا وظاهرهم عامة دمشق عليه، فقاتلوه ساعة من نهار. ثم أيقن بالغلب والهلكة فألقى بيده وقبضوا عليه، وطيروا بالخبر إلى منطاش وهو صاحب الدولة فأمر باعتقاله وهلك مريضاً في محبسه، وولى منطاش جنتمر نيابة دمشق، واستقرت الأحوال على ذلك. والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

خروج السلطان من الكرك وظفره بعساكر الشام

وحصاره دمشق

ولما بلغ الخبر إلى السلطان الظاهر بالكرك بأن منطاش استقل بالدولة وحبس البيقاوية جميعا وأدال منهم بأصحابه أهمته نفسه وخشي غائلته، ولم يكن عند منطاش لأول استقلاله أهم من شأنه وشأن السلطان فكتب إلى حسن الكشكي نائب الكرك بقتله، وقد كان الناصري أوصاه في وصيته حين وكله به أن لا يمكنه ممن يرومه بسوء فتجافى عن ذلك واستدعى البريدي، وفاوض أصحابه وقاضي البلد وكاتب السر فأشاروا بالتحرز من دمه جهد الطاقة. فكتب إلى منطاش معذرا بالخطر الذي في ارتكابه دون إذن السلطان والخليفة فأعاد عليه الكتاب مع كتاب السلطان والخليفة بالإذن فيه، واستحثه في الإجهاز عليه فأنزل البريدي وعلله بالوعد وطاوله يرجو المخلص من ذلك، وكانوا يطوون الأمر عن السلطان شفقة وإجلالاً فشعر بذلك، وأخلص اللجأ إلى الله والتوسل بإبراهيم الخليل لأنه كان يراقب مدفنه من شباك في بيته. وانطلق غلمانة في المدينة حتى ظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان، وأفاضوا فيهم فأجابوا وصدقوا ما عاهدوا عليه. واتعدوا لقتال البريدي، وكان منزله بإزاء السلطان فتوافوا ببابه ليلة العاشر من رمضان وهجموا عليه فقتلوه ودخلوا برأسه إلى السلطان وشفار سيوفهم دامية. وكان النائب حسن الكشكي يفطر على سماط السلطان تأنيسا لهم، فلما رأهم دهش وهموا بقتله فأجاره السلطان، وملك السلطان أمره بالقلعة وبايعه النائب وصعد إليه أهل المدينة من الغد فبايعوه. ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأعطوه طاعتهم، وفشا الخبر في النواحي فتساقط إليه مماليكه من كل جهة، وبلغت أخباره إلى منطاش فأوعز إلى ابن باكيش نائب غزة أن يسير في العساكر إلى الكرك، وتردد السلطان بين لقائه والنهوض إلى الشام. ثم أجمع المسير إلى دمشق فبرز من الكرك منتصف شوال فعسكر بالقبه وجمع جموعه من العرب، وسار في ألف أو يزيدون من العرب والترك وطوى المراحل إلى الشام. وسرح جتتمر نائب دمشق العساكر

لدفاعه فيهم أمراء الشام وأولاد بن دمر فالتقوا بشقحب، وكانت بينهم واقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق، وقتل الكثير منهم وظفر السلطان بهم، واتبعهم إلى دمشق ونجا الكثير منهم إلى مصر. ثم أحس السلطان بأن ابن باكيش وعساكره في اتباعه، فكر إليهم وأسرى ليلته وصبحهم على غفلة في عشر ذي القعدة فانهزموا، ونهب السلطان وقومه جميع ما معهم وامتألت أيديهم واستفحل أمره، ورجع إلى

دمشق ونزل بالميدان. وثار العوام وأهل القبيبات ونواحيها بالسلطان، وقصدوه بالميدان فركب ناجيا وترك أثقاله فنهبها العوام وسلبوا من لقوه من مماليكه، ولحق بقبة بلبغا فأقام بها وأغلقوا الأبواب دونه، فأقام يحاصرهم إلى محرم سنة اثنتين وتسعين. وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك إلى الشام كما نذكره. ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه واحتمل معه ما يزيح علل السلطان من كل صنف وأقام له أبهة. ووصل أنيال اليوسفي وقجماش ابن عم السلطان وجماعة من الأمراء كانوا محبوسين بصفد، وكان مع نائبيها جماعة من مماليك السلطان يستخدمون فغدروا به، وأطلقوا من كان من الأمراء في سجن صفد كما نذكر ولحقوا بالسلطان. وتقدمهم أنيال وهو محاصر لدمشق فأقاموا معه، والله تعالى أعلم.

ثورة المعتقلين بقوص ومسير العساكر إليهم

واعتقالهم:

ولما بلغ الخبر إلى الأمراء المحبوسين بقوص خلاص السلطان من الاعتقال واستيلاؤه على الكرك، واجتماع الناس إليه، فثاروا بقوص أوائل شوال من السنة وقبضوا على الوالي بها وأخذوا من موح القاضي ما كان فيه من المال. وبلغ خبرهم إلى مصر فسرح إليهم العساكر. ثم بلغه أنهم ساروا إلى أسوان وشايعوا الوالي بها حسن ابن قرط فلحن لهم بالوعد، وعرض بالوفاق فطمعوا واعتزموا أن يسيروا من وادي القصب من الجهة الشرقية إلى السويس، ويسيروا من هناك إلى الكرك. ولما وصل خبر بن قرط أخرج منطاش سندمر بن يعقرب شاه ثامن وعشرين من السنة وانكفأ جموعه وسار على العدو الشرقية في جموعه لاعتراضهم فوصل إلى قوص. وبادر ابن قرط فخالفه إلى منطاش بطاعته فأكرمه وردّه على عمله فوافى ابن يعقوب شاه بقوص، وقد استولى على النواحي واستنزل الأمراء المخالفين. ثم قبض عليهم وقتل جميع من كان معهم من مماليك السلطان الظاهر ومماليك ولاة الصعيد. وجاء بالأمراء إلى مصر فدخل بهم

منتصف ذي الحجة من السنة، فأفرج عن أربعة منهم سوماي اللى وحبس
الباقيين. والله تعالى أعلم.

ثورة كمشيقا بحلب وقيامه بدعوة السلطان:

قد كنا قدمنا أن الناصري ولى كمشيقا رأس نوبة نيابة حلب، ولما استقل منطاش بالدولة ارتاب ودعاه بذلار لما ثار بدمشق إلى الوفاق فامتنع. ثم بلغه الخبر بخلص السلطان من الاعتقال بالكرك فأظهر الانتفاض، وقام بدعوة السلطان، وخالفه إبراهيم بن أمير جندا. واعصوب عليه أهل باقوسا من أرباض حلب فقاتلهم كمشيقا جميعا وهزمهم. وقتل القاضي ابن أبي الرضا وكان معه في ذلك الخلاف، واستقل بأمر حلب وذلك في شوال من السنة. ثم بلغه أن السلطان هزم عساكر دمشق وابن باكيش، وإنه مقيم بقبة بلبغا محاصرا لدمشق بعد أن نهبوا أثقاله وأخرجوه من الميدان فتجهض من حلب إليه في العساكر والحشود، وجهاز له جميع ما يحتاج إليه من المال والأقمشة والسلاح والخيل والإبل وخيام الملك بفرشها وماعونها وآلات الحصار، وتلقاه السلطان وبالغ في تكريمته وفوض إليه الأتابكية والمشورة، وقام معه محاصرا لدمشق. واشتد الحصار على أهل دمشق بعد وصوله واستكثار السلطان من المقاتلة وآلات الحصار، وخرب كثيرا من جوانبها بحجارة المجانيق وتصدعت حيطانها وأضرمت كثيرا من البيوت على أربابها فاحترقت، واستولى الخراب والحريق على القبيبات أجمع، وتفاحش فيها واشتد أهل القتال والدفاع من فوق الأسوار. وتولى كبر ذلك منهم قاضي الشافعية أحمد بن القرشي بما أشار عليهم، وفاه أهل العلم والدين بالنكير فيه. وكان منطاش لما بلغه حصار دمشق بعث طنبقا الحلبي دوادار الأشرف بمدد من المال يمد به العساكر هنالك وأقام معهم. ثم بعث جنتمر إلى أمير آل فضل يعبر بن جبار يستنجد به فجاء لقتالهم، وسار كمشيقا نائب حلب فلقية وفض جموعه، وأسر خادمه وجاء به أسيرا، فمن عليه السلطان وأطلقه وكساه وحمله وردته إلى صاحبه. واستمر حصار دمشق إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثورة أنيال بصفد بدعوة السلطان

كان أنيال لما انهزم يوم واقعة دمشق فر إلى مصر ومر بغزة فاعتقله ابن باكيش وحبس بالكرك، فلما استولى الناصري أشخصه إلى صفد فحبس

بها مع جماعة من الأمراء وولى على صفا قلوبك النظامي فاستخدم
جماعة من مماليك برقوق، واتخذ منهم بلبغا السالمي دودار، فلما بلغه
خلاص السلطان من الاعتقال ومسيره إلى الشام داخل بلبغا مماليك أستاذة
قطلوبقا في

الخلاف واللاحق بالسلطان. وهرب منهم جماعة فركب قطلوبغا في اتباعهم وأبقى بلبقا السالمي دوادار وحاجب صفد؟ فأطلقوا أنيال وسائر المحبوسين من السلطان، فملك أنيال القلعة ورجع قطلوبغا من اتباع الهارين فوجدهم قد استولوا وامتنعوا. وارتاب من مماليكه فسار عن صفد ونهب بيته ومخلفه، ولحق بالشام فلقي الأمراء المنهزمين أمام السلطان بشقحب قاصدين مصر فسار معهم، ولحق أنيال بالسلطان من صفد بعد أن ضبطها واستخلف عليها وأقام مع السلطان والله تعالى أعلم.

مسير منطاش وسلطانه أمير حاجي إلى الشام وانهزامهم ودخولى منطاش إلى دمشق وظفر السلطان الظاهر بأمر حاجي والخليفة والقضاة وعوده لملكه

ولما تواترت الأخبار بهزيمة عساكر الشام وحصار السلطان الظاهر دمشق وظهور

دعوته في حلب وصفد وسائر بلاد الشام. ثم وصلت العساكر المنهزمون وأولاد بندمر ونائب صفد واستحثوه، وتواترت كتب جنتمر نائب دمشق وصربخه، أجمع منطاش أمره حينئذ على المسير إلى الشام فتجهز ونادى في العساكر، وأخرج السلطان والخليفة والقضاة والعلماء سابع عشر ذي الحجة سنة إحدى وتسعين، وخيموا بالزيدانية من ناحية القاهرة حتى أزاح العلل. واستخلف على القاهرة دواداره صراي تمر، وأطلق يده في الحل والعقد والتولية والعزل. واستخلف على القلعة بكا الأشرفي وعمد إلى خزائن الذخيرة بالقلعة فسد بابها ونقبها من أعلاها حتى صارت كهيئة الجب، ونقل إليها من كان في سحنه من أهل دولة السلطان. ونقل سودون النائب إلى القلعة فأنزله بها وأمر بالقبض على من بقي من ممالك السلطان حيث كانوا، فتسربوا في غيابات المدينة ولاذوا بالإختفاء. وأوعز بسد كثير من أبواب الدروب بالقاهرة فسدت. ورحل في الثاني والعشرين من الشهر بالسلطان وعساكره على التعبية وطووا المراحل، ونمي إليه أثناء طريقه أن بعض ممالك السلطان المستخدمين عند الأمراء مجموعون على التوثب ومداخلون لغيرهم فأجمع السطوة بهم ففروا ولحقوا

بالسلطان. ولما بلغ خبر مسيرهم السلطان وهو محاصر دمشق ارتحل في
عساكره إلى لقائهم ونزل قريبا من شقحب، وأصبحوا

على التعبئة وكمشيقا بعساكر حلب في ميمنة السلطان ومنطاش قد عبي جيشه. وجعل السلطان أمير حاجي والخليفة والقضاة والرماة من ورائهم، ووقف معهم تمارتمرراس نوبة، وسندمر بن يعقوب شاه أمير سلاح. ووقف هو في طائفة من مماليكه وأصحابه في حومة المعترك. فلما تراءى الجمعان حمل هو وأصحابه على ميمنة السلطان ففضوها، وانهزم كمشيقا إلى حلب ومروا في اتباعه ثم عطفوا على مخيم السلطان فنهبوه وأسروا قجماش ابن عمه كان هناك جريحا. ثم حطن السلطان على الذي فيه أمير حاجي والخليفة والقضاة فدخلوا في حكمه، ووكل بهم واختلط الفريقان وصاروا في عمى من أمرهم، والسلطان في لمة من فرسانه يخترق جوانب المعترك ويحطم الفرسان ويشردهم في كل ناحية، وشراد مماليكه وأمرائه يتساقطون إليه حتى كثف جمعه ثم حمل على بقية العسكر وهم ملتئمون على الصفدي فهزمهم ولحقوا بدمشق وضرب خيامه بشقحب. ولما وصل منطاش إلى دمشق أوهم النائب جنتمر أن الغلب له وأن السلطان أمير حاجي على الأثر، ونادى العساكر بالخروج في السلاح لتلقيه، وخرج من الغد موربا بذلك فركب إليهم السلطان في العساكر فهزمهم وأثنخ فيهم واستلحم كثيرا من عامة دمشق. ورجع السلطان إلى خيامه. وبعث أمير حاجي بالتبري من الملك والعجز عنه والخروج إليه من عهده؛ فأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض إلى السلطان والبيعة له والعود إلى كرسيه. وأقام السلطان بشقحب تسعا واشتد كلب البرد وافتقدت الأقوات لقلة الميرة، فأجمع العود إلى مصر ورحل يقصدها. وبلغ الخبر إلى منطاش فركب لاتباعه، فلما أطل عليه أحجم ورجع واستمر السلطان لقصده، وقدم حاجب غزة للقبض على ابن باكيش فقبض عليه. ولما وافى السلطان غزة ولى عليها مكانه وحمله معتقلا، وسار وهو مستطلع لأحوال مصر حتى كان ما تذكره إن شاء الله تعالى.

ثورة بكا والمعتقلين بالقلعة واستيلاؤهم عليها

بدعوة السلطان الظاهر

وعوده إلى كرسيه بمصر وانتظام أمره:

كان منطاش لما فصل إلى الشام بسلطانه وعساكره كما مر واستخلف كلى القاهرة دواده سراي تمر وأنزله بالاصطبل، وعلى القلعة بكا الأشرفي ووكله بالمعتقلين هنالك فأخذوا أنفسهم بالحزم والشدة. وبعد أيام نمي إليهم أن جماعة من مماليك السلطان مجتمعون للثورة وقد داخلوا مماليكهم فبيتوهم وقبضوا عليهم بعد جولة دافع فيها المماليك عن أنفسهم. ثم تقبضوا على من داخلهم من مماليكهم وكانوا جماعة كثيرة، وحدثت لهم بذلك رتبة واشتداد في الحزم، فنادوا

بالوعيد لمن وجد عنده أحد من مماليك السلطان، ونقلوا ابن أخت السلطان من بيت أمه إلى القلعة وحبسوه وأوعزوا بقتل الأمراء المعتقلين بالفيوم، فقتلوا وعميت عليهم أنباء منطاش والعساكر، وبعثوا من يقتص لهم الطريق ويسائل الركبان واعتزموا على قتل المسجونين بالقلعة. ثم تلاوموا في ذلك ورجعوا إلى التضييق عليهم ومنع المترددين بأقواتهم؛ فضاقت أحوالهم وضجروا وأهمتهم أنفسهم. وفي خلال ذلك عثر بعضهم على منفذ إلى سرب تحت الأرض يفضي إلى حائط الاصطبل ففرحوا بذلك وتنسموا ريح الفرج، ولما أظلتهم ليلة الأربعاء غرة صفر سنة اثنتين وتسعين مروا في ذلك السرب فوجدوا فيه آلة النقب فنقبوا الحائط، وأفضوا إلى أعلى الاصطبل وتقدم بهم خاصكي من أكابر الخاصكية، وهجموا على الحراس فثاروا إليهم فقتلوا بعضهم بالقيود من أرجلهم، وهرب الباقيون ونادوا شعبان بكا نائب القلعة يوهمون أنه انتقض. ثم كسروا باب الاصطبل الأعلى والأسفل، وأفضوا إلى منزل سراي تمر فأيقظه لغطهم، وهلع من شأن بكا فأرمى نفسه من السور ناجياً، ومر بالحاجب قطلوبقا ولحق بمدرسة حسن وقد كان منطاش أنزل بها ناشبة من التركمان لحماية الاصطبل وأجرى لهم الأرزاق، وجعلهم لنظر تنكز رأس نوبة. ثم هجم أصحاب بكا على بيت سراي تمر فنهبوا ماله وقماشه وسلاحه، وركبوا خيله واستولوا على الاصطبل وقرعوا الطبول ليلتهم. وقاتلهم بكا من الغد. وسرب الرجال إلى الطبلخانات فملكها ثم أزعجوه عنها. وزحف سراي تمر وقطلوبقا الحاجب إلى الاصطبل لقتالهم، وبرروا إليهم فقاتلوهم واعتصموا بالمدرسة. واستولى بكا على أمره وبعث إلى باب السر من المدرسة ليحرقه فاستأمن إليه التركمان الذين به فأنزلهم على الأمان، وسرب أصحابه في البلد لنهب بيوت منطاش وأصحابه فعاثوا فيها وتسلسل إليه مماليك السلطان المختفون بالقاهرة فبلغوا ألفاً أو يزيدون. ثم استأمن بكا من الغد فأمنه سودون النائب وجاء به إلى الناصري أمير سلاح ودمرداش وكان عنده فحبسهما بكا. ثم وقف سودون على مدرسة حن والأرض تموج بعوالم النظارة فاستنزل منها سراي تمر وقطلو بغا الحاجب فنزلا على أمانه. وهم العوالم بهما فحال دونهما وجاء بهما بكا فحبسهما. وركب سودون يوم الجمعة في القاهرة

ونادى بالأمان والخطبة للسلطان فخطب له من يومه، وأمر بكا بفتح
السجون وإخراج من كان فيها في حبس منطاش وحكام تلك الدولة. وهرب
الوالي حسن بن الكوراني خوفا على نفسه لما كان شيعة لمنطاش على
ممالك السلطان. ثم عثر عليه بكا وحبسه مع سائر شيعة منطاش، وأطلق
جميع الأمراء الذين حبسهم بمصر ودمياط والفيوم. ثم بعث الشريف عنان
بن مقامس أمير بني حسن بمكة وكان محبوسا، وخرج معهم فبعثه مع أخيه

أيضا على الهجن لاستكشاف خبر السلطان. ووصل يوم الأحد بعدها كتاب السلطان مع ابن صاحب الدرك سيف بن محمد بن عيسى العائدي بإعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة. وقص خبر الواقعة وأن السلطان توجه إلى مصر وانتهى إلى الرملة. ثم وصل أيضا أخو بكا يوم الأربعاء ثامن صفر بمثل ذلك، وتتابع الواصلون من عسكر السلطان، ثم نزل بالصالحية وخرج السلطان لتلقيه بالعكرشة. ثم أصبح يوم الثلاثاء رابع صفر في ساحة القلعة، وقلده الخليفة وعاد إلى سريره. ثم بعث عن الأمراء الذي كان حبسهم منطاش بالإسكندرية وفيهم الناصري والجوباني وابن بيبي وقراد مرداش وأبغا الجوهري وسودون باق وسودون الطرنطاي وقردمر المعلم في آخرين متعددين، واستعتبوا للسلطان فأعتبهم وأعادهم إلى مراتبهم، وولى أنيال اليوسفي أتابكا والناصرى أمير سلاح، والجوباني رأس نوبة وسودون نائبا، وبكا دوادار وقرقماش أستاذ دار، وكمشيقا الخاصكي أمير مجلس، وتظلميش أمير الماخورية، وعلاء الدين كاتب سر الكرك كاتب سره بمصر، وعمر سائر المراتب والوظائف. وتوفي قرقماش فولى محمود أستاذ داره الأول، ورعى له سوابق خدمته ومحنة العدو له في محبته، وانتظم أمر دولته واستوثق ملكه. وصرف نظره إلى الشام وتلافيه من مملكة العدو وفساده والله تعالى أعلم.

ولاية الجوباني علي دمشق واستيلاؤه عليها من يد

منطاش ثم هزيمته ومقتله وولاية الناصري مكانه:

لما استقر السلطان على كرسيه بالقاهرة، وانتظمت أمور دولته صرف نظره إلى الشام وشرع في تجهيز العساكر لإزعاج العدو منه، وعين الجوباني لنيابة دمشق ورياسة العساكر، والناصرى لحلب لأن السلطان كان عاهد كمشيقا على أتابكية مصر، وعين قرا دمرداش لطرابلس ومأمونا القلحطاوي لحماة؛ فولى في جميع ممالك الشام ووظائفه وأمرهم بالتجهيز. ونودي في العساكر بذلك وخرجوا ثامن جمادى الأولى من سنة إثنيتين وتسعين. وكان منطاش قد اجتهد جهده في طي خبر السلطان بمصر عن امرائه وسائر عساكره، وما زال يفتشو حتى شاع وظهر بين الناس؛

فانصرف هواهم إلى السلطان. وبعث في أثناء ذلك الأمير يماز تمر نائبا على حلب فاجتمع أهل كانفوسا وحاصر كمشيقا بالقلعة نحو من خمسة أشهر، وشد حصارها وأحرق باب القلعة والجسر، ونقب سورها من ثلاث مواضع . واتصل القتال بين الفريقين في أحد الأنقاب لشهرين على ضوء الشموع . ثم بعث العساكر إلى طرابلس مع ابن ايماز التركماني فحاصرها وملكوها من يد سندمر حاجب حجابها، وكان مستوليا عليها بدعوة الظاهر. ولما ملكها ولى عليها قشتمر الأشرفي. ثم بعث العساكر إلى بعلبك مع محمد بن سندمر في نفر من قرابته وجنده فقتلهم منطاش بدمشق أجمعين . ثم أوعز إلى قشتمر الأشرفي نائب طرابلس بالمسير

إلى حصار صفد فسار إليها ، وبرز إليه جندها فقاتلوه وهزموه، فجهز إليها العساكر مع أبقا الصفدي كبير دولته فسار إليها قي سبعمائة من العساكر. وقد كان لما تيقن عنده استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح إلى الطاعة والاعتصام بالجماعة، وكاتب السلطان بمغارمه ووعدته فلما وصل إلى صفد بعث إلى نائبيها بطاعته، وفارق أصحاب منطاش ومن له هوى فيه وصفوا إليه وبات ليلته بظاهر صفد. وارتحل من الغد إلى مصر فوصلها منتصف جمادى الأخيرة، وأمراء الشام معسكرون مع الجرباني بظاهر القلعة فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الألوف. ولما رجع أصحابه من صفد إلى دمشق اضطرب منطاش وتبين له نكر الناس وارتاب بأصحابه، وقبض جماعة من الأمراء ، وعلى جنتمر نائب دمشق وابن جرجي من أمراء الألوف وابن قفجق الحاجب، وقتله والقاضي محمد بن القرشي في جملة من الأعيان واستوحش الناس ونفروا عنه واستأمنوا إلى السلطان، مثل محمد بن سندمر وغيره. وهرب كاتب السر بدر الدين بن فضل الله وناظر الجيش. وقد كانوا يوم الواقعة على شقحب لحقوا بدمشق يظنون أن السلطان يملكها يومه ذلك فبقوا في ملكة منطاش وأجمعوا الفرار مرة بعد أخرى فلم يتهياً لهم. وشرع منطاش في الفتك بالمنتمين إلى السلطان من المماليك المحبوسين بالقلعة وغيرهم، وذبح جماعة من الجراكسة وهم بقتل أشمس فدفعه الله عنه. وارتحل الأمراء من مصر في العساكر السلطانية. إلى الشام مع الجوباني يطوون المراحل، والأمراء من دمشق يلقونهم في كل منزلة هارين إليهم، حتى كان آخر من لقيهم ابن نصير أمير العرب بطاعة أبيه، ودخلوا حدود الشام ثم ارتبك منطاش في أمره واستقر الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج منتصف جمادى الأخيرة هاربا من دمشق في خواصه وأصحابه ، ومعه سبعون حملاً من المال والأقمشة. واحتمل معه محمد بن أينال وانتقض عليه جماعة من المماليك فرجعوا به إلى أبيه، وكان يعبر بن جبار أمير آل فضل مقيما في أحيائه ومعه أحياء آل مرو وأميرهم عنقا، فلحق بهم هنالك منطاش مستجيرا فأجاروه ونزل معهم. ولما فصل منطاش عن دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة ومعه مماليك السلطان معصوبون عليه، وأرسل

إلى الجوباني بالخبر فأغذ السير إلى دمشق وجلس بموضع نيابته، وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه مع من كان حبس هو معهم ووصل الطنبقا الحلبي ودمرداش اليوسفي من طرابلس. وكان منطاش استقدمهم وهرب قبل وصولهم، وبلغ الخبر إلى إيماز تمر وهو يحاصر حلب وأهل كانفوسا معصوبون عليه فأجفل، ولحق بمنطاش وركب كمشيكا من القلعة إليهم بعد أن أصلح الجسر، وأركب معه الحجاب وقاتل أهل كانفوسا ومن معهم من أشياع منطاش

ثلاثة أيام. ثم هزموهم، وقتل كمشيقا منهم أكثر من ثمانمائة وخرّب كانفوسا فأصبحت خرابا وعمر القلعة وحصنها وشحنها بالأقوات. وبعث الجوباني العساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي نائب منطاش من غير قتال وكذلك حماة وحمص. ثم بعث الجوباني نائب دمشق وكافل الممالك الشامية إلى يعبر بن جبار أمير العرب بإسلام منطاش وإخراجه من أحيائه فامتنع واعتذر، فبرز من دمشق بالعساكر ومعه الناصري وسائر الأمراء. ونهض إلى مصر فلما انتهوا إلى حمص أقاموا بها وبعثوا إلى يعبر يعتذرون إليه فلج واستكبر وحال دونه. وبعث إليه أشمس خلال ذلك من دمشق بأن جماعة شيعة بئدروا وبتدروا الثورة فركب الناصري إلى دمشق، وكبسهم وأثن فيهم ورجع إلى العسكر وارتحلوا إلى سلمية. واستمر يعبر في غلوائه وترددت الرسل بينهما فلم تغن. ثم كانت بين الفريقين حرب شديدة، وحملت العساكر على منطاش والعرب فهزموهم إلى الخيام، واتبع دمرداش منطاش حتى جاوز به الحي وارتحلت العرب، وحملوا بطانتهم على العسكر فلم يثبتوا لحملتهم. وكان معهم آل علي بجموعهم فنهبوهم من ورائهم وانهزموا. وأفرد الجوباني ممالিকে فأسره العرب وسيق إلى يعبر فقتله، ولحق الناصري بدمشق وأسر جماعة من الأمراء، وقتل منهم أبيقا الجوهري ومأمون المعلم في عدد آخرين، ونهب العرب مخيمهم وأثقالهم. ودخل الناصري إلى دمشق فبات ليلته وباكرا من الغد آل علي في أحيائهم فكبسهم واستلحم منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة. ثم بعث إليه السلطان بناية دمشق منتصف شعبان من السنة، فقام بأمرها وأحكم التصريف في حمايتها، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء من عباده.

اعادة محمود إلى استاذية الدار واستقلاله في

الدولة:

هذا الرجل من ناشئة الترك وولدانهم ومن أعقاب كراي المنصوري منهم، شب في ظل الدولة ومرعى نعمها ونهض بنفسه إلى الاضطلاع والكفاية، وباشرا كثيرا من أعمال الأمراء والوزراء حتى أوفى على ثنية

النجابة، وعرضته الشهرة على اختيار السلطان فعجم عوده ونقد جوهره. ثم ألحق به أغراض الخدمة ببابه فأصاب شاكلة الرمية ومضى قدما في مذهب السلطان مرهف الحد قوي الشكيمة فصدق ظنه وشكر اختياره. ثم دفعه إلى معاناة الحبس وشد الدواوين من وظائف الدولة فجلا فيهما. وهلك خلال ذلك أستاذ الدار بهادر المنجكى سنة تسعين فأقامه السلطان مكانه قهرمانا لداره ودولته وانتنضارته على دواوين الجباية من قراب اختياره ونقده، جماعة للأموال فواصا على استخراج الحقوق السلطانية، قاروناً للكنوز

اكسيرا للنقود مغناطيسا للقنية، يسابق أقلام الكتاب ويستوفي تفاصيل الحساب بمدارك إلهامه، وتصور صحيح وحدث ثاقب لا يرجع إلى حذاقة الكتاب ولا إلى أيسر الأعمال، بل يتناول الصعاب فيذلها ويحوم على الأغراض البعيدة فيقربها. وربما يحاضر بذكائه في العلوم فينفذ في مسائلها، ويفحم جهابذتها موهبة من الله اختصه بها ونعمة أسبغ عليه لبوسها. فقام بما دفع إليه السلطان من ذلك وأدر خروج الجباية فضاقت أفنية الحواصل والخزائن بما تحصل وتسرب إليها وكفى السلطان مهمه في دولته ومماليكه ورجاله بما يسوغ لهم من نعمة، ويوسع من أرزاقه وعطائه، حتى أزاح غلهم بتوالي إنفاقه، وقرت عين السلطان باصطناعه، وغص به الدواوين والحاشية ففوقوا إليه سهام السعاية وسلطوا عليه السنة المتظلمين فخلص من ذلك خلوص الإبريز، ولم تعلق به ظنة ولا حامت عليه ريبة.

ثم طرق الدولة ما طرقها من النكبة والاعتقال وأودعته المحنة غيابات السجون،

وحفت به أنواع المكاره واصطلمت نعمته واستصفيت أمواله في المصادرة والامتحان، حتى زعموا أن الناصري المتغلب يومئذ استأثر منه بخمسة قناطير من دنانير الذهب، ومنطاش بعده بخمسة وخمسين. ثم خلس ابريزه من ذلك السبك وأهل قمره بعد المحاق، واستقل السلطان من نكبته وطلع بأفق مصره وتمهد أريكة ملكه، ودفعه لما كان بسبيله فأحسن الكرة في الكفاية لمهمه، وتوسيع عطاياه وأرزاقه وتمكين أحوال دولته. وتسربت الجباية من غير حساب ولا تقرير إلى خزائنه، وأحسن النظر في الصرف والخرج بحزمه وكفايته، حتى عادت الأمور إلى أحسن معهودها بيمن تعبيته وسديد رأيه وصلابة عوده وقوة صرامته، مع بذل معروفه وجاهه لمن تحت لجهده، وبشاشته وكفايته لغاشيته. وحسن الكرامة لمنتابه ومقابلة من يأتي إليه بكرم مقاصده فأصبح طرازاً للدولة وتاجاً للخواص. وقذف المنافسون بخطا السعائيات فزلت في. جهات حلم السلطان وجميل اغتباطه وثبته، حتى أعيتهم المذاهب وانسدت عليهم الطرق، ورسخت قدمه في الدولة واحتل من السلطان بكرم العهد والذمة، ووثق بغنائه

واضطلاعه فرمى إليه مقاليد الأمور، وأوطأ عقبه أعيان الخاصة والجمهور، وأفرده في الدولة بالنظر في الأمور حساباً وتقديراً وجمعاً وتقريباً وكنزاً موفراً وصرفاً لا يعرف تبذيراً وبطراً وفي الانهاء بالمعزل والإهانة مشهوراً مع ما يمتاز به من الأمر والنشأن، وسمو مرتبته على مر الأزمان. وهو على ذلك لهذا العهد عند سفر السلطان إلى الشام لمدافة سلطان المغل كما مر ذكره، والله متولي الأمور لا رب غيره.

مسير منطاش ويثير إلى نواحي حلب وحصارها

ثم مفارقة يعبر وحصاره عنتاب ثم رجوعه

ولما انهزمت العساكر بسلمية كما قلنا ارتحل يعبر في أحيائه ومعه منطاش وأصحابه إلى نواحي حلب، وسار يعبر إلى بلد سرمين من أقطاعه ليقسمها في قومه على عاداتهم، وكان كمشيقا نائب حلب قد أقطعها الجند من التركمان في خدمته. فلما وافاها يعبر هربوا إلى حلب فلقوا في طريقهم أحمد بن المهدي في العساكر وقد نهض إلى يعبر فرجعوا عنه، ولقيهم علي بن يعبر فقاتلوه وهزموه وقتلوا بعض أصحابه صبيرا، ورجع يعبر إلى أحيائه وارتحلوا إلى حلب فحاصروها وضيقوا عليها أيام رمضان. ثم رجع يعبر نفسه وراسل كمشيقا نائب حلب في الطاعة واعتذر عما وقع منه وطوق الذنب، بالجواني وأصحابه أهل الواقعة، وسأل الأمان مع حاجبه عبد الرحمن فأرسله كمشيقا إلى السلطان، وأخبره بما اشترط يعبر فأجاب السلطان إلى سؤاله. وشعر بذلك منطاش بمكانه من حصار حلب فارتاب وخادع يعبر إلى الغارة على التركمان بقربهم، فأذن للعرب في المسير معه، وسار معه منهم سبعمائة. فلما جاوز الدربند أرجلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان ونزل بمرعش بلد أميرهم سولي، ورجع العرب مشاة إلى يعبر فارتحل إلى سبيله راجعاً، وسار منطاش إلى عنتاب من قلاع حلب، ونائبها محمد بن شهري فملكها واعتصم نائبها بالقلعة أياما. ثم نبت منطاش وأثنى في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه، وكانت العساكر قد جاءت من حلب وحماة وصفد لقتاله فهرب إلى مرعش وسار منها إلى بلاد الروم، واضمحل أمره. وفارقه جماعة من أصحابه إلى العساكر وراجعوا طاعة السلطان آخر ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين. وبعث سولي بن دلقادر أمير التركمان في عشر ذي الحجة يستأمن إلى السلطان فأمنه وولاه على البلستين كما كان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم كمشيقا من حلب:

قد كان تقدم لنا أن كمشيقا الحموي رأس نوبة بيبقا كان نائبا بطرابلس، وان السلطان عزله وحبسه بدمشق، فلما استولى الناصري على

دمشق أطلقه من الاعتقال وجاء في جملة إلى مصر. فلما ولي على ممالك الشام وأعمالها ولاة على حلب مكانه منتصف إحدى وسبعين. ولما استقل السلطان من النكبة وقصد دمشق كما مر أرسل كمشيقا إليه بطاعته ومشايعته على أمره، وأظهر دعوته في حلب وما إليها من أعماله. ثم سار السلطان إلى دمشق وحاصرها وأمده كمشيقا بجميع

ما يحتاج إليه. ثم جاءه بنفسه في عساكر حلب صريخا، وحمل إليه جميع حاجاته وأزاح عله وأقام له رسوم ملكه، وشكر السلطان أفعاله في ذلك وعاهده على أتابكية مصر. ثم كانت الواقعة على شقحب فانهمز كمشيقا إلى حلب فامتنع بهما، وحاصره يمازتمر أتابك منطاش أشهرها كما مر. ثم هرب منطاش من دمشق إلى العرب فأفرج يمازتمر عن حلب. ثم كانت واقعة الجوياني ومقتله وزحف منطاش ويعبر إلى حلب فحاصروها مدة. ثم وقع الخلاف بينهما وهرب منطاش إلى بلاد التركمان، ورجع يعبر إلى بلدة سلمية، واستأمن إلى السلطان ورجع إلى طاعته منتصف شوال. ولما أفرجوا عن حلب نزل كمشيقا من القلعة ورم خرابها وخرّب بانفوسا واستلحم أهلها، وأخذ في إصلاح أسوار حلب ورئم ما سلم منها وكانت خرابا من عهد هلاكو. وجمع له أهل حلب ألف درهم للنفقة فيه، وفرغ منه لثلاثة أشهر. ولما استوسق أمر السلطان وانتظمت دولته بعث إليه يستدعيه في شهر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين، وولى مكانه في حلب قرا دمرداش نقله إليها من طرابلس وولى مكانه أنيال الصغير، فسار كمشيقا من حلب ووصل مصر تاسع صفر سنة ثلاث وتسعين، فاهتز له السلطان وأركب الأمراء للقاءه مع النائب. ثم دخل إلى السلطان فحياه وبالغ في تكرمته وتلقاه بالرحب، ورفع مجلسه فوق الأتابك أنيال، وأنزله بيت منجك وقد هيا فيه الفرش والماعون والخرثى ما فيه للمنزل. ثم بعث إليه بالأقمشة وقرب إليه الجياد بالمراكب الثقيلة، وتقدم للأمراء أن يتحفوه بهداياهم فتناغوا في ذلك وجاؤوا من وراء الغاية، وحضر في ركابه من أمراء الشام الطنبقا الأشرفي وحسن الكشكي، فأكرمهما السلطان واستقر كمشيقا بمصر في أعلى مراتب الدولة إلى أن توفي أنيال الأتابك في جمادى أربع وتسعين فولاه السلطان مكانه كما عاهده عليه بشقحب، وجعل إليه نظر المارستان على عادة الأتابكية، واستمر على ذلك لهذا العهد. والله سبحانه وتعالى أعلم بغيه.

استقدام أيتمش

كان أيتمش النجاشي أتابك الدولة قد نكبه السلطان وسار في العساكر إلى الشام منتصف ربيع إحدى وتسعين لقتال الناصري وأصحابه،

لما إنتقض عليه وكانت الواقعة بينهم بالمرج من نواحي دمشق، وانهزمت
العساكر ونجا أيتمش إلى قلعة دمشق ومعه كتب السلطان في دخولها متى
إضطر إليه، فامتنع بها وملكها الناصري من الغد بطاعة نائبها ابن الحمصي
فوكل بايتمش وأقام حبيساً موسعاً عليه، ثم سار الناصري إلى مصر
وملكها، وعاد السلطان إلى كرسيه

في صفر سنة إثنيتين وتسعين كما فصل ذلك من قبل. وأيتمش في أثناء ذلك كله محبوبس بالقلعة. ثم زحف الجوباني في جمادى الأخيرة وخلص أيتمش من اعتقاله، وفتح مماليك السلطان السجن الذي كانوا فيه بقلعة دمشق وخرجوا وأعضوصبوا على أيتمش قبل مجيء الجوباني. وبعث إليه بالخبر، وبعث الجوباني إلى السلطان بمثل ذلك فتقدم إليه السلطان بالمقام بالقلعة حتى يفرغ من أمر عدوه.

ثم كان بعد ذلك واقعة الجوباني مع منطاش والعرب ومقتله وولاية الناصري على دمشق مكانه. ثم افترق العرب وفارقهم منطاش إلى التركمان، وانتظمت ممالك الشام في ملكة السلطان، واستوسق ملكه واستفحلت دولته، فاستدعى الأمير أيتمش من قلعة دمشق، وسار لاستدعائه قنوباي من مماليك السلطان ثامن ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين، ووصل إلى مصر رابع جمادى الأولى من السنة. ووصل في ركابه حاجب الحجاب بدمشق ومعه الأمراء الذين حبسوا بالشام، منهم جنتمر نائب دمشق وابنه وابن أخته وأستاذ داره طنبقا ودمرداش اليوسفي نائب طرابلس، والطنبقا الحلبي والقاضي أحمد بن القريشي، وفتح الدين بن الرشيد، وكاتب السر في ست وثلاثين نفرًا من الأمراء وغيرهم. ولما وصل أيتمش قابله السلطان بالكرمة والرحب وعرض الحاجب المساجين الذي معه ووبخ السلطان بعضهم. ثم حبسوا بالقلعة حتى نفذ فيهم قضاء الله، وقتلوا مع غيرهم ممن أوجبت السياسة قتلهم. والله تعالى مالك الأمور لا رب سواه إنتهى.

هدية أفريقية

كان السلطان قد حصل بينه وبين سلطان أفريقية أبي العباس أحمد بن

محمد بن

أبي بكر بن أبي حفص الموحدى مودة والتّام، وكانت كثيراً ما تجددها الهدايا من الجانبين، ونذكرها إن شاء الله تعالى. ولما بلغ الخبر إلى تونس بما كان من نكبة السلطان وما كان من أمره، امتعض له هذا السلطان بتونس وتفجع لشأنه، وأقام يستطلع خبره ويستكشف من الجار التي تحضر إلى مصر من أهل تونس أنباءه، حتى وقف على الجلي من أمره وما كيف

الله من أسباب السعادة في خلاصه وعوده إلى كرسية، فملاً السرور جوانحه. وأوفد عليه بالتهنئة رسوله بهدية من المقربات على سبيل الوداد مع خالصة من كبراء الموحدين محمد بن علي بن أبي هلال، فوصل في العشر الأواخر من رمضان سنة إثنين وتسعين فتلقيه السلطان بالكرامة، وركب محمود أستاذ داره ليتلقاه عند نزوله من البحر بساحل بولاق، وأنزل بيت طشتمر بالزميلة قبالة الاصطبل، وأجريت عليه النفقة بما لم يجر لأمثاله. ورغب من السلطان في الحج فحج وأصبح هدية

إلى مرسله من ثياب الوشي والديباج والسلاح بما لم يعهد مثلها،
وإنصرف آخر ربيع سنة ثلاث وتسعين والله تعالى أعلم بغيبه.

حصار منطاش دمشق ومسير السلطان من

مصر إليه وفراره ومقتل الناصري

لم يزل منطاش شريداً عند التركمان منذ فارق العرب، ولما كان منتصف سنة ثلاث وتسعين اعتزم على قصد دمشق، ويقال إن ذلك كان بإغراء الناصري يخادعه بذلك ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش على نواحي حلب وتقدم خبره إلى حماة فهرب نائبا إلى طرابلس. ودخل منطاش حماة ونادى فيها بالأمان، ثم سار منها إلى حمص كذلك ثم إلى بعلبك وهرب نائبا إلى دمشق فخرج الناصري نائب دمشق في العساكر لمدافعته، وسار على طريق الزبداني فخالفه منطاش إلى دمشق. وقدم إليها أحمد شكار ابن أبي بندمر فثار شيعة الخوارزمية والبندمية، وفتحوا له أبواب البلد ومر باصطبلات فقاد منها نحو من ثمانمائة فرس. وجاء منطاش من الغد على أثره فنزل بالقصر الأبلق، وأنزل الأمراء الذين معه في البيوت حوالي القصر وفي جامع شكن وجامع بيبقا، وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم وأقام يومه في ذلك، وإذا بالناصرى قد وصل في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم مرات ومن الغد كذلك. وأقام كل واحد منهما في حومته والقتال متصل بينهما سائر رجب وشعبان. ولما بلغ الخبر إلى السلطان إرتاب بالناصرى واتهمه بالمداهنة في أمر منطاش. وتجهز لقصد الشام ونادى في العساكر بذلك عاشر شعبان وقتل أهل الخلاف من الأمراء المحبوسين، وأشخص البطالين من الأمراء إلى الإسكندرية ودمياط، وخرج يوم عشرين شعبان فخيم بالريدانية حتى أزاح علل العساكر وقضوا حاجاتهم. واستخلف على القاهرة الأتابك كمشيقا الحموي وأنزله الاصطبل، وجعل له التصرف في التولية والعزل. وترك بالقاهرة من الأمراء جماعة لنظر الأتابك وتحت أمره، وأنزل النائب سودون بالقلعة وترك بها ستمائة من مماليكه الأصاغر، وأخرج معه بالقضاة الأربعة والمفتين. وارتحل غرة رمضان من السنة بقصد الشام. وجاء الخبر رابع الشهر بأن منطاش لما

بلغه مسيرة السلطان من مصر هرب من دمشق منتصف شعبان مع عنقا
بن أمير آل مرء الصريخ بمنطاش فكانت بينهما وقعة انهزم فيها الناصري،
وقتل

جماعة من أمراء الشام نحو خمسة عشر فيهم إبراهيم بن منجك وغيره. ثم خرج الناصري من الغد في إتباع منطاش ؛ وقد ذكر له أن الفلاحين نزحوا من نواحي دمشق، واحتاطوا به فركب إليه منطاش ليقاتله ؛ ففارقه أتاكه يماز تمر إلى الناصري في أكثر العساكر، وولى هارباً. ورجع الناصري إلى دمشق وأكرم يمازتمر وأجمل له الوعد، وجاءه الخبر بأن السلطان قد دخل حدود الشام فسار ليلقاه فلقية بقانون. وبالغ السلطان في تكريمته، وترجل حين نزوله وعانقه وأركبه بقربه ورده إلى دمشق. ثم سار في أثره إلى أن وصل دمشق، وخرج الناصري ثانية ودخل إلى القلعة ثاني عشر رمضان من السنة والأمراء مشاة بين يديه، والناصري راكب معه يحمل الخبز على رأسه. وبعث يعبر في كتاب نائب حماة بالعدر عما وقع منه، وأنه إتهم الناصري في أمر منطاش فقصد حسم الفتنة في ذلك.

واستأمن السلطان وضمن له إحضار منطاش من حيث كان فأمنه، وكتب إليه بإجابة سؤاله. ولما قضى عيد الفطر برز من دمشق سابع شوال إلى حلب في طلب منطاش، ولقيه أثناء طريقه رسول سولي بن دلغار أمير التركمان بهديته واستثمانه وعذره عن تعرضه لسييس ، وأنه يسلمها لنائب حلب فقبل السلطان منه وافنه ووعد بالجميل. ثم وفد عليه أمراء آل مهنا وآل عيسى في الطاعة ومظاهرة السلطان على منطاش ويعبر، وأنهما نازلان بالرحبة من تخوم الشام فأكرم السلطان وفادتهم وتقبل طاعتهم، وسار إلى حلب ونزل بالقلعة منها ثاني شوال. ثم وصل الخبر إلى السلطان بأن منطاش فارق يعبر أو مر ببلاد ماردين فواقعه عساكر هناك، وقبضوا على جماعة من أصحابه، وخلص هو من الواقعة إلى سالم الرودكاري من أمراء التركمان، فقبض عليه وأرسل إلى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمراء السلطان قرا دمرداش نائب حلب في عساكره إلى سالم الرودكاري لإحضار منطاش، وأتبعه بالناصري. وأرسل الأتابك إلى ماردين لإحضار من حصل من أصحاب منطاش وإنتهى أنيال إلى رأس العين، وأتى أصحاب سلطان ماردين وتسلم منهم أصحاب منطاش. وكتب سلطانهم بأنه معتمل في مقاصد السلطان ومرتصد لعدوه. وإنتهى قرا دمرداش إلى سالم الرودكاري وأقام عنده أربعة أيام في طلب منطاش وهو يماطله،

فأغار قرا دمرداش عليه ونهب أحياءه وفتك في قومه، وهرب هو ومنطاش إلى سنجار. وجاء الناصري على أثر ذلك ونكر على دمرداش ما أتاه وإرتفعت بينهما حتى هم الناصري به ورفع الآلة بضربه، ولم يحصل أحد منهم بطائل، ورجعوا بالعساكر إلى السلطان. وكتب إليه سالم الرودكاري بالعدر عن أمر منطاش، وأن الناصري كتب إليه وأمره بالمحافظة على منطاش، وأن فيه زبونا للترك، فجلس السلطان بالقلعة جلوساً ضخماً سادس ذي الحجة من السنة

، واستدعى الناصري فوبخه. ثم قبض عليه وعلى ابن أخيه كشلي ورأس نوبة شيخ حسن، وعلى أحمد بن الهمدار الذي أمكنه من قلعة حلب وأمر بقتله وقشتمر الأشرفي الذي وصل من ماردين معهم. وولى على نيابة دمشق مكانه بكا الدوادر، وأعطى إقطاعه لقرا دمرداش وأمره بالمسير إلى مصر. وولى مكانه بحلب حلبان رأس نوبة، وولى أبا يزيد دوادارا مكان بكا ورعى له وسائله في الخدمة وتردده في السفارة بينه وبين الناصري أيام ملك الناصري. وأجلب على مصر وأشار عليه الناصري بالانتفاء كما ذكرناه، فاختفى عند أصحاب أبي يزيد هذا بسعايته في ذلك. ثم إرتحل من حلب ووصل إلى دمشق منتصف ذي الحجة، وقتل بها جماعة من الأمراء أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين، وولى على العرب محمد بن مهنا وأعطى إقطاع يعبر لجماعة من التركمان، وقفل إلى مصر. ولقيه الأتابك كمشيقا والنائب سودون والحاجب سكيس. ثم دخل إلى القلعة على التعبية منتصف المحرم سنة أربع وتسعين في يوم مشهود، ووصل الخبر لعاشر دخوله بوفاة بكا نائب دمشق فولى مكانه سودون الطرنطاي. ثم قبض في منتصف صفر على قرا دمرداش الأحمدي وهلك في محبسه، وقبض على طنيقا المعلم وقردم الحبشي. وجاء الخبر أواخر صفر من السنة بأن جماعة من المماليك مقدمهم أيقا دوادار وبذلار. ولما هلك بكا وإضطرب أصحابه وهرب بعضهم، عمد هؤلاء المماليك إلى قلعة دمشق وهجموا عليها وملكوها، ونقبوا السجن وأخرجوا المعتقلين به من أصحاب الناصري ومنطاش وهم نحو المائة. وركبت العساكر إليها وحاصروها ثلاثا، ثم هجموا على الباب فأحرقوه ودخلوا إلى القلعة فقبضوا عليهم أجمعين وقتلوهم وفر أيقا دوادار وبذلا في خمسة نفر، وانحسرت عليهم. ثم وصل الخبر آخر شعبان من السنة بوفاة سودون الطرنطاي فولى السلطان مكانه كمشيقا الأشرفي أمير مجلس، وولى مكان كمشيقا أمير شيخ الخاجكي إنتهى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل منطاش

كان منطاش فر مع سالم الرودكاري إلى سنجار وأقام معه أياماً، ثم فارقه ولحق

بيعبّر فأقام في أحيائه، وأصهر إليه بعض أهل الحي بابتنه فتزوجها وأقام معهم. ثم سار أول رمضان سنة أربع وتسعين وعبر الفرات إلى نواحي حلب، وأوقعت به العساكر هناك وهزموهم وأسروا جماعة من أصحابه. ثم طال على يعبر أمر الخلاف، وضجر قومه من إفتقاد الميرة من التلول فأرسل حاجبه يسأل الأمان، وأنه يمكن من منطاش على أن يقطع أربع بلاد منها المعرة، فكتب له الدوادار

أبو يزيد على لسانه بالإجابة إلى ذلك. ثم وفد محمد بن سنة خمس وتسعين فأخبر أنه كان مقيماً بسلمية في أحيائه ومعه التركمان المقيمون بشيزر فركبوا إليهم وهزموهم، وضرب بعض الفرسان منطاش فأكبه وجرحه ولم يعرف في المعركة لسوء صورته بما أصابه من الشظف والحفاء، فأردفه ابن يعبر ونجا به وقتل منهم جماعة: منهم ابن بردعان وابن أنيال، وجيء برأسيهما إلى دمشق. وأوعز السلطان إلى أمراء الشام أن يخرجوا بالعساكر وينفوه إلى أطراف البلاد لحمايتها حتى يرفع الناس زروعهم. ثم زحف يعبر ومنطاش في العساكر أول جمادى الأخيرة من السنة إلى سلمية فلقبهم نائب حلب ونائب حماة فهزموهما ونهبوا حماة، وخالفهم نائب حلب إلى أحياء يعبر فأغار عليها ونهب سوادها وأموالها واستاق نعمها ومواشيها، وأضرم النار فيما بقي. وأكمن لهم ينتظر رجوعهم. وبلغهم الخبر بحماة فأسرعوا الكر إلى أحيائهم فخرج عليهم الكمناء وأثخنوا فيهم، وهلك بين الفريقين خلق من العرب والأمراء والمماليك. ثم وفد على السلطان أواخر شعبان عامر بن طاهر بن جبار طائعا للسلطان ومنازلاً لعمه، وذكوان بن يعبر على طاعة السلطان وأنهم يمكنون من منطاش متى طلب منهم؛ فأقبل عليه السلطان وأثقل كاهله بالإحسان والمواعيد، ودس معه إلى بني يعبر بامضاء ذلك ولهم ما يختارونه. فلما رجع عامر ابن عمهم طاهر بمواعيد السلطان تفاوضوا مع آل مهنا جميعاً ورغبوهم فيما عند السلطان ووصفوا ما هم فيه من الضنك وسوء العيش بالخلاف والإنحراف عن الطاعة. وعرضوا على يعبر بأن يجيبهم إلى إحدى الحسينين من إمساك منطاش أو تخلية سبيلهم إلى طاعة السلطان، ويفارقهم هو إلى حيث شاء من البلاد فجزع لذلك ولم يسعه خلافهم، وأذن لهم في القبض على منطاش وتسليمه إلى نواب السلطان فقبضوا عليه، وبعثوا إلى نائب حلب فيمن يتسلمه واستحلفوه على مقاصدهم من السلطان لهم ولأبيهم يعبر فحلف لهم وبعث إليهم بعض أمرائه فأمكنوه منه، وبعثوا معه الفرسان والرجالة حتى أوصلوه، ودخل إلى حلب في يوم مشهود وحبس بالقلعة. وبعث السلطان أميراً من القاهرة فاقتحمه وقتله وحمل رأسه وطاف به في ممالك الشام. وجاء به إلى القاهرة حادي عشر رمضان سنة خمس وتسعين

فعلقت على باب القلعة، ثم طيف بها مصر والقاهرة وعلقت على باب
زويلة، ثم دفعت إلى أهله فدفنوها آخر رمضان من السنة. والله وارث
الأرض ومن عليها وهو خير الوراثين

حوادث مكة

قد كان تقدم لنا أن عنان بن مقابس ولأه السلطان على مكة بعد مقتل محمد بن أحمد بن عجلان في موسم سنة ثمان وثمانين، وأن كنيش بن عجلان أقام على خلافه وحاصره بمكة فقتل في حومة الحرب سنة تسع بعدها. وساء أثر عنان وعجز من مغالبة الأشراف من بني عمه وسواهم. وامتدت أيديهم إلى أموال المجاورين وصادروهم عليها ونهبوا الزرع الواصل في الشواني من مصر إلى جدة للسلطان والأمراء والتجار، ونهبوا تجار اليمن وساءت أحوال مكة بهم وبتابعهم، وطلب الناس من السلطان إعادة بني عجلان لإمارة مكة ووفد على السلطان بمصر سنة تسع وثمانين صبي من بني عجلان اسمه علي فولاه على إمارة مكة، وبعثه مع أمير الحاج وأوصاه بالاصلاح بين الشرفاء. ولما وصل الأمير إلى مكة وكان بها يومئذ قرقماش خشي الأشراف منه، وإضطرب عنان وركب للقائه. ثم توجهس الخليفة وكر راجعاً واتبع الأشراف، واجتمعوا على منابذة علي بن عجلان وشيعته من القواد والعييد. ووفد عنان بن مقامس على السلطان سنة تسعين فقبض عليه وحبسه، ولم يزل محبوساً إلى أن خرج مع بكا عند ثورته بالقلعة في صفر سنة إثنين وتسعين. وبعثه مع أخيه أيقا يستكشف خبر السلطان كما مر. وانتظم أمر السلطان بسعاية بكا في العود إلى إمارته رعيًا لما كان بينهما من العشرة في البحر، وأسعفه السلطان بذلك وولاه شركاً لعلي بن عجلان في الإمارة فأقاما كذلك سنتين، وأمرهما مضطرب والأشراف معصوبون على عنان، وهو عاجز عن الضرب على أيديهم وعلي بن عجلان مع القواد كذلك، وأهل مكة على وجل من أمرهم في ضنك من اختلاف الأيدي عليهم. ثم استقدمهم السلطان سنة أربع وتسعين فقدموا أول شعبان من السنة فأكرمهما ورفع مجلسهما، ورفع مجلس علي على سائرهم. ولما انقضى الفطر ولى علي بن عجلان مستقلاً واستبلغ في الإحسان إليه بأصناف الأقمشه والخيول والممالك والحبوب، وأذن له في الجراية والعلوفة فوق الكفاية. ثم ظهر عليه بعد شهر وقد أعد الرواحل ليلحق لمكة هارباً فقبض عليه وحبسه بالقلعة، وسار علي بن عجلان إلى

مكة وقبض على الأشراف لتستقيم إمارته. ثم خودع عنهم فأطلقهم فنفروا عنه ولم يعاودوا طاعته فاضطرب أمره وفسد رأيه، وهو مقيم على ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره إنه على كل شيء قدير

وصول أحياء من التتر وسلطانهم إلى صاحب بغداد واستيلاؤه عليها ومسير السلطان بالعساكر إليه

كان هؤلاء التتر من شعوب الترك وقد ملكوا جوانب الشرق من تخوم الصين إلى

ما وراء النهر، ثم خوارزم وخراسان وجانبيها إلى سجستان وكرمان جنوبا وبلاد القفجاق وبلغار شمالا، ثم عراق العجم وبلاد فارس وأذربيجان وعراق العرب والجزيرة وبلاد الروم إلى أن بلغوا حدود الفرات، واستولوا على الشام مرة بعد أخرى كما تقدم في أخبارهم، ويأتي إن شاء الله تعالى. وكان أول من خرج منهم ملكهم جنكز خان أعوام عشر وستمئة، واستقلوا بهذه الممالك كلها. ثم إنقسمت دولته بين بنيهم فيها فكان لبني دوشي خان منهم بلاد القفجاق وجانب الشمال بأسره، ولبني هلاكو بن طولي خان خراسان والعراق وفارس وأذربيجان والجزيرة والروم، ولبني جفطاي خوارزم وما إليها. وإستمرت هذه الدول الثلاث إلى هذا العهد في مائة وثمانين سنة انقرض فيها ملك بني هلاكو في سنة أربعين من هذه المائة بوفاة أبي سعيد آخرهم ولم يعقب، وافترق ملكه بين جماعة من أهل دولته في خراسان وأصبهان وفارس وعراق العرب وأذربيجان وتوريز وبلاد الروم: فكانت خراسان للشيخ ولي، وأصبهان وفارس وشستان للمظفر الأزدي وبنيه وخوارزم وأعمالها إلى تركستان لبني جفطاي، وبلاد الروم لبني أرشا مولى من موالى مرداش بن جوبان، وبغداد وأذربيجان والجزيرة للشيخ حسن بن حسين بن إيغا بن أيكان وأيكان سبط أرغوين أبغا بن هلاكو ولبنيه، وهو من كبار المغل في نسبه.

ولم يزل ملكهم المفترق في هذه الدول متناقلا بين أعقابهم إلى أن تلاشى واضمحل. واستقر ملك بغداد وأذربيجان والجزيرة لهذا العهد لأحمد بن أوشى ابن الشيخ حسن سبط أرغو كما في أخبار يأتي شرحها في دول التتر بعد. ولما كان في هذه العصور ظهر بتركستان وبخارى فيما وراء النهر أمير إسمه تمر في جموع من المغل والسر ينسب هو وقومه إلى جفطاي،

لا أدري هو جفطاي ابن جنكز خان أو جفطاي آخر شعوب المغل، والأول أقرب لما قدمته من ولاية جفطاي بن جنكز خان على بلاد ما وراء النهر لعهد أبيه. وإن اعترض معترض بكثرة هذا الشعب الذي مع تمر، وقصر المدة. إن هذه المدة من لدن جفطاي تقارب مائتي سنة، لأن جفطاي كان لعهد أبيه جنكزخان يقارب الأربعين، فهذه المدة أزيد من خمسة من العصور، لأن العصر أربعون سنة. وأقل ما يتناسل من الرجل في العصر عشرة من الولد فإذا ضوعفت العشرة بالضرب خمس مراتب كانت مائة ألف. أن فرضنا أن المتناسلين تسعة لكل عصر بلغوا

في الخمسة عصور إلى نحو من سبعين ألفاً، وإن جعلناها ثمانية بلغوا فوق الإثنين وثلاثين، وإن جعلناهم سبعة بلغوا ستة عشر ألفاً . والسبعة أتل ما يمكن من الرجل الواحد لا سيما مع البداوة المقتضية لكثرة النسل. والستة عشر ألفاً عصابة كافية في استتباع غيرها من العصابات حتى تنتهي إلى غاية العساكر. ولما ظهر هذا فيما وراء النهر عبر إلى خراسان فملكها من يد الشيخ ولي صاحبها أعوام أربعة وثمانين بعد مراجفات وحروب. وهرب الشيخ ولي إلى توريذ فعمد إليه تمر في جموعه سنة سبع وثمانين ومملك توريذ وأذربيجان وخر بها، وقتل الشيخ ولي في حروبه، ومر بأصبهان فأعطوه طاعة معروفة. وأطل بعد توريذ على نواحي بغداد فأرجفوا منه، وواقعت عساكره بأذربيجان جموع الترك أهل الجزيرة والموصل. وكانت الحروب بينهم سجلاً. ثم تأخر إلى ناحية أصبهان وجاءه الخبر بخارج خرج عليه من قومه يعرف بقمر الدين تطمش ملك الشمال من بني دوشي خان بن جنكز خان، وهو صاحب كرسي صراي أمده بأمواله وعساكره فكر راجعا إلى بلده، وعميت أنباؤه إلى سنة خمس وتسعين. ثم جاءت الأخبار بأنه غلب قمر الدين الخارج عليه ومحا أثر فساده، واستولى على كرسي صراي فكر تمر راجعاً وملكها. ثم خطا إلى أصبهان وعراق العجم وفارس وكرمان فملك جميعها من يد بني المظفر اليزدي بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبددت جموعهم. وراسله صاحب بغداد أحمد بن أوشى وصانعه بالهدايا والتحف فلم يغن عنه وما زال يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزم أحمد وافترقت عساكره فصمد إليه يغذ السير حتى إنتهى إلى دجلة، وسبق النذير إلى أحمد، فأسرى من ليله ومر بجسر الحلة فقطعه. وصبح مشهد علي ووافى تمر وعساكره دجلة يوم الحادي والعشرين من شوال سنة خمس وتسعين، وأجازوا دجلة سبحا ودخلوا واستولوا عليها. وبعث العساكر في أتباع أحمد فلاحقوا بأعقابه، وخاضوا إليه النهر عند الجسر المقطوع وأدركوه بالمشهد فكر عليهم في جموعه، وقتل الأمير الذي كان في إتباعه ورجعوا عنه بعد أن كانوا استولوا على جميع أثقاله ورواحله بما فيها من الأموال والذخيرة، فرجعوا بها ونجا أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام فأراح بها وطالع نائبها السلطان بأمره، فأخرج إليه بعض خواصه

بالنفقات والأزواد ليستقدمه فقدم به إلى حلب آخر ذي القعدة فأراح بها. وطرقه مرض أبطأ به عن مصر. وجاءت الأخبار بأن تمر عاث في مخلفه واستصفى ذخائره واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة. وأقفرت جوانب بغداد من العيث. ثم قدم أحمد بن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريخه،

ونادى في عساكره بالتجهز إلى الشام، وقد كان تمر بعد ما استولى على بغداد زحف في عساكره إلى تكريت فأولى المخالفين وعتاء الحرابة، ورصد السابلة وأناخ عليها بجموعه أربعين يوماً فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من قتل منهم، ثم خربها وأسرها. ثم انتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها ووقفوا عليها ساعة من نهار فملكوها وأشفوا نعمتها وافترق أهلها. وبلغ الخبر إلى السلطان فخيم بالريدانية أياماً أزاح فيها علل عساكره وأفاض العطاء في مماليكه. واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند. واستخلف على القاهرة النائب مودود وارتحل إلى الشام على التعبية، ومعه أحمد بن أوبس صاحب بغداد بعد أن كفاه مهمه وسرب النفقات في تابعه وجنده. ودخل دمشق آخر جمادى الأولى وقد كان أوعز إلى حلبان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستيعاب العرب والترکمان للإقامة هنالك رصداً للعدو. فلما وصل إلى دمشق وفد عليه حلبان وطالعه بمهمات وما عنده من أخبار القوم، ورجع لإنفاذ أوامره والفصل فيما يطالعه فيه. وبعث السلطان على أثره العساكر مدداً له مع كمشيقا الأتابك وتلكميش أمير سلاح وأحمد بن بيقا، وكان العدو قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً ثم ملكها وعاثت عساكره فيها وامتنعت عليه قلعها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم، ومر بقلاع الأكراد فأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها. والسلطان لهذا العهد وهو شعبان سنة ست وتسعين - مقيم بدمشق مستجمع للوثبة به متى استقبل جهته، والله ولي الأمور. وهذا آخر ما انتهت إليه دولة الترك بانتهاء الأيام وما يعلم أحد ما في غد، والله مقدر الأمور وخالقها

خريطة

دولة بني رسول

الخبر عن دولة بني رسول مولى بني أيوب الملوك
باليمن بعدهم ومبدأ أمرهم وتصاريق أحوالهم

قد كان تقدم لنا كيف استولى بنو أيوب على اليمن واختلف عليها الولاة منهم إلى

أن ملكها من بني المظفر شاهنشاه بن أيوب حافده سليمان بن المظفر وإنتقض أيام العادل سنة إثنى عشرة وستمائة فأمر العادل ابنه الكامل خليفته على مصر أن يبعث ابنه يوسف المسعود إلى اليمن، وهو أخو الصالح ويلقب بالتركي أطس ويقال أقسنس، وقد تقدم ذكر هذا اللقب، فملكها المسعود من يد سليمان وبعث به معتقلا إلى مصر. وهلك في جهاد الإفرنج بدمياط سنة سبع وأربعين. وهلك العادل أخو المسعود سنة خمس عشرة وستمائة، وولى بعده ابنه الكامل وجدد العهد إلى يوسف المسعود على اليمن. وحج المسعود سنة تسع عشرة وكان من خبره تأخير أعلام الخليفة عن إعلانه ما مر في أخبار دولتهم. ثم جاء سنة عشرين إلى مكة وأميرهم حسن بن قتادة من بني مطاعن إحدى بطون حسن فجمع لقتاله وهزمه المسعود، وملك مكة وولى عليها. ورجع إلى اليمن فأقام به، ثم طرده المرض سنة ست وعشرين فارتحل إلى مكة واستخلف على اليمن علي بن رسول التركماني أستاذ داره. ثم هلك المسعود بمكة لأربع عشرة سنة من ملكه، وبلغ خبر وفاته إلى أبيه وهو محاصر دمشق. ورجع ابن قتادة إلى مكة. ونصب علي بن رسول على اليمن موسى بن المسعود ولقبه الأشرف، وأقام مملكا على اليمن إلى أن خلع. وخلف المسعود ولد آخر اسمه يوسف، ومات وخلفه ابنه واسمه موسى وهو الذي نصبه الترك بعد أبيك ثم خلعوه. ثم خلع ابن رسول موسى الأشرف بن المسعود واستبد بملك اليمن وأخذ بدعوة الكامل بمصر، وبعث أخويه رهناً على الطاعة. ثم هلك سنة تسع وعشرين وولى ابنه المنصور عمر بن علي بن رسول. ولما هلك علي بن منصور ولى بعده الكامل ابنه عمر. ثم توفي الكامل سنة خمس وثلاثين وشغل بنو أيوب بالفتنة بينهم فاستغلظ سلطان عمر باليمن

وتلقب المنصور، ومنع الأتاوة التي كان يبعث بها إلى مصر، فأطلق صاحب
مصر العادل بن الكامل عمومته الذين كان أبوه رهنهم على الطاعة
لينازعوه في الأمر فغلبهم

وحبسهم. وكان أمر الزيدية بصفد قد خرج من بني الرسي وصار لبني سليمان بن داود كما مر في أخبارهم. ثم بويع من بني الرسي أحمد بن الحسين من بني الهادي يحمى بن الحسن بن القاسم الرسي، بايع له الزيدية بحصن ملا، وكانوا من يوم أخرجهم السليمانيون من صفد قد أووا إلى جبل مكانه. فلما بويع أحمد بن الحسين هذا لقبوه الموطىء وكان بحصن بملا، وكان الحديث شائعا بين الزيدية بأن الأمر يرجع إلى بني الرسي. وكان أحمد فقيها أديبا عالماً بمذهب الزيدية مجتهدا في العبادة. وبويع سنة خمس وأربعين وستمائة. وأهم عمر بن رسول شأنه فشمير لحره وحاصره بحصن ملا مدة، ثم أفرج عنه، وجهاز العساكر لحصارة من الحصون المجاورة له. ولم يزل قائماً بأمره إلى أن وثب عليه سنة ثمان وأربعين جماعة من مماليكه بممالة بني أخيه حسن فقتلوه لثمان عشرة سنة من ولاية المظفر يوسف بن عمر. ولما هلك المنصور علي بن رسول كما قلناه قام بالأمر مكانه ابنه المظفر شمس الدين يوسف، وكان عادلا محسنا وفرض الأتاوة عليه لملوك مصر من الترك لما استقلوا بالملك، وما زال يصانعهم بها ويعطيهم إياها. وكان لأول ملكه إمتنع عليه حصن الدمولة فشغل بحصاره، وتمكن أحمد الموطىء الثائر بحصن ملا من الزيدية من أعقاب بني الرسي فملك عشرين حصناً من حصون الزيدية. وزحف إلى صفد فملكها من يد السليمانيين، ونزل له أحمد المتوكل إمام الزيدية منهم فبايعه وأمنه. ولما كانوا في خطابة لم يزل في كل عصر منهم إمام كما ذكرناه في أخبارهم قبل. ولم يزل المظفر واليا على اليمن إلى أن هلك بغتة سنة أربع وتسعين لست وأربعين سنة من ملكة الأشرف عمر بن المظفر يوسف. ولما هلك المظفر يوسف كما قلناه وولي بعده ابنه الأشرف ممهد الدين عمر، وكان أخوه داود واليا على الشحر فدعاه لنفسه ونازعه الأمر، فبعث الأشرف عساكره وقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه وحبسه. واستمر الأشرف في ملكه إلى أن سمته جاريته فمات سنة ست وتسعين لعشرين شهراً من ولايته أخوه داود بن المظفر المؤيد يوسف. ولما هلك الأشرف بن عمر بن المظفر يوسف أخرجوا أخاه مؤيد الدين داود من معتقله، وولوه عليهم ولقبوه المؤيد. وافتتح أمره بقتل الجارية التي سمت أخاه. وما زال

يوصل ملوك الترك بهداياه وصلاته وتحفه والضريبة التي قررها سلفه،
وانتهت هديته سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى مائتي وقر بعير بالثياب
والتحف وطرف اليمن ومائتين من الجمال والخيل. ثم بعث سنة خمس
عشرة بمثل ذلك، وفسد ما بينه وبين ملوك الترك بمصر. وبعث بهديته سنة
ثمان عشرة فردوها عليه. ثم هلك سنة إحدى وعشرين وسبعمائة لخمس
وعشرين سنة من

ملكه. وكان فاضلا شافعي المذهب، وجمع الكتب من سائر الأمصار فاشتملت خزائنه على مائة ألف مجلد، وكان يتفقد العلماء بصلاته ويبعث لابن دقيق العيد فقيه الشافعية بمصر جوائزهم. ولما توفي المؤيد داود سنة إحدى وعشرين كما قلناه قام بملكه ابنه المجاهد سيف الدين علي ابن اثنتي عشرة سنة، والله وارث الأرض ومن عليها.

ثورة جلال الدين بن عمر الأشرف وحبسه

ولما ملك المجاهد علي شغل بلذاته وأساء السيرة في أهل المناصب الدينية بالعزل والاستبدال بغير حق فنكره أهل الدولة، وانتقض عليه جلال الدين ابن عمه عمر الأشرف وزحف إليه، وكانت بينهما حروب ووقائع كان النصر فيها للمجاهد، وغلب على جلال الدين وحبسه، والله تعالى أعلم.

ثورة جلال الدين ثانيا وحبس المجاهد وبيعة

المنصور أيوب بن المظفر يوسف

وبعد أن قبض المجاهد على جلال الدين ابن عمه الأشرف وحبسه لم يزل مشتغلا بلهوه عاكفا على لذاته، وضجر منه أهل الدولة وداخلهم جلال الدين في خلعه فوافقوه، فرحل إلى سنة إثنين وعشرين فخرج جلال الدين من حبسه وهجم عليه في بعض البساتين، وفتك بحرمة وقبض عليه، وباع لعمه المنصور أيوب بن المظفر يوسف واعتقل المجاهد عنده في نفر واطلق جلال الدين ابن عمه. والله تعالى أعلم بغيبه.

خلع المنصور أيوب ومقتله وعود المجاهد إلى ملكه ومنازعة الظاهر بن المنصور أيوب له

ولما جلس المجاهد بقلعة تعز واستقل المنصور بالملك إجتمع شيعة المجاهد وهجموا على المنصور في بيته بتعز وحيسوه، وأخرجوا المجاهد وأعادوه إلى ملكه، ورجع أهل اليمن لطاعته. وكان أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بالدملوة فعمى عليه وإمتنع بها. وكتب إليه المجاهد يهدده بقتل أبيه فلج واتسع الخرق بينهما، وعظمت الفتنة وافترق عليهما الحرب، وكثر عيثهم وكثر الفساد. وبعث المنصور من محبسه إلى ابنه عبد الله أن يسلم الدملوة خوفا على نفسه من القتل فأبى عبد الله من ذلك وأساء الرد على أبيه. ولما يئس المجاهد منه قتل أباه المنصور أيوب بن المظفر في محبسه، وإجتمع أهل الدملوة وكبيرهم الشريف ابن حمزة وبايعوا أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب، وبعث عسكرا مع الشهاب الصفوي إلى زبيد فحاصروها وفتحوها. وجهاز المجاهد عساكره إليها مع قائده علي بن الدوادار، ولما قاربوا زبيد أصابهم سيل وبيتهم أهل زبيد فنالوا منهم وأسروا أمراءهم. واتهم المجاهد قائده علي بن الدوادار بمداخلة عدوه فكتب إليه أن يسير إلى عدن لتحصيل مواليتها، وكتب إلى والي عدن بالقبض عليه، ووقع الكتاب بيد الظاهر فبعث به إلى الدوادار فرجع إلى عدن وحاصرها وفتحها. وخطب بها للظاهر سنة ثلاث وعشرين وملك عدن بعدها. ثم استمال صاحب صنعاء وخوص فقاموا بدعوة الظاهر، وبعث المجاهد إلى مذحج والأكراد يستنجدهم فلم ينجدوه، وهو بحصن المعديّة، وكتب الظاهر إلى أشرف مكة وقاضيا نجم الدين الطري بأن الأمر قد استقر له باليمن، والله تعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وصول العساكر من مصر مددا للمجاهد واستيلاؤه على أمره وصلحه مع الظاهر

ولما غلب الظاهر بن المنصور أيوب على قلاع اليمن وانتزعها من المجاهد وحاصره بقلعة المعديّة، بعث المجاهد سنة أربع وعشرين بصريخه إلى السلطان بمصر من الترك الناصر محمد بن قلاوون سنة خمس

وعشرين، فبعث إليه العساكر مع بيبرس الحاجب وأنيال من أمراء دولته،
ووصلوا إليه سنة خمس وعشرين فسار إليهم المجاهد من حصن المعدية
بنواحي عدن

إلى تعز فاستأمن إليه أهلها فأمنهم وراسلوا الظاهر في الصلح فأجاب على أن تكون له الدملوة، وتحالفوا على ذلك. وطلب أمراء الترك الشهاب الصفوي الذي أنشأ الفتنة بين المجاهد والظاهر فامتنع من إجابتهم فركب بيبرس وهجم عليه في خيمته وقتله بسوق الخيل بتعز وأثخنوا في العصاة على المجاهد في كل ناحية حتى أطاعوا، وتمهد له الملك ورجعت العساكر إلى مصر سنة ست وعشرين، والله سبحانه ولعالي أعلم.

نزول الظاهر للمجاهد عن الدملوة ومقتله

ولما استقام الأمر للمجاهد باليمن واستخلفه الظاهر على الدملوة أخذ المجاهد في تأنيسه وإحكام الوصلة به حتى اطمأن، وهو يفتل له في الذروة والغارب حتى نزل له عن الدملوة، وولى عليها من قبله، وصار الظاهر في جملته. ثم قبض عليه وحبسه بقلعة تعز. ثم قتله في محبسه سنة أربع وثلاثين، والله تعالى أعلم.

حج المجاهد علي بن المؤيد داود وواقعة ميم امراء

مصر

واعتقاله بالكرك تم إطلاقة ورجوعه إلى ملكه

ثم حج المجاهد سنة إحدى وخمسين أيام حسن الناصري الأولى وهي السنة التي

حج فيها طاز كافل المملكة أميراً، وحج ببيقاروس الكافل الآخر مقيداً لأن السلطان أمر طاز بالقبض عليه في طريقه فلما قبض عليه رغب منه أن يخلي سبيله لأداء فرضه فأجابه وحج مقيداً. وجاء المجاهد ملك اليمن للحج وشاع عنه أنه يروم كسوة الكعبة فتنكر أمراء مصر وعساكرها لأهل اليمن. ووقعت في بعض الأيام هبة في ركب اليمن فتحاربوا وانهزم وذهب سواده وركب أهل اليمن كافة، وأطلق ببيقاروس للقتال، فجلا في تلك الوقعة وأعيد إلى اعتقاله. وحمل المجاهد إلى مصر معتقلاً فحبس ثم أطلق سنة إثنين وخمسين في دولة الصالح. وبعثوا معه قشتمر المنصوري إلى بلاده. فلما إنتهى إلى اليمن ظهر عليه قشتمر بأنه يروم الهرب فرده وحبسه

بالكرك. ثم أطلق بعد ذلك وأعيد إلى ملكه وأقام على مهادة صاحب مصر
ومصانعه إلى أن توفي سنة ست وستين لاثنتين وأربعين سنة من ملكه.

ولاية الافضل عباس بن المجاهل علي

ولما توفي المجاهد سنة ست وستين وولي بعده ابته عباس، واستقام له ملك اليمن إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين لاثنتي عشرة سنة من ملكه، والله تعالى أعلم.

ولاية المنصور محمل بن الافضل عباس

ولما توفي الأفضل عباس بن المجاهد سنة ثمان وسبعين، وولي بعده ابنه المنصور محمد واستولى على أمره. وإجتمع جماعة من مماليكه سنة إثننتين وثمانين للثورة به وقتله، وأطلع على شانهم فهربوا إلى الدملوة، وأخذهم العرب في طريقهم وجاؤا بهم وعفا عنهم واستمر في ملكه إلى أن هلك، والله تعالى أعلم.

ولاية أخيه الأشرف بن الافضل عباس

ولما توفي المنصور محمد بن الأفضل سنة ١١١١ وولي أخوه الأشرف إسماعيل واستقام أمره وهو صاحب اليمن لهذا العهد لسنة ست وتسعين، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

خريطة

الخبر عن دولة التتر من شعوب الترك وكيف تغلبوا
على الممالك الإسلامية الخبر عن دولة التتر من شعوب
الترك وكيف تغلبوا على الممالك الإسلامية
وانتروا على كرسي الخلافة ببغداد وما كان لهم من
الدول

المفتركة وكيف اسلموا بعد ذلك ومبدأ أمورهم
وتصاريح أحوالهم

قد تقدم لنا ذكر التتر وأنهم من شعوب الترك، وأن الترك كلهم ولد
كومر بن يافث

على الصحيح، وهو الذي وقع في التوراة. وتقدم لنا ذكر أجناس الترك
وشعوبهم وعددنا منهم الغز الذين منهم السلجوقية والهياطلة الذين منهم
القلج، وبلاد الصغد قريبا من سمرقند ويسون بها أيضا. وعددنا منهم الخطا
والطغرغر وهم التتر، وكانت مساكن هاتين الامتين بارض طمغاج، ويقال
أنها بلاد تركستان وكاشغر وما إليها من وراء النهر وهي بلاد ملوكهم في
الإسلام، وعددنا منهم الخزلجية والغور والخزر والخفشاخ وهم القفجاق
ويمك والعلان. ويقال الآن وجركس وأركش. وعد صاحب روجار في كتابه
على الجغرافيا العساسة والتغزغزية والخرخيرية والكيماكية والخزلجية
والخزر والخلج وبلغار ويمناك وبرطاس وسنجرت وخرجان وأنكر، وذكر
مساكن أنكر في بلاد البنادقه من أرض الروم. وجمهور هذه الأمم من الترك
فيما وراء النهر شرقاً إلى البحر المحيط بين الجنوب والشمال من الإقليم
إلى السايغ، والصين في وسط بلادهم. وكان الصين أولابني صيني إخوانهم
من بني يافث. ثم صار لهم واستولوا على معظمه إلا قليلا من أطرافه على
ساحل البحر، وهم رحالة كما مر في ذكرهم أول الكتاب، وفي دولة
السلجوقية وأكثرهم في المفازة التي بين الصين وبلاد تركستان. وكان لهم
قبل الإسلام دولة، ولهم مع الفرس حروب مذكورة وملكهم لذلك العهد في
بني فراسيان. وكان بينهم وبين العرب لأول الفتح حروب طويلة قاتلوهم
على الإسلام، فلم يجيبوا فأثخنوا فيهم، وغلبوهم على أطراف بلادهم وأسلم

ملوكهم على بلادهم، وذلك من بعد القرن الأول. وكانت لهم في الإسلام دولة ببلاد تركستان وكاشغر، ولا أدري من أي شعوبهم كان هؤلاء الملوك. وقد قيل فيهم أنهم من ولد فراسيان ولا يعرف شعب فراسيان فيهم، وكان هؤلاء الملوك يلقبون بالخاقان بالخاء والقاف سمة لكل من يملك منهم، مثل كسرى للفرس وقيصر

للروم. وأسلم ملوكهم بعد صدر من الملة على بلادهم وملكهم فأقاموا بها، وكان بينهم وبين بني سامان الملوك القائمين فيما وراء النهر بدولة بني العباس حرب وسلم إصليت حالهم عليها إلى أن تلاشت دولتهم ودولة بني سامان جميعا. وقام محمود بن سبكتكين من موالي بني سامان بدولتهم وملكهم فيما وراء النهر وخراسان. وقد ظهر لذلك العهد بنو شلجوق وغلبوا ملوك الترك على أمرهم وأصبحوا في عداد ولايتهم شأن الدول البادية الجديدة مع الدول القديمة الحاضرة، ثم قارعوا بني سبكتكين وغلبوهم على ملكهم فيما بعد المائة الرابعة واستولوا على ممالك الإسلام بأسرها، وملكوا ما بين الهند ونهاية المعمور في الشمال وما بين الصين وخليج القسطنطينية في الغرب، وعلى اليمن والحجاز والشام، وفتحوا كثيرا من بلاد الروم واستفحلت دولتهم بما لم تنته إليه دولة بعد العرب والخلفاء في الملة. ثم تلاشت دولتهم وإنقرضت بعد مائتين من السنين شأن الـى. ول سنة الله في العباد. وكانوا بعد خروج السلجوقية إلى خراسان قد خلفتهم في بلاد بضواحي تركستان وكاشغر من أمم الترك أمة الخطا، ومن ورائهم أمة التتر ما إلى تركستان وحدود الصين. ولم يقدر ملوك الخانية بتركستان على دفاعهم لعجزهم عن ذلك فكان أرسلان خان بن محمد بن سليمان ينزلهم مسالح على الدروب ما بينه وبين الصين، ويقطعهم على ذلك ويوقع بهم على الفساد والعيث. ثم زحف من الصين ملك الترك الأعظم كوخان سنة اثنتين وعشرين وخمسائة، ولحقت به أمم الخطا ولقيهم الخان محمود بن محمد بن سليمان بن داود بن بقراخان صاحب تركستان وما وراء النهر من الخانية، وهو ابن أخت السلطان سنجر بن ملك شاه صاحب خراسان من ملوك السلجوقية فهزموه. وبعث بالصريح إلى خاله سنجر، فاستنفر ملوك خراسان وعساكر المسلمين وعبر جيحون للقائهم. وسارت إليه أمم التتر والخطا وتواقعوا في صفر سنة ست وثلاثين وخمسائة، وانهزم سنجر وأسرت زوجته ثم أطلقها كوخان ملك الترك، واستولى على ما وراء النهر. ثم مات كوخان سنة سبع وثلاثين وملكته بعده بنته، ثم ماتت فملكته بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد. ثم انقرض ملكهم واستولى الخطا على ما وراء النهر. ثم غلب على خوارزم علاء الدين محمد بن تكش

كما قدمناه، ويلقب هو وأبوه بخوارزم شاه. وكان ملوك الخانية ببلادهم فيما وراء النهر فاستصرخوا به على الخطا لما كثر من عيْثهم وفسادهم، فأجاب صريخهم وعبر النهر سنة ست وستمائة، وملكهم يومئذ كبير السن بصير في الحرب فلقِيهم فهزموه، وأسر خوارزم شاه ملكهم طانيكوه وحبسه بخوارزم، وملك سائر بلاد الخطا

إلى أوركندا، وأنزل بها نوابه وزوج أخته من الخان صاحب سمرقند، وأنزل معه شحنة كما كانت للخطا وعاد إلى بلاده. وثار ملك الخانية بالشحنة بعد رجوعه بسنة وقتلهم، وهم بقتل زوجته أخت خوارزم شاه وحاصره بسمرقند وإقتحمها عليه عنوة وقتله في جماعة من أقاربه، ومحا أثر الخانية وملكهم مما وراء النهر، وأنزل في سائر البلد نوابه. وكانت أمة التتر من وراء الخطا هؤلاء قد نزلوا في حدود الصين ما بينها وبين تركستان، وكان ملكهم كشلي خان، ووقع بينهم وبين الخطا من العداوة والحروب ما يقع بين الأمم المتجاورة. فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بالخطا أرادوا الإنتقام منهم، وزحف كشلي خان في أمم التتر إلى الخطا لينتهاز الفرصة فيهم، فبعث الخطا إلى خوارزم شاه يتلطفون له ويسألونه النصر من عدوهم قبل أن يستحكم أمره وتضيق عنه قدرتهم وقدرته. وبعث إليه كشلي ملك التتر بمثل ذلك فتجهز يوهم كل واحد من الفريقين أنه له وأقام منتبذا عنهما، وقد تواقعوا وانهزم الخطا فمال مع التتر عليهم واستلحموهم في كل وجه. ولم ينج منهم إلا قليل تحصنوا بين جبال في نواحي تركستان، وقليل آخرون لحقوا بخوارزم شاه فكانوا معه. وبعث خوارزم شاه إلى كشلي خان ملك التتر يعتد عليه بهزيمة الخطا، وأنها إنما كانت بمظاهرتة فأظهر له الإعتراف وشكره. ثم نازعه في بلادهم وأملاكهم، وبعث خوارزم شاه بحربهم. ثم علم أنه لا طاقة له بهم فمكث يراوغيهم عن اللقاء، وكشلي خان بعذله في ذلك وهو يغالطه، واستولى كشلي خان خلال ذلك على كاشغر وبلاد تركستان وساغون. ثم عمد خوارزم شاه إلى الشاس وفرغانة واسبيجاب وقاشان وما حولها من المدق التي لم يكن في بلاد الله أنزه منها ولا أحسن عمارة فجلا أهلها إلى بلاد المسلمين، وخرّب جميعها خوفا أن يملكها التتر بعد ذلك. وخرج على كشلي خان لطائفة أخرى يعرفون بالمغل، وملكهم جنكز خان فشغل كشلي خان بحربهم عن خوارزم شاه، وعبر النهر إلى خراسان، ونزل خوارزم إلى أن كان من أمره ما نذكره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء التتر على ممالك خوارزم شاه فيما وراء
النهر

وخراسان ومهلك خوارزم شاه وتوليه محمد بن
تكش

ولما رحل السلطان إلى خراسان استولى على الممالك ما بينه وبين
بغداد من

خراسان ومازندان وباميان وغزنه إلى بلاد الهند، وغلب الغورية على ما
بأيديهم. ثم ملك الري واصبهان وسائر

بلاد الجبل وسار إلى العراق، وبعث إلى الخليفة في الخطبة كما كانت لملوك بني سلجوق فامتنع الخليفة من ذلك كما مر ذلك كله في أخبار دولتهم. ثم عاد من العراق سنة ست عشرة وستمائة واستقر بنيسابور فوفدت عليه رسل جنكز خان بهدية من نقرة المعدنين ونوافج المسك وحجر اليشم والثياب الخطائية المنسوجة من وبر الإبل البيفى، ويخبر أنه ملك الصين وما بينها من بلاد الترك، ويطلب الموادة والإذن للتجار بالتردد لمتاجرهم من الجانبين وكان في خطابه إطراء السلطان خوارزم شاه بأنه مثل أعز أولاده فاستنكف السلطان من ذلك وامتنع له وأجمع عداوته، واستدعى محمودا الخوارزمي من رسل جنكز خان واصطنعه ليكون عينا له على صاحبه، واستخبره عما قاله في كتابه من أنه ملك الصين. واستولى على مدينة طوغاج فصدق له ذلك وسأله عن مقدار العساكر فقللها وغشه في ذلك. ثم نكر عليه الخطاب بالولد. ثم صرف الرسل بما طلبوه من الموادة والإذن للتجار، ووصل على أثر ذلك بعض التجار من بلادهم إلى أطرار وبها أنيال خان ابن خال السلطان خوارزم شاه فعثره على أموالهم، ورفع إلى السلطان أنهم عيون على البلاد وليسوا بتجار فأمره بالإحتياط عليهم ففعل، وأخذ أموالهم وقتلهم خفية. وفشا الخبر إلى جنكز خان فبعث بالنكير على السلطان في ذلك وقال له: إن كان فعله أنيال خان فابعثه إلى وتهده على ذلك في كتابه فانزعج السلطان لها وقتل الرسل. وبلغ الخبر إلى جنكز خان فسار في العساكر إلى بلاده، وجبى السلطان من سمرقند خراج سنتين حصن به أسوار سمرقند، وجبى ثالثة استخدم بها الفرسان لحمايتها. ثم سار للقاء جنكزخان فكانت بينهما واقعة عظيمة هلك فيها كثير من الفريقين فكبسهم وهو غائب عنهم، ورجع خوارزم شاه إلى جيحون وأقام عليه وفرق عساكره في أعمال ما وراء النهر: بخارى وسمرقند وترمد. وأنزل آبنايخ من أكبر أمرائه وأصحاب دولته في بخارى وجعلهم لنظره. ثم جاء جنكزخان إليه فعبر النهر مجفلا وقصد جنكز خان أطرار فحاصرها وملكها غلابة وأسر أميرها أنيال خان الذي قتل التجار فأذاب الفضة في أذنيه وعينيه. ثم حاصر بخارى وملكها على الأمان وقاتلوا معه القلعة حتى خربها. ثم غدر بهم فقتلهم وسباهم وفعل مثل ذلك في سمرقند سنة

تسع عشرة. ثم كتب كتباً إلى أمراء خوارزم شاه قرابة أمه كأنها أجوبة عن كتبهم إليه باستدعائه والبراءة من خوارزم، وذمه بعقوق أمه، فبسط آمالهم في كتبه، ووعد تركمان خان أم السلطان. وكانت في خوارزم فوعدها بزيارة خراسان وأن تبعث من يستخلفه على ذلك. وبعث بالكتب من يعترض بها للسلطان. فلما قرأها إرتاب بأمه وبقرايتها فاستوحشوا، ووقع التقاطع والنفرة. ولما استولى جنكز خان على ما وراء النهر، ونجا نائب بخارى في
الفل

أجفل السلطان وعبر جيحون، ورجع عنه طوائف الخطا الذين كانوا معه وتخاذل الناس، وسرح جنكز خان العساكر في أثره نحو من عشرين ألفا كانوا يسمونهم التتر المغربة لتوغلهم في البلاد غربي خراسان إلى بلاد القفجاق، ووصل السلطان إلى نيسابور فلم يلبث بها، وارتحل إلى مازندران والتتر في أثره. ثم إنتهى إلى همذان فكبسوه هنالك وفرقوا جموعه، ونجا إلى جبال طبرستان فأقام بقرية بساحل البحر في فل من قومه. ثم كبسه التتر أخرى فركب البحر إلى جزيرة في بحيرة طبرستان وخاضوا في أثره فغلبهم الماء ورجعوا، وأقام خوارزم شاه بالجزيرة ومرض بها ومات سنة سبع عشرة وستمئة، وعهد لابنه جلال الدين سكري. ولما بلغ خبر إجفاله إلى أمه تركمان خاتون بخوارزم خرجت سارية واعتصمت بقلعة ايلاز من مازندران، ورجع التتر عن اتباع خوارزم شاه فافتتحوا قلاع مازندران وملكوها وملكوا قلعة ايلاز صلحا، وأسرُوا أم السلطان ووراته وتزوجهن التتر، وتزوج دوشي خان بن جنكز خان واحدة، وبقيت تركمان خاتون أسيرة عندهم في ذل وخمول. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر المغربة بعد خوارزم شاه إلى العراق

وأذربيجان واستيلاؤهم عليها إلى بلاد قفجاق والروس

وبلاد الخزر:

ولما رجع التتر المغربة من اتباع خوارزم شاه سنة سبع عشرة عادوا إلى همذان وانتسفوا ما مروا عليه، وصانعهم أهل همذان بما طلبوه. ثم ساروا إلى سنجان كذلك، ثم إلى قومس فامتنعوا منهم وحاصروها وملكوها غلابة وقتلوا أكثر من أربعين ألفا. ثم ساروا إلى اذربيجان وصانعهم صاحب تبريز وانصرفوا إلى موقان ومروا ببلاد الكرج فاكتسحوها، وجمعوا لهم فهزموهم وأثخنوا فيهم وذلك آخر سنة سبع عشرة ثم عادوا إلى مراغة فملكوها عنوة في صفر سنة ثمان عشرة واستباحوا ورحلوا عنها إلى أربل، وبها مظفر الدين كوكبري. واستمد صاحب الموصل فأمدته بالعساكر. ثم استدعاهم الخليفة الناصر إلى دقوقا للمدافعة عن العراق مع عساكره وولى عليهم مظفر الدين صاحب أربل فخام عن لقاءهم وخاموا عن لقاءه.

وساروا إلى همذان وبها شحنتهم فامتنعوا من مصانعتهم، وقتلوهم فملكوها
عنوة واستباحوها واستلحموا أهلها ورجعوا إلى أذربيجان فملكوا أردبيل
واستباحوها وخربوها وساروا إلى تبريز، وقد فارقتها أزيك بن البهلوان إلى
نقجوان فصانعوهم بالأمان وساروا إلى

بيلقان وملكوها عنوة وأفحشوا في القتل والمثلة واكتسحوا جميع الضاحية. ثم ساروا إلى كنجة قاعدة أران فصانعهم أهلها فساروا إلى بلاد الكرج فهزموهم وحاصروهم بقاعدتهم تفليس، وردهم كثرة الأوعار عن التوغل فيها. ثم قصدوا دربند شروان وحاصروا مدينة سماجي ودخلوه عنوة وملكوه واستباحوه، وأعجزهم الدرند عن المسير فراسلوا شروان في الصلح، فبعث إليهم رجالاً من أصحابه فقتلوا بعضهم وقتلوا الباقين أذلاء. وأفضوا من الدرند إلى أرض أسحمة، وبها من القفجاق واللاز والغز وطوائف من الترك مسلمون وكفار أمم لا تحصى. ولم يطبقوا مغالبتهم لكثرتهم فرجعوا إلى التضريب بينهم حتى استولوا على بلادهم. ثم اكتسحوها وأوسعوهم قتلاً وسبياً، وفر أكثرهم إلى بلاد الروس وراءهم واعتصم الباقون بالجال والغياض. وإنتهى التتر إلى مدينتهم الكبرى سرداق على بحر نيطنش المتصل بخليج القسطنطينية، وهي مادتهم وفيها تجارتهم فملكها التتر وافترق أهلها في الجبال. وركب أهلها البحر إلى بلاد الروم في إيالة بني قليج أرسلان. ثم سار التتر سنة عشرين وستمئة من بلاد قفجاق إلى بلاد الروس المجاورة لها، وهي بلاد فسيحة وأهلها يدينون بالنصرانية فساروا إلى مدافعتهم في تخوم بلادهم، ومعهم جموع من القفجاق أياماً. ثم إنهم هزموا وأثنخ فيهم التتر قتلاً وسبياً ونهباً، وركبوا السفن هاربين إلى بلاد الإسلام وتركوا بلادهم فاكتسحها التتر. ثم عادوا عنها وقصدوا بلغار آخر السنة. واجتمع أهلها وساروا للقائهم بعد أن أكمنا لهم، ثم استطردوا أمامهم وخرج عليهم الكمناء من خلفهم فلم ينج منهم إلا القليل. وارتحلوا عائدين إلى جنكز خان بأرض الطالقان، ورجع القفجاق إلى بلادهم واستقروا فيها. والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

مسير جنكز خان إلى خراسان وتغلبه على أعمالها

وعلى خوارزم شاه:

كان جنكزخان بعد أن أجفل خوارزم شاه من جيحون، ومسير التتر المغربية في طلبه ملك سمرقند فبعث عسكرياً إلى ترمذ، وعسكرياً إلى خوارزم وعسكرياً إلى خراسان. وكان عسكر خوارزم أعظمها لأنها كرسي

الملك ومأوى العساكر، وبعث مع العساكر ابنه جفطاي وأركطاي فحاصروها
خمسة أشهر، وامتنعت فأمدهم جنكز خان بالعساكر متلاحقة، وملكوها
ناحية ناحية إلى أن استوعبوا. ثم نقبوا السد الذي يمنع ماء جيجون عنها
فسال إليها

جيحون فغرقها، وتقسم أهلها بين السند والعراق، هكذا قال ابن الأثير. وقال النسابي كاتب جلال الدين: إن دوشي خان عرض عليهم الأمان وخرجوا إليه فقتلهم أجمعين، وذلك في محرم سنة سبع عشرة وعاد دوشي خان والعساكر إلى جنكز خان فوجدوه بالطالقان. وأما عسكر ترمذ فساروا إليها وملكوها وتقدموا إلى كلابة من قلاع جيحون فملكوها وخبوها، وعسكر فرغانة كذلك. وأما عسكر خوارزم فعبروا إلى بلخ وملكوها على الأمان سنة سبع عشرة وأنزلوا بها شحنة. ثم ساروا إلى الزوزان وأيدحور ومازندران فملكوها وولوا عليها. ثم ساروا إلى الطالقان وحاصروا قلعة صاركوه وكانت منيعة، وجاءهم جنكزخان بنفسه بعد امتناعها ستة أشهر فحاصروها أربعة أشهر أخرى. ثم أمر بنقل الخشب والتراب ليجمع به تل يتعالى به البلد. فلما استيقنوا الهلكة فتحوا الباب وصدقوا الحملة فنجا الخيالة وتفرقوا في البلاد والشعاب، وقتل الرجال ودخل التتر فاستباحوها. وبعث جنكز خان عسكرا إلى سبا مع صهره قفجاق نون فقتل في حصارها ثم ملكوها فاستباحوها وخبوها.

ويقال قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً. ثم بعث جنكزخان في العساكر إلى مدينة مرو، وقد كان الناجون من هذه الوقائع انزوا إليها فاجتمعوا بظاهرها أكثر من مائتي ألف لا يشكون في الظفر، فلما زحف إليهم التتر ولوا منهزمين وأثخنوا فيهم. ثم حاصروا البلد خمسة أشهر واستنزلوا أميرها على الأمان. ثم قتلوهم جميعاً وحضر جنكز خان قتلهم. يقال قتل فيها سبعمائة ألف. ثم ساروا إلى نيسابور فاقحموها عنوة وقتلوا وعاثوا، ثم إلى طرابلس كذلك. ثم ساروا إلى هراة فملكوها على الأمان وأنزلوا عندهم الشحنة وعادوا إلى جنكز خان بالطالقان، وهو يرسل العساكر والسرايا في نواحي خراسان حتى أتوا عليها تخريباً، وذلك كله سنة سبع عشرة، والله تعالى أعلم.

إجفال جلال الدين ومسير التتر في إتباعه وفراره إلى الهند:

ثم بعث العساكر في طلب جلال الدين، وقد كان بعد مهلك أبيه وخروج تركمان خاتون من خوارزم سار إليها وملكها، واجتمع إليه الناس. ثم نمي إليه أن قرابة تركمان خاتون وهم البياروتية مالوا إلى أخيه يولغ شاه وابن أختهم، وأنهم يريدون الوثوب بجلال الدين ففر ولحق بنيسابور. وجاءت عساكر التتر إلى خوارزم فأجفل يولغ شاه وأخواه ليلحقوا به بنيسابور فأدركهم التتر، وهم محاصرون قلعة قندهار فاستلحمهم. ثم سار إلى غزنة فملكها من يد الثوار الذين استولوا عليها هذه الفتنة، وذلك سنة ثمان عشرة. ولحق به أمراء أبيه الذين تغلبوا على نواحي

خراسان في هذه الفتنة، وأزعجهم التتر عنها فحضرُوا مع جلال الدين كبسه التتر بقلعة قندهار. ولحق فلهم بجنكزخان. وبعث ابنه طولي خان لقتال جلال الدين فهزمه جلال الدين وقتله. ولحق الفل من عساكره بجنكزخان فسار في أمم التتر ولقي جلال الدين فإنهزم ولم يفلت من التتر إلا الأقل ورجع جلال الدين فنزل على نهر السند، وقد كان جماعة من أمرائه إنعزلوا عنه يوم الواقعة الأولى بسبب الغنائم فبعث إليهم يستألفهم فعاجله جنكز خان، وقاتله ثلاثاً ثم هزمه واعترضه نهر السند، فاقتحمه وخلص إلى السند بعد أن قتل حرمه أجمعين، وذلك سنة ثمان عشرة. والله تعالى أعلم.

أخبار غياث الدين بن خوارزم شاه مع التتر:

كان خوارزم شاه قد قسم الملك بين ولده: فجعل العراق لغورنشاه، وكرمان لغياث الدين تمرشاه فلم ينفذ إليها أيام أبيه. فلما فر خوارزم شاه إلى ناحية الري لقيه ابنه غورنشاه صاحب العراق. ثم كانت واقعة التتريّة على حدوى، ولحق خوارزم شاه بجزيرة طبرستان، ولحق غورنشاه بكرمان. ثم رجع واستولى على أصبهان وعلى الري. ثم زحف التتر إليه وحاصروه بقلعة أوند وقتلوه، وكان أخوه غياث الدين بكرمان، ومملكه بينه وبين بقا طرابلسي أتاكه، وفر إلى ناحية أذربيجان. واستولى غياث الدين على العراق ومازندران وخوزستان فأقطع بقا طرابلسي همذان. ثم سار غياث الدين إلى أذربيجان فصانعه صاحبها أزيك بن البهلوان، ولحق به من كان متغلباً من أمراء أبيه بخراسان. وكان أبايخ خان نائب بخارى قد تغلب بعد الواقعة على نسا ونواحيها وجر جان، وعلى شيروان وعامة خراسان. وكان تكين بهلوان متغلباً على مرو فعبر جيحون سنة سبع عشرة وكبس شحنة التتر، واتبعوه إلى شيروان ولقوا أبايخ خان على جرجان فهزموه. ونجا فلهم إلى غياث الدين على العراق والري وما وراءها في الجنوب من موكان وأذربيجان، وبقيت خوارزم طوائف، وفي كل ناحية منها متغلب، وعساكر التتر في كل وقت تدوخ بلاد العراق وغياث الدين منهمك في لذاته. والله تعالى أعلم.

رجوع جلال الدين من الهند واستيلاؤه على العراق
وكرمان وأذربيجان ثم زحف التتر إليه:

ثم رجع جلال الدين من الهند سنة إحدى وعشرين، واستولى على ملك
أخيه غياث الدين

بالعراق وكرمان، وبعث إلى الخليفة يطلب الخطبة فلم يسعف فاستعد لمحاربتة. وقد كانت بلاد الري من بعد تخريب التتر المغربة لها عاد إليها بعض أهلها وعمروها فبعث إليها جنكز خان عسكرياً من التتر فخربوها ثانية، وخبروا سلوة وقم وقاشان؛ وأجفل أمامهم عسكر خوارزم شاه من همذان فخربوها واتبعوهم فكبسوهم في حدود أذربيجان. ولحق بعضهم بتبريز والتتر في اتباعهم فصانعهم صاحبها أزيك بن البهلوان، وبعث بهم إلى التتر الذين في اتباعهم بعد أن قتل جماعة منهم. وبعث برؤسهم وبالأموال على سبيل المصانعة فرجعوا عن بلاده. وسار جلال الدين إلى أذربيجان سنة إثنين وعشرين فملكها وكانت له فيها أخبار ذكرناها في دولته. ثم بلغ السلطان جلال الدين أن التتر زحفوا من بلادهم وراء النهر إلى العراق فنهض من تبريز للقائهم في رمضان سنة خمس وعشرين، ولقيهم على أصبهان، وإنفض عنه أخوه غياث الدين في طائفة من العساكر. وإنهزمت ميسرة التتر وسار السلطان في اتباعهم وقد أكمنا له وأحاطوا به واستشهد جماعة؛ ثم صدق عليهم الحملة فأفرجوا له ومضى لوجهه، وإنهزمت العساكر إلى فارس وكرمان وأذربيجان ورجع المتبعون للتتر من قاشان فوجدوه قد إنهزم فافترقوا أشتاتاً ولحق السلطان بأصبهان بعد ثمانية أيام، فوجد التتر يحاصرون أصبهان فبرز إليهم في عساكرها وهزمهم وأتبعهم إلى الري، وبعث العساكر في اتباعهم إلى خراسان، ورجع إلى أذربيجان وأقام بها وكانت له فيها أخبار مذكورة في دولته. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسير التتر إلى أذربيجان واستيلاؤهم على تبريز

ثم واقعتهم مع جلال الدين بآمد ومقتله:

كان التتر لما استقروا فيما وراء النهر عمروا تلك البلاد واخطوا قرب خوارزم مدينة عظيمة تعوض عنها، وبقيت خراسان خاوية. واستبد بالمدن فيها طوائف من الأمراء أشباه الملوك يعطون الطاعة للسلطان جلال الدين منذ جاء من الهند. وإنفرد جلال الدين بملك العراق وفارس وكرمان وأذربيجان وأران وما إلى ذلك. وبقيت خراسان مجالا لغزاة التتر

وعساكرهم وسارت طائفة منهم سنة خمس وعشرين إلى أصبهان، وكانت بينهم وبين جلال الدين الواقعة كما مرّ. ثم زحف جلال الدين إلى خلاط وملكها. وزحف إليه صاحبها الأشرف بن العادل من الشام وعلاء الدين كيقباد صاحب بلاد الروم، وأوقعوا به كما مر في أخباره سنة سبع

وعشرين، الواقعة التي أوهنت منه وحلت عرى ملكه. وكان علاء الدين مقدم الإسماعيلية بقلعة الموت عدوا لجلال الدين بما أثنى في بلاده، وقرر عليه وظائف الأموال فبعث إلى التتر يخبرهم أن الهزيمة أوهنته ويحثهم على قصد، فسار إلى أذربيجان أول سنة ثلاث وعشرين. وبلغ الخبر إلى السلطان بمسيرهم فرحل من تبريز إلى موقان وأقام بها في انتظار شحنة خراسان ومازندران، وشغل بالصيد فكبس التتر ونهبوا معسكره، وخلص إلى نهر رأس من أزان. ثم رجع إلى أذربيجان وشتى بماهان. ثم جاءه النذير بمسير التتر إليه فرحل إلى أران وتحصن بها، وثار أهل تبريز لما بلغهم خبر الواقعة الأولى بمن عندهم من عساكر الخوارزمية وقتلوهم، ومنعهم رئيسهم الطغرياني من طاعة التتر. ووصل، للسلطان جلال الدين ثم هلك قريباً فسلموا بلدهم للتتر، وكذا فعل أهل كنجة وأهل سلغار. ثم سار السلطان إلى كنجة وإرتجعا وقتل المعترضين للثورة فيها؛ وسار إلى خلاط واستمد الأشرف بن العادل صاحب الشام فعلله بالمواعيد. وسار إلى مصر ويئس من إنجاده فبعث إلى جيرانه من الملوك يستنجدهم مثل صاحب حلب وآمد وماردين. ووجد عسكراً إلى بلاد الروم في خرت برت وملطية وأذربيجان فاقتحموها لما بين صاحبها كيقباد وبين الأشرف من الموالاة فاستوحش جميع الملوك من ذلك وقعدوا عن نصرته. وجاءه الخبر وهو بخلاط أن التتر زحفوا إليه فاضطرب في رحله، وبعث أتابكه أوترخان في أربعة آلاف فارس طليعة فرجع وأخبره أن التتر رجعوا من حدود ملاذ كرد، وأشار عليه قومه بالمسير إلى أصبهان. وزين له صاحب آمد قصد بلاد الروم وأطمعه في الاستيلاء عليها ليتصل بالقفجاق ويستظهر بهم على التتر، ووعد الإمداد بنفسه يروم الانتقام من صاحب الروم لما ملك من قلاعه فخيم إلى رأيه وعدل عن أصبهان ونزل بآمد. وبعث إليه التركمان بالنذير وأنهم رأوا نيران التتر فاتهم خبرهم. وصحبه التتر على آمد منتصف شوال سنة ثمان وعشرين وأحاطوا بخيمته، وحمل عليهم أتابكه أوترخان وكشفهم عن الخيمة. وركب السلطان وأسلم أهله وسواده، ورد أوترخان العساكر وانتبذ ليتواري عن عين العدو. وسار أوترخان إلى أصبهان واستولى عليها إلى أن ملكها التتر من يده سنة تسع وثلاثين. وذهب السلطان منجفلاً وقد

امتأأت الءربنداء والمضايق بالمفسءين من غير صنوفهم بالقتل والنهب؁ فأشار عليه أوترخان بالرجوع فرجع إلى قرية من قرى ميافارقين؁ ونزل في بيءرها وفارقه أوترخان إلى حلب. وهجم التتر على السلطان بالبيءر وقتلوا من كان معه؁ وهرب فصعد جبل الأكراد وهم

مترصدون الطرق للنهب فسلبوه وهموا بقتله. وشعر بعضهم أنه السلطان فمضى به إلى بيته ليخلصه إلى بعض النواحي، ودخل البيت في مغيبه بعض سفلتهم وهو يريد الثأر من الخوارزمية بأخ له قتل بخلاط فقتله، ولم يغن عنه أهل البيت. ثم انتشر التتر بعد هذه الواقعة في سواد آمد وأرزن وميفارقين وسائر ديار بكر فاكتسحوها وخربوها، وملكوا مدينة أسعرد عنوة فاستباحوها بعد حصار خمسة أيام، ومروا بميفارقين فامتنعت، ثم وصلوا إلى نصيبين فاكتسحوها نواحيها، ثم إلى سنجار وجبالها والخابور. ثم ساروا إلى أيدس فأحرقوها، ثم إلى أعمال خلاط فاستباحوا هاكري وأرجيش. وجاءت طائفة أخرى من أذربيجان إلى أعمال أربل ومروا في طريقهم بالتركان الأيوية والأكراد الجوزقان فنهبوا وقتلوا، وخرج إليهم والي أربل مستمدا أهلها وعساكر الموصل فلم يدركوهم فعادوا وبقيت البلاد قاعاً صفصفاً. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

التعريف بجنكز خان وقسمة الأعمال بين ولده

وإنفراده بالكركسي في قراقوم وبلاد الصين:

هذا السلطان جنكز خان هو سلطان التتر لعده ثم من المغل أحد شعوبهم، وفي كتاب لشهاب الدين بن فضل الله: أنه من قبيلة أشهر قبائل المغل وأكبرهم، وزايه التي بين الكاف والخاء ليست صريحة وإنما هي مشتملة بالصاد فينطق بها بين الصاد والزاي. وكان إسمه تمرجين ثم أصاروه جنكز، وخان تمام الإسم وهو بمعنى الملك عندهم. وأما نسبه فهي هكذا: بخز بن بيسوكي بن بهادر بن تومان برتيل خان بن تومينه بن باد سنقر بن تيدوان ديوم بن بقا بن مودنجه؛ إحد عشر إسماً أعجمياً صعبة الضبط وهذا منحاه. وفي كتاب ابن فضل الله فيما نقله عن شمس الدين الأصبهاني أمام المعقولات بالمشرق أخذها عن أصحاب نظير الدين الطوسي قال: إن مودنجه إسم امرأة وهي جدتهم من غير أب. قالوا: وكانت متزوجة وولدت ولدين اسم أحدهما بكتوت والأخر بلكتوت، ويقال لولدها بنو الدلوكية. ثم مات زوجها وتأيمت وحملت وهي أيم فنكر عليها

أقرباؤها فذكرت أنها رأت بعض الأيام نوراً دخل في فرجها ثلاث مرات،
وطراً عليها الحمل

بعده. وقالت لهم: إن في حملها ثلاثة ذكور، فإن صدق ذلك عند الوضع وإلا فافعلوا ما بدا لكم. فوضعت ثلاثة توائم من ذلك الحمل فظهرت براءتها بزعمهم، إسم أحدهم: برقد والآخر قوناً والثالث نجعو، وهو جد جنكز خان الذي في عمود نسبه كما مر، وكانوا يسمونهم النوانيين نسبة إلى النور الذي إدعته. ولذلك يقولون جنكز خان ابن الشمس.

وأما أوليته فقال يحيى بن أحمد بن علي النسابي كاتب جلال الدين خوارزم شاه في تاريخ دولته: إن مملكة الصين متسعة ودورها مسيرة تسعة أشهر، وهي منقسمة من

قديم الزمان على تسعة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر. ويتولى ملك كل جزء منها ملك يسمى بلغتهم خان، ويكون نائباً على الخان الأعظم. قال: وكان الأعظم الذي عاصر خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش يقال له طرخان توارثها عن آبائه، وكان مقيماً بطوغاج، وهي وسط الصين. وكان جنكز خان من أولئك الخانات الستة، وكان من سكان البدو ومن أهل النجدة والشرف، وكان مشتاه فارعون من بلاد الصين. وكان من خاناتهم أيضاً ملك آخر اسمه دوشي خان كان متزوجاً بزوجة جنكز خان، واتفقت وفاته فحضر جنكزخان يوم وفاة زوجها دوشي خان فولته مكانه وحملت قومها على طاعته. وبلغ الخبر إلى الخان الأعظم طرخان فنكر ذلك وزحف إليهم فقاتلوه وهزموه وغلبوه على أثر بلاده. ثم صالحهم عليها وأقام متغلباً. ثم مات بقية الخانات الستة وإنفرد جنكز خان بأمرهم جميعاً، وأصبح ملكهم، وكان بينه وبين خوارزم شاه من الحروب ما قدمناه. وفي كتاب ابن فضل الله محكياً عن صاحب علاء الدين عطاء وحدثه به قال: كان ملك عظيم من التتر في قبيلة عظيمة من قبائلهم يدعى أزيك خان، وكان مطاعاً في قومه فإتصل به جنكز خان فقربه واستخلصه وناقسه قرابة السلطان، وسعوا به عنده حتى استفسدوه عليه وطوى له وتربص به. وسخط أزيك خان على مملوكين عنده فاستجارا بجنكز خان فأجارهما وضمن لهما أمانه، وأطلعاه على رأي السلطان فيه فاستوحش وحذر وثبة السلطان فأجفل أمامه وأتبعه السلطان في عساكره. فلما أدركه كثر عليه جنكز خان فهزمه وغنم سواده وما معه. ثم استمرت العداوة وانتبذ عن السلطان واستألف

العساكر والأتباع، وأفاض فيهم الإحسان فاشتدت شوكته، ودخل في طاعته قبيلتان عظيمتان من المغل وهما أورات ومنفورات فعظمت جموعه، وأحسن إلى المملوكين اللذين حذراه من أزبك خان، ورفع رتبتهما وكتب لهما العهود بما اختاراه، وكتب فيها أن يستمر ذلك لهما إلى تسعة بطون من أعقابهما. ثم جهز العساكر لحرب أزبك خان فهزمه، وقتله، واستولى على مملكة التتر بأسرها. ولما

توطأ أمره تسمى جنكزخان، وكان اسمه تمرجين كما مرّ. وكتب لهم كتاباً في السياسة في الملك والحروب والأحكام العامة شبه أحكام الشرائع. وأمر أن يوضع في خزائنه وأن تختص بقرايته، ولم يكن يؤتى بمثله وإنما كان دينه ودين آبائه وقومه المجوسية حتى ملكوا الأرض، واستفحلت دولتهم بالعراق والشمال وما وراء النهر، وأسلم من ملوكهم من هداه الله للإسلام كما نذكره إن شاء الله تعالى، فدخلوا في عداد ملوك الإسلام إلى أن انقرضت دولتهم وإنقضت أيامهم. والبقاء لله وحده.

وأما ولده فكثير وهو الذي يقتضيه حال بداوته وعصبيته، إلا أن المشهور منهم أربعة أولهم: دوشي خان ويقال جرجي، وثانيهم جفطاي ويقال كداي، وثالثهم أوكداي ويقال أوكتاي، ورابعهم طولوي بين التاء والطاء. والثلاثة الأول لأم واحدة وهي أبولوي بنت تيكي من كبار المغل. وعد شمس الدين الأصبهاني الأربعة فقال: جرجي وكداي وطولوي وأوكداي. وقال نظام الدين يحيى بن الحليم نور الدين عبد الرحمن الصيادي كاتب السلطان أبي سعيد، فيما نقله عنه شهاب الدين بن فضل الله: أن كداي هو جفطاي وجرجي هو طوشي. فلما ملك جنكز خان البلاد قسم الممالك فكان لولده طوشي بلاد فيلاق إلى بلغار وهي دست القفجاق، وأضاف إليه أران وهمذان وتبريز ومراغه وعيرلان وكتاي حدود آمد وقوباق، وما أدري تفسير هذه، وجعله ولي عهده. وعين لجفطاي من الأيقور إلى سمرقند وبخارى وما وراء النهر، ولم يعين لطولوي شيئاً. وعين لأخيه أوتكين نوى بلاد أبخت، ولا أدري معنى هذا الإسم. ولما استفحل ملكه واستولى على هذه الممالك جلس على التخت، وانتقل إلى وطنه القديم بين الخطا والأيقور، وهي تركستان وكاشغر. وفي ذلك الوطن مدينة قراقوم وبها كان كرسية ومكانه بين أعمال ولده مكان المركز من الدائرة. وكان كبير ولده طوشي ويقال دوشي ومات في حياته، وخلف من الولد ناخوا وبركة وداوردة وطوفل، هكذا قال ابن الحكيم. وقال شمس الدين: ناظو وبركة فقط. ومات طولوي أيضاً في حياته في حربه مع جلال الدين خوارزم شاه بنواحي غزنة وخلف من الولد منكو قبلاي وأزبيك وهلاكوا. والله تعالى أعلم بغيبه وأحكامه.

خريطة